

التي قررها الإمام الطحاوي



مع منتخبات اختارها

عبد المنعم صالح العلي العزي

دار البشير

للثقافة والعلوم

* الكتـــــاب : أصـول العقيدة

* الـكـاتـب : الإمام أبو جعفر أحمد بن سلامة الأزدى الطحاوى

* الطبـعـة : الطبعة الأولى 1999م .

* النشـر والتـوزيع : دار البشير للثقافة والعلوم ـ طنطا 23 ش الجيش عماره الشرق للتأمين.

تلفاكس : 321744 - 305538 ☎ 210907 - 228277

* التـجـهـيـز الفنى : الندى للتجهيزات الفنية. المحلة الكبرى. ص . ب 265 ☎ 228277

* الإيداع القـانونى : 13986 / 98

* التـرقـيم الدولى : 0 / 069 / 278 / 977


أصول العقيدة الإسلامية
الإمام أبو جعفر أحمد بن سلامة الأزدى الطحاوى





الحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على أشرف المرسلين ، وسيد الخلق أجمعين ، محمد عبد الله ورسوله الهادى الأمين ، وعلى آله وصحبه وتابعيهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فإن نقطة البداية فى مسيرة الإصلاح الإسلامى الحاضر إنما تتمثل فى التعريف بعقيدة التوحيد الخالصة من المبتدعات ، وإن المنطلق الصحيح للصحوة الإيمانية المعاصرة لابد أن ينبعث من هذه الحقيقة ، ليربى الجيل الجديد المقدام من شباب الإسلام وفق المعالم الأصيلة لهذه العقيدة ، وليستدرك على العامة من الناس ما قد يكون علق بموازينهم من الاختلاطات والأوهام والشوائب .

ورجال التربية الإسلامية يُدركون بوضوح هذا البعد المهم الرئيسى فى الخطة الإصلاحية ، وهم يشعرون أن واجبهم المبادرة إلى المساهمة فى هذه العملية التربوية التى تعطى للصحوة معناها الإيمانى ، وتمنحها قوتها التى يكون بها نفاذها ، وتضمن لها استمرارها الذى يرفعها عن الهبوط إلى مستوى الفورات الهامشية الطارئة .

واختيار مثل هذا الكتاب القيم النفيس إنما هو مظهر لهذا الإدراك الواعى ، فإن علماء الأمة وثقات الفقهاء يجمعون على أن عقيدة الإمام الطحاوى ـ رحمه الله ـ عقيدة سليمة صحيحة تلتزم الفهم السلفى السُنى القديم الأول ، البرىء من التأويل والتمثيل والتعطيل ، ويكادون يجمعون كذلك على أن هذا الشرح الذى دوَّنه القاضى ابن أبى العز الأذرعى قد أصاب فهم مُراد الإمام الطحاوى ، وفيه حرص تام على القرب من نصوص القرآن والحديث ، مع تغليب قول جمهور الفقهاء فى مسائل الخلاف ، بعيداً عن الشذوذ والتكلف .

وقد طُبع الشرح للمرة الأولى سنة ١٣٤٩ هـ بمكة المكرمة ، وعنى بتصحيحه والإشراف على طبعه لجنة من المشايخ والعلماء ، برياسة العلامة الكبير الشيخ عبد الله بن حسن بن حسين آل الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ رحمه الله ـ ثم أعيد طبع هذا الشرح فى مصر بعناية الشيخ المحدّث العلامة أحمد محمد شاكر ـ رحمه الله ـ وأعيد طبعه ثالثة بعناية جماعة من العلماء ـ حفظهم الله ـ وكلهم قد اجتهد فى ضبطه وزاد خيراً ، ولكن اعتمادنا كان على طبعة الشيخ أحمد محمد شاكر ومقدماتها .

والطحاوى صاحب هذه العقيدة هو إمام ، محدث ، فقيه ، ولد سنة تسع وثلاثين ومائتين بمصر وتلقى العلم على خاله إسماعيل بن يحيى المزنى أفقه أصحاب الشافعى ، ولكنه أصبح بعد ذلك من أتباع مذهب أبى حنيفة وترك خاله ، دون أن يمنعه ذلك من مخالفة بعض أقوال أبى حنيفة وترجيح ما ذهب إليه غيره .

وقد تخرج الطحاوى بكثير من الشيوخ ، حتى أربى عددهم على ثلاثمائة شيخ ، وأثنى عليه غير واحد من أهل العلم .

قال ابن يونس : كان الطحاوى ثقة ، ثبتاً ، فقيهاً ، عاقلاً ، لم يخلف مثله .

وهذه الشهادة كافية وحدها ، فإن أقوال ابن يونس فى المصريين هى أوثق الأقوال .

وقال الذهبى فى تاريخه الكبير : الفقيه ، المحدث ، الحافظ ، أحد الأعلام ، وكان ثقة ، ثبتاً ، فقيهاً ، عاقلاً .

وقال ابن كثير فى البداية والنهاية : هو أحد الثقات الأثبات ، والحفاظ الجهابذة .

وأما تصانيفه ـ رحمه الله ـ فهى غاية فى التحقيق والجمع وكثيرة الفوائد وحسن العرض .

فمن مصنفاته « العقيدة الطحاوية » ، وهى التى نقدمها مع منتخبات من

شرحها، وهى على صغر حجمها غزيرة النفع ، سلفية المنهج ، من غير حيدة عنه ، ولا تمحل .

ومنها : كتاب « معانى الآثار » ويعرض فيه الأبحاث الفقهية مقرونة بدليلها ، ويذكر فى غضون بحثه المسائل الخلافية ، ويسرد أدلتها ويناقشها ، ثم يرجح ما استبان له الصواب منها ، وهذا الكتاب يدرب طالب العلم على التفقه ، ويربى فيه ملكة الاستنباط ، ويكون له شخصية مستقلة .

ومنها : كتاب « مشكل الآثار » وهو كتاب جليل القدر عظيم النفع ، يسوق الأحاديث التى تبدو لأول وهلة أنها متعارضة ، ثم يأخذ فى دفع ذلك التعارض بطريقة فذة .

ومنها : مختصر فى الفقه على فروع الحنفية .

وكل هذه الكتب مطبوعة مشهورة ، وله تصانيف أخرى .

وقد توفى ـ رحمه الله ـ سنة إحدى وعشرين وثلاثمائة .

وأما الشارح فهو العلامة صدر الدين على بن على بن محمد بن أبى العزّ الأذرعى الحنفى ، قاضى القضاة بدمشق ، ثم بالديار المصرية ، ثم بدمشق ، ولد سنة ٧٣١ هـ ، ومات سنة ٧٩٢ هـ ، وهو من تلامذة الحافظ ابن كثير ، وله ترجمة فى الجزء الثالث من كتاب « الدر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة » لابن حجر العسقلانى ، والذى لاحظناه ولفت انتباهنا فى هذا الشرح : كثرة اعتماد ابن أبى العز ـ رحمه الله ـ على كلام الإمام إبن قيم الجوزية ، دون أن يشير صراحة إلى ذلك ، حتى إنه لينقل منه صفحات أحياناً ، مما يُنبى عن طبيعة شخصيته المتحررة من التقليد ، المنتسبة إلى النهضة الإصلاحية التى قادها شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ .

ولكنا رأينا أن من تمام إتقان دورنا فى ترويج هذا الشرح الرائع البديع للعقيدة الطحاوية ، أن نقوم بتهذيبه ، وتنقيحه ، واختصار بعض فصوله ، ليكون أكثر تناسباً مع الحاجة التربوية ، وأيسر فهماً ، وأليق للتدريس المنهجى فى المعاهد الشرعية ، والمدارس ، وحلقات المساجد ، ومنتديات شباب الدعوة الإسلامية ،

فكان حذف كثير من حوار الشارح مع أصحاب البدع المضمحلة التى تكاد أن تنقرض ، من المعتزلة وأمثالهم ، مع التخلص من بعض التكرار أو الإطناب ، والاكتفاء بشواهد قليلة توضح المقصود إذا أكثر الشارح من إيراد الشواهد ، وأما نص كلام الإمام الطحاوى فقد تم إيراده كاملاً دونما نقص حرف واحد .

وقد جاء التعويض عن المحذوف فى صورة من تجويد الطباعة ، وتمييز الحروف ، وبذل جهد يمنع الأخطاء والتحريف ، فكان أصل متن الطحاوى بحرف كبير أسود فى بدايته نقطة سوداء كبيرة ، وكان كلام الشارح بحرف صغير أبيض ، ومتون الأحاديث النبوية الشريفة بحرف صغير أسود ، مما أتاح مقداراً من الوضوح ، وإبراز المعانى ، وشدّ انتباه القارىء يقل نظيره .

والله سبحانه وتعالى هو المعين ، وبنعمته وفضله تتم الصالحات .

شَــرحُ العقيدةِ الطحَـاويَّــة

قال الشيخ العلامة قاضى القضاة على بن أبى العز ـ رحمه الله ـ :

الحمد لله ، نستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا . من يَهده الله فلا مُضل له ، ومن يُضلل فلا هادى له . ونشهد أن لا إله إلا الله وحده ، لا شريك له ، ونشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله ، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

أما بعد

فإن علْمَ أُصول الدين أشرفُ العلوم ، وحاجةُ العباد إليه فوق كل حاجة ، لأنه لا حياةَ للقَلوب إلا بأن تعرف ربها ومعبودَها وفاطرَها ، بأسمائه وصفاته وأفعاله .

ومن المحال أن تستقلَّ العقولُ بمعرفة ذلك ، وإدراكه على التفصيل ، فاقتضت رحمةُ العزيزِ الرحيم بعثَ الرسل به معرفين ، وإليه داعينَ ، ولمن أجابهم مبشرين ، ولمن خالفهمَ مُنذرين ، وجعل مفتاحَ دعوتهم ، وزبدةَ رسالتهم : معرفةَ المعبود سبحانه ، بأسمائه وصفاته وأفعاله ، إذ علىَ هذه المعرفة تُبنى َمطالبُ الرسالةِ كلها من أولها إلى آخرها .

ثم يتبع ذلك أصلان عظيمان :

أحدهما : تعريفُ الطريق الموصل إليه ، وهى شريعته المتضمنةُ لأمره ونهيه .
والثانى : تعريفُ السالكين ما لهم بعد الوصول إليه من النعيم المقيم .

فأعرفُ الناس بالله عز وجل : أتبعُهم للطريق الموصل إليه ، وأعرفُهم بحال السالكين عند القدوم عليه ، ولهذا سمى الله ما أنزل على رسوله روحا ، لتوقّف الحياة الحقيقية عليه ، ونوراً الهداية عليه ، فقال الله تعالى : ﴿ **يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ** ﴾ (غافر : ١٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا

الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الشورى : ٥٢) .

ولاريبَ أنه على كل أحد أن يؤمن بما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ إيماناً عاماً مجملاً ، وأما ما يجب على أعيان المؤمنين : فهذا يتنوع بتنوع حاجاتهم ومعرفتهم ، ولا يجب على العاجز عن سماع بعض العلم ، أو عن فهم دقيقه ، ما يجبُ على القادر على ذلك ويجبُ على من سَمِع النصوصَ وفهمَها من عَلم التفصيل ما لا يجبَ على من لم يسمعها ، ويجب على المفتى المحدِّث والحاكمِ ما لا يجب على من ليس كذلك .

وينبغى أن يُعرف أن عامة من ضل فى هذا الباب أو عَجز فيه عن معرفة الحق ، فإنما هو لتفريطه فى اتباع ما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وترك النظر والإستدلال الموصل إلى معرفته ، فلما أعرضوا عن كتاب الله : ضلوا ، كما قال تعالى : ﴿ **قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَٰلِكَ الْيَوْمَ تُنسَىٰ (١٢٦) وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَىٰ** ﴾ (طه : ١٢٢ ـ ١٢٦) .

وقد نزه الله تعالى نفسَه عما يصف به العبادّ ، إلا ما وصفه به المرسلون ، بقوله سبحانه : ﴿ **سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلَامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ** ﴾ (الصافات : ١٨٠ ـ ١٨٢) .

فنزّه نفسه سبحانه عما يصفه به الكافرون ، ثم سلم على المرسلين ، لسلامة ما وصفوه به من النقائص والعيوب ، ثم حمدَ نَفسَه على تفرّده بالأوصاف التى يستحق عليها كمالُ الحمد .

ومضى على ما كان عليه الرسول ـ ﷺ ـ خيرُ القرون ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان ، يوصى به الأولُ الآخرَ ، ويقتدى فيه اللاحقُ

بالسابق ، وهم فى ذلك كله بنبيهم محمد ـ ﷺ ـ مقتدون ، وعلى منهاجه سالكون ، كما قال تعالى فى كتابه العزيز : ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي** ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

ثم خلف من بعدهم خَلف اتبعوا أهواءهم ، وافترقوا ، فأقام الله لهذه الأمة من يحفظ عليها أصولَ دينها ، كما أخبر الصادق ـ ﷺ ـ : **(لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من خذلهم)** .

وممن قام بهذا الحق من علماء المسلمين : الإمام أبو جعفر أحمدُ بنُ محمد بن سلامةَ الأزدى الطحاوى ، فأخبر ـ رحمه الله ـ عما كان عليه السلف ، ونقل عن الإمام أبى حنيفة النعمان بن ثابت الكوفى ، وصاحبيه ـ أبى يوسفَ يعقوبَ بن إبراهيم الحميرى الأنصارى ، ومحّمد بن الحسن الشيبانى ـ رضى الله عنهم ـ ما كانوا يعتقدَون من أصول الدين ، ويدينوَن به ربَّ العالمين .

وكلما بَعُدَ العهدُ : ظهرت البدعُ ، وكثُر التحريف ، الذى سماه أهله تأويلاً ليُقبل وقَلّ من يهتدى إلى الفَرْق بين التحريف والتأويل ، إذ قد يُسمى صرف الكلام عن ظاهره إلى معنى آخر يحتمله اللفظ فى الجملة « تأويلاً » ، وإن لم يكن ثَمَّ قرينه توجب ذلك ، ومن هنا حصل الفسادُ ، فإذا سموه تأويلاً قُبِلَ وَراجَ على من لا يهتدى إلى الفرق بينهما .

وكلٌ من التحريف والانحراف على مراتب ، فقد يكون كفراً ، وقد يكون فسقاً ، وقد يكون معصية ، وقد يكون خطأ .

فالواجب : اتّباعُ المرسلين ، واتباع ما أنزل الله عليهم ، وقد ختمهم الله بمحمد ـ ﷺ ـ ، فجعله آخرَ الأنبياء ، وجعل كتابَه مهيمناً على ما بين يديه من كتب السماء ، وجعل طاعتَه طاعةً له ، ومعصيتَه معصيةً له ، وأقسم بنفسه أنهم لا يؤمنون حتى يحكّموه فيما شجر بينهم .

وإنما وقع التقصير من كثير من المسلمين ، فلم يعلم ما جاء به الرسول فى كثير من الأمور الكلامية الاعتقادية ، ولا فى كثير من الأحوال العبادية ، ولا فى كثير من الإمارة السياسية ، أو نَسَبوا إلى شريعة الرسول ، بظنهم وتقليدهم ، ما ليس

منها ، وأخرجوا عنها كثيراً مما هو منها .

فبسبب جهل هؤلاء وضلالهم وتفريطهم ، ولَبْس عدوان أولَئكَ وجهلهم ونفاقهم : كثر النفاقُ ، ودَرَسَ كثير من علم الرسالة .

وإن كان العبدُ عاجزاً عن معرفة بعض ذلك ، أو العملَ به ، فحسبُه أن يسقط عن اللوم لعجزه ، وعليه أن يفرح بقيام غيره به ، ويرضى بذلك ، ويودُّ أن يكون قائماً به ، وأن لا يؤمنَ ببعضه ويشرك ببعضه ، بل يُؤمن بالكتاب كله ، وأن يُصان عن أن يدخل فيه ما ليس منه ، من رواية أو رأى ، أو يتبع ما ليس من عند الله ، اعتقاداً أو عملاً ، كما قال تعالى : ﴿ **وَلا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ** ﴾ (البقرة : ٤٢) .

وقد أحببت أن أشرح عقيدة الإمام الطحاوى ، سالكاً طريق السلف فى عباراتهم ، وأنسج على منوالهم ، متطفلاً عليهم ، لعلّى أن أنظمَ فى سلكهم ، وأدخل فى عدادهم ، وأحشر فى زمرتهم : ﴿ **مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا** ﴾ (النساء : ٦٩) .

وقد ابتدأ الشيخ الطحاوى كلامه فقال ـ رحمه الله ـ

توحيد الله تعالى

• **(نقولُ فى توحيدِ الله معتقدين بتوفيق الله : إن اللهَ واحدٌ لا شريكَ له) .**

فأقول : اعلَمْ أن التوحيد أو دعوة الرسل ، وأولُ منازل الطريق ، وأولُ مقام يقوم فيه السالكُ إلى الله ، قال تعالى : ﴿ **لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ** ﴾ (الأعراف : ٥٩) .

وقال هود ـ عليه السلام ـ لقومه : ﴿ **قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ** ﴾ (الأعراف : ٦٥) .

وهو قولُ صالحٍ ـ عليه السلام ـ وقول شُعَيْب ـ عليه السلام ـ .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا**

الطَّاغُوتَ ﴾ (النحل : ٣٦) .

وقال تعالى : ﴿ **وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ** ﴾ (الأنبياء : ٢٥) .

وقال ـ ﷺ ـ : **(أمرت أن أقاتل الناسّ حتى يشهدوا أن لا إله إلاَّ الله وأن محمداً رسول الله) .**

ولهذا كان الصحيح : أن أول واجب يجب على المكلَّف : شهادةُ أن لاإله إلا الله .

فالتوحيد أولُ ما يدخل به المرءُ إن أراد الإسلام ، وهوآخر ما يخرج به من الدنيا ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : **(من كان آخر كلامه : لاإله إلا الله دخل الجنة)** فهو أول واجب وآخر واجب .

أنواع التوحيد

ونعنى به توحيد الإلهية ، فإن التوحيد يتضمنُ ثلاثةَ أنواع :

أحدها : الكلامُ فى الصفات .

والثانى : توحيدُ الربوبية ، وبيان أن الله وحدَه خالقُ كل شيء .

والثالث : توحيدُ الإلهية : وهو استحقاقُه سبحانه وتعالى أن يُعبدَ وحده لا شريك له

أما الأول : فإن نُفاة الصفات أدخلوا نفيَ الصفات فى مُسَمَّى التوحيد ، كالجَهْم بن صَفْوان وَمَن وافقه ، وهذا النفيُ معلومُ الفساد ، فإن إثباتَ ذات مجردةَ عن جميع الصفات لا يُتصورَّ لها وجودٌ فى الخارَج ، وإنما الذهن قدّ يفرضّ المحال ويتخيلُه ، وهذا غاية التعطيل .

وأما الثانى : فهو توحيدُ الربوبية ، كالإقرار بأنه خالقُ كُل شيء ، وهذا التوحيدُ حق لا ريب فيه ، ولم يذهب إلى نقيضه طائفةٌ معروفة من بنى آدم ، بل القلوبُ مفطورة على الإقرار به أعظمَ من كونها مفطورةً على الإقرار

بغيره من الموجودات ، كما قالت الرسل فيما حكى الله عنهم : ﴿ قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (إبراهيم : ١٠) .

وأشهر من عُرف تجاهلُه وتظاهرُه بإنكار الصانع : فرعونُ ، وقد كان مستيقناً به فى الباطن ، كما قال موسى : ﴿ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الإسراء : ١٠٢) .

وقال تعالى ، عنه وعن قومه : ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل : ١٤) .

دليل التمانع

فليس فى الطوائف من يُثبت للعالَم صانعين متماثلين ، ويستدل على ذلك بدليل « التمانع » وهو : أنه لو كان للعالم صانعان ، فعند اختلافهما ، مثل أن يريد أحدهما تحريك جسم وآخرُ تسكينَه ، أو يريد أحدهما إحياءه والآخر إماتته ، فإما أن يحصل مرادُهما أو مراد أحدهما ، أو لا يحصل مرادُ واحد منهما ، والأول ممتنع لأنه يسلزمُ الجمعَ بين الضدين ، والثالث ممتنعٌ ، لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، وهو ممتنعٌ ، ويستلزم أيضاً عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون إلهاً ، وإذا حصل مراد أحدهما دون الآخر : كان هذا هو الإله القادر ، والآخر عاجزاً لا يصلح للإلهية وكثير من أهل النظر يزعمون أن دليل التمانع هو معنى قوله تعالى : ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾ (الأنبياء : ٢٢) .

توحيد الإلهية وبيان اعتقاد المشركين من العرب

وسبب ذلك اعتقادُهم أن توحيد الربوبية الذى قرروه هو توحيدُ الإلهية الذى بينه القرآن ، ودعت إليه الرسل ـ عليهم السلام ـ وليس الأمر كذلك ، بل التوحيدُ الذى دعت إليه الرسلْ ، ونزلت به الكتب ، وهو توحيد الإلهية المتضمنُ توحيدَ الربوبية ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، فإن المشركين من العرب كان يُقرّون بتوحيد الربوبية ، وإن خالقَ السموات والأرض واحد ، كما أخبر تعالى عنهم

بقوله : ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ ﴾ (لقمان: ٢٥).
﴿ قُل لِّمَنِ الأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلا تَذَكَّرُونَ ﴾ (المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٥) .

ومثل هذا كثير فى القرآن ، ولم يكونوا يعتقدون فى الأصنام أنها مشاركة لله فى خلق العالم ، بل كان حالُهم فيها كحال أمثالهم من مشركى الأمم من الهند والترك وغيرهم ، يعتقدون أن هذه تماثيلُ قوم صالحين ، ويتخذونهم شفعاء ، ويتوسلون بهم إلى الله ، وهذا كان أصل شرك العرب ، كما قال تعالى حكايةً عن قوم نوح : ﴿ وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلا سُوَاعًا وَلا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ (نوح : ٢٣) .

وقد ثبت فى صحيح البخارى ، وكتب التفسير ، أن هذه أسماءُ قوم صالحين فى قوم نوح ، فلما ماتوا : عكفوا على قبورهم ، ثم صوروا تماثيلَهم ، ثم طال عليهم الأمد ، فعبدوهم .

منهج القرآن فى تقرير وبيان توحيد الإلهية

وهؤلاء كانوا مقرين بالصانع ، وإنه ليس للعالَم صانعان ، ولكن اتخذوا هؤلاء شفعاءَ ، كما أخبر عنهم تعالى بقوله : ﴿ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى ﴾ (الزمر : ٣).

وقال تعالى : ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ (يونس : ١٨) .

وبهذا نعلم أن التوحيد المطلوب هو توحيد الإلهية ، الذى يتضمن توحيدَ الربوبية ، قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ (الروم : ٣٠) .

وقال تعالى : ﴿ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَلا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٣١) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ (الروم : ٣١ـ٣٢) .

والقرآن مملوءٌ من تقرير هذا التوحيد وبيانه وضرب الأمثال له ، ومن ذلك : أنه يقرر توحيدَ الربوبية ، ويبين أنه لا خالق إلا الله ، وأن ذلك مستلزم أن لا يُعبد إلا الله ، فيُجعَلُ الأول دليلاً على الثانى ، إذا كانوا يسلّمون فى الأول ، وينازعون فى الثانى ، فيبين لهم سبحانه : أنكم إذا كنتم تعلمون أنه لا خالق إلا الله وحده ، وأنه هو الذى يأتى العبادَ بما ينفعهم ، ويدفع عنهم ما يضرهم ، لا شريك له فى ذلك ، فلم تعبدون غيره ، وتجعلون معه آلهة أخرى ؟ كقوله تعالى : ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلامٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ آللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴾ (النمل : ٥٩) .

ففى هذه الآيات يقول الله تعالى فى آخر كلِّ آية : (أإله مع الله) ، أى : أإله مع الله فعل هذا ؟ وهذا استفهامُ إنكار ، يتضمن نفىَ ذلك ، وهم كانوا مقرين بأنه لم يفعل ذلك غيرُ الله ، فاحتج عليهم بذلك ، وليس المعنى أنه استفهام ، هل مع الله إله ؟ كما ظنه بعضهم ، لأن هذا المعنى لا يناسب سياق الكلام ، والقوم كانوا يجعلون مع الله آلهة أخرى ، كما قال تعالى :
﴿ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ قُل لاَّ أَشْهَدُ ﴾ (الأنعام : ١٩) .

وإذا كان توحيد الربوبية داخلاً فى التوحيد الذى جاءت به الرسل ، ونزلت به الكتب ، فليُعلم أن دلائله متَعددة ، كدلائل إثبات الصانع ودلائل صدق الرسول ، فإن العلم كلما كان الناسُ إليه أحوج : كانت أدلته أظهرَ ، رحمةً من الله بخلقه .

والقرآن قد ضرب الله للناس فيه من كلِّ مثل ، وهى المقاييسُ العقليةُ المفيدةُ للمطالب الدينية ، لكن القرآن يبين الحقَّ فى الحكم والدليل ، فماذا بعد الحقِّ إلا الضلال ؟

وأما ما كان من المقدمات المتفق عليها ، المعلومة بالضرورة ، فَيستدلُ بها ، ولم يحتج إلى الاستدلال عليها .

ولما كان الشرك فى الربوبية معلومَ الامتناع عند الناس كلهم ، باعتبار إثبات خالقين متماثلين فى الصفات والأفعال ـ وإنما ذهب بعض المشركين إلى أن ثَمَّ خالقاً

خلق بعض العالم ، وكما تقول القدرية فى نسبة الشر إلى غير الله تعالى ، وكما يقول الفلاسفة فى حركة الأفلاك ـ فإن هؤلاء يثبتون أموراً محدثةً بدون إحداث الله إياها ، فهم مشركون فى بعض الربوبية ، وكثير، من مشركى العرب وغيرهم قد يظن فى آلهته شيئاً من نفع أو ضر ، بدون أن يخلق الله ذلك .

فلما كان هذا الشرك فى الربوبية موجوداً فى الناس : بيَّن القرآن بطلانه ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ** ﴾ (المؤمنون : ٩١) .

فتأمل هذا البرهان الباهر ، بهذا اللفظ الوجيز الظاهر ، فإن الإله الحقَّ لابد أن يكون خالقاً فاعلاً ، يوصل إلى عابده النفعَ ، ويَدفع عنه الضر ، فلو كان معه سبحانه إله آخر يشركه فى ملكه ، لكان له خَلْق وفعل ، وحينئذ فلا يرضى تلك الشِّرْكة ، بل إن قدرَ على قهر ذلك الشريك ، وتفرده بالملك والإلهية دونه : فعل ، وإن لم يقدر على ذلك ، انفرد بخلقه وذهب بذلك الخلق ، كما ينفرد ملوك الدنيا بعضهم عن بعض بملكه ، إذا لم يقدر المنفرد منهم على قهر الآخر والعلو عليه . فلابد من أحد ثلاثة أمور : إما أن يذهب كل إله بخلقه وسلطانه ، وإما أن يعلو بعضهم على بعض ، وإما أن يكونوا تحت قهر ملك واحد يتصرف فيهم كيف يشاء ولا يتصرفون فيه ، بل يكون وحدَه هو الإلَه ، وهمُ العبيد المربوبون المقهورون .

وانتظام أمر العالم كله وإحكامُ أمره من أدلّ الأدلة على أن مُدبّره إله واحد ، وملكٌ واحد ، ورب واحد ، لاإله للخلق غيرُه ، ولا ربَّ لهم سواه ، كما قد دل دليل التمانع على أن خالق العالم واحد لا رب غيره ، فذلك تمانعٌ فى الفعل والإيجاد ، وهذا تمانع فى العبادة والإلهية ، وكما يستحيل أن يكون للعالم ربان خالقان متكافئان : كذلك يستحيل أن يكون لهم إلهان معبودان .

فالعلم بأن وجودَ العالم عن صانعين متماثلين ممتنع لذاته ، فكذا تبطل إلهيةُ اثنين ، فالآية الكريمة موافقة لِمَا ثبت واستقر فى الفِطَر من توحيد الربوبية ، دالةٌ مثبتة مستلزمة لتوحيد الإلهية .

وقريب من معنى هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلاَّ اللَّهُ لَفَسَدَتَا** ﴾ (الأنبياء : ٢٢) .

وقد ظن البعض أن هذا دليل التمانع الذى تقدم ذكره ، وغفلوا عن مضمون الآية ، فإنه سبحانه أخبر أنه لو كانَ فيهما آلهة غيره ، ولم يقل : أرباب .

وأيضاً ، فإنه قال : لفسدتا ، وهذا فساد بعد الوجود ، ولم يقل : لم يوجدا

وتوحيد الإلهية متضمنٌ لتوحيد الربوبية ، دون العكس ، فمن لا يقدر على أن يخلق يكون عاجزاً ، والعاجز لا يصلح أن يكون إلهاً . قال تعالى : ﴿ **أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ** ﴾ (الأعراف : ١٩١) .

نوعى التوحيد المنزل والمدعو إليه

ثم التوحيد الذى دعت إليه رسل الله ، ونزلت به كتبه نوعان : **توحيدٌ فى الإثبات والمعرفة ، وتوحيدٌ فى الطلب والقصد .**

فالأول: هو إثباتُ حقيقة ذات الربِّ تعالى وصفاته وأفعاله وأسمائه ، ليس كمثله شيء فى ذلك كلِّه ، كما أخبر عن نفسه ، وكما أخبر رسوله ـ ﷺ ـ .

والثانى: وهو توحيد الطلب والقصد و مثل ما تضمنته سورة : ﴿ **قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ (١) لاَ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ (٢) وَلاَ أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ (٣) وَلاَ أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ** ﴾ (الكافرون : ١ : ٤) .

وكذلك قوله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللَّهَ** ﴾ (آل عمران : ٦٤) .

وغالب سور القرآن متضمنة لنوعى التوحيد ، بل كل سورة فى القرآن ، فإن القرآن إما خبرٌ عن الله وأسمائه وصفاته ، وهو التوحيد العلمى الخبرى ، وإما دعوةٌ إلى عبادته وحدهَ لا شريك له ، وخلع ما يُعبد من دونه ، فهو التوحيدُ الإرادى الطلبى ، وإما أمرٌ ونهى ، وإلزام بطاعته ، فذلك من مكملات التوحيد ، وإما خبرٌ عن إكرامه لأهل توحيده ، وما فَعَلَ بهم فى الدنيا وما يكرمهم به فى الآخرة ، وهو جزاء توحيده ، وإما خبرٌ عن أهل الشرك ، وما فعل بهم فى الدنيا من النكال ، وما فَعَلَ بهم فى العقبى من العذاب ، فهو جزاءُ من خرج عن حكم التوحيد .

أجل شهادة وأعظمها

وقد شَهد الله لنفسه بهذا التوحيد ، وشهدت له به ملائكته وأنبياؤه ورسله .

قال تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٨) إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ** ﴾ (آل عمران : ١٨ ـ ١٩) .

فتضمنت هذه الآية الكريمة إثبات حقيقة التوحيد ، والردَّ على جميع طوائف الضلال ، فتضمنت أجلَّ شهادةٍ وأعظمَها ، وَأعدلَلها وأصدقها ، من أجلِّ شاهد بأجل مشهود به .

عبارات السلف فى (شهد) ومراتبها الأربعة

وعبارات السلف فى « شهد » تدور على الحكم ، والقضاء ، والإعلام ، والبيان ، والأخبار ، وهذه الأقوال كلها حق لا تنافى بينها ، فإن الشهادة تتضمن كلام الشاهد وخبَره ، وتتضمن إعلامَه وإخباره وبيانه .

فلها أربع مراتب :

فأول مراتبها : علمُ ومعرفة واعتقاد لصحة المشهود به وثبوته .

وثانيها : تكلمه بذلك ، وإن لم يعلم به غيره ، بل يتكلم بها مع نفسه ويتذكرها وينطق بها أو يكتبها .

وثالثها : أن يُعْلِمَ غيرَه بما يشهد به ويخبرَه به ويبينه له .

ورابعها : أن يُلزمه بمضمونها ويأمره به .

فشهادة الله سبحانه لنفسه بالوحدانية ، والقيام بالقسط ، تضمنت هذه المراتب الأربع ، علمه بذلك سبحانه ، وتكلمه به ، وإعلامَه وإخباره لخلقه به ، وأمرهم وإلزامَهم به .

والمهم من هذه الشهادات الأربع : مرتبةُ الأمر بذلك والإلزام به ، فإنه سبحانه شهد به شهادة من حكم به وقضى وأمر وألزم عباده به ، كما قال تعالى : ﴿ **وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ** ﴾ (الإسراء : ٢٣) .

وقال الله تعالى : ﴿ لا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ ﴾ (النحل : ٥١) .

ووجه استلزام شهادته سبحانه لذلك أنه إذا شهد أنه لا إله إلا هو ، فقد أخبر ونبأ ، وأعلم وحكم ، وقضى أن ما سواه ليس بإله ، وأن إلهية ما سواه باطلةٌ ، فلا يستحق العبادةَ سواه ، كما لا تصلح الإلهية لغيره ، وذلك يستلزم الأمر باتخاذه وحدَه إلهاً ، والنهيَ عن اتخاذ غيرِه معه إلهاً ، وهذا يفهمه المخاطب من هذا النفيَ والإثبات .

والحكم والقضاء بإنه لا إله إلا هو متضمنُ الإلزام ، ولو كان المراد مجردَ شهادة : لم يتمكنوا من العلم بها ، ولم ينتفعوا بها ، ولم تقم عليهم بها الحجة ، بل قد تضمنت البيانَ للعباد ودلالتَهم وتعريفَهم بما شهد به ، كما أن الشاهد من العباد إذا كانت عنده شهادةٌ ولم يبينها ، بل كتمها ، ولم ينتفع بها أحد ، ولم تقم بها حجة .

طرق بيانه سبحانه شهادته ثلاثة

وإذا كان لا ينتفع بها إلا ببيانها فهو سبحانه قد بينها غايةَ البيان بطرق ثلاثة : السمع ، والبصر ، والعقل .

أما السمعُ : فبسمع آياته المتلوة المبينة لما عرّفنا إيّاه من صفات كماله كلِّها ، الوحدانية وغيرها ، غايةَ البيان ، كما قال تعالى : ﴿ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴾ (آل عمران : ١٣٨) .

وقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا الْبَلاغُ ﴾ (المائدة : ٩٢) .

وقال : ﴿ وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ﴾ (النحل : ٤٤) .

وكذلك السُنّة ، تأتى مبينةً ومقررة لما دل عليه القرآن ، لم يحوجنا ربنا تعالى إلى رأى فلان فى أصول ديننا ، ولهذا تجد مَن خالف الكتاب والسنة مختلفينَ مضطربينَ بل قد قال تعالىَ : ﴿ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا ﴾ (المائدة : ٣) .

وأما آياته العيانيةُ الخَليقة : فالنظرُ فيها ، والاستدلالُ بها ، يدل على ما تدل عليه آياتهُ القوليةُ والسمعية ، والعقلُ يجمع بين هذه وهذه ، فيجزم بصحة ما جاءت به الرسل ، فتتفقُ شهادةُ السمعِ والبصرِ والعقل والفطرة .

فهو سبحانه لكمال عدله ورحمته وإحسانه وحكمته ومحبته للعذر وإقامة الحجة لم يبعث نبياً إلا ومعه آيةٌ تدلُّ علىَ صدقه فيما أخبر به ، قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ ﴾ (الحديد : ٢٥)

وقال تعالى : ﴿ وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَبِالزُّبُرِ وَبِالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴾ (فاطر : ٢٥) .

معنى اسميه تعالى (المؤمن والشهيد)

ومن أسمائه تعالى : « المؤمنُ » وهو فى أحد التفسيرين : المصدِّقُ الذى يصدِّق الصادقين ، بما يُقيم لهم من شواهد صدقهم ، فإنه لابد أن يُرى العباد من الآيات الأفقية والنفسية ما يبين لهم أن الوحىَ الذىَ بلغه رسلُ الله حق ، قالَ تعالى :
﴿ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

وذلك أن القرآن هو المتقدم فى قوله : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ (فصلت : ٥٢) .

ثم قال : ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ (فصلت : ٥٣) .

فشهد سبحانَه لرسوله بقوله إن ما جاء به حق ، ووعد أن يُرى العباد من آياته الفعليةِ الخلقية ما يشهد بذلك أيضاً ، ثم ذكر ما هو أعظمُ من ذلك كلِّه وأجلّ ، وهو شهَادته سبحانه بأنه على كل شىء شهيد ، فإن من أسمائه « الشهيدّ » الذى لا يغيب عنه شىء ، ولا يعزب عنه ، بل هو مطّلعٌ على كل شىء ، مشاهدٌ له . عليمٌ بتفاصيله ، وهذا استدلال بأسمائه وصفاته ، والأولُ استدلالٌ بقوله وكلماته واستدلالُه بالآيات الأفقيةِ والنفسيةِ استدلالٌ بأفعالهِ ومخلوقاته .

شرح قول الإمام (ولا شيء مثله)

• **ثم قال الإمام الطحاوي : (ولا شيء مثله)**

وذلك أن أهل السُنَّة قد اتفقوا على أن الله ليس كمثله شيءٌ ، لا في ذاته ولا في صفاته ، ولا في أفعَاله ولكن لفظ « التشبيه » قد صار في كلام الناس لفظاً مجملاً يُراد به المعنى الصحيح ، وهو ما نفاه القرآن ودل عليه العقلُ ، من أن خصائص الربِّ تعالى لا يُوصف بها شيءٌ من المخلوقات ، ولا يماثله شيءٌ من المخلوقات في شيء من صفاته ، و﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ردٌّ على الممثلة المشبهة ، و ﴿ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ ردٌّ على النفاة المعطلة .

فمن جعل صفات الخالق مثلَ صفات المخلوق ، فهو المشبِّه المبطلُ المذموم ، ومن جعل صفات المخلَوق مثل صفات الخالق ، فهو نظيرُ النصارى في كفرهم .

ومن خلال نَفْي التشبيه دخلَ التعطيلُ الذى لا يُثبت لله أسماءَه إذ يقولون : لا نقول له قدرةٌ ، ولا علْمٌ ولا حياة ، لأن العبد موصوف بهذه الصفات ، ولازمُ هذا القول أنه لا يقال له : قديرٌ ، عليم ، حى ، لأن العبد يُسمى بهذه الأسماء ، وكذلك كلامُه وسمعهُ وبصره وغير ذلك ، مع أنهم يوافقون أهل السنة على أنه موجود ، عليمٌ ، قدير ، حى ، والمخلوق يقال له : موجود حى عليم ، ولا يقال : هذا تشبيه يجب نفيه .

وهذا مما دل عليه الكتاب والسُنة وصريحُ العقل ، ولا يخالف فيه عاقل ، فإن الله سمى نفسَه بأسماء ، وسمى بعضَ عباده بها ، وكذلك سمى صفاته بأسماء ، وسمى ببعضها صفات خلقه ، فسمى نفسه : حياً ، رؤوفاً ، رحيماً ، عليماً ، سميعاً ، بصيراً ، عزيزاً ، متكبراً ، جباراً ، فقال :

﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ ﴾ (الروم : ١٩) .

وقال : ﴿ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ (التوبة : ١٢٨) .

وقال : ﴿ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ ﴾ (الذاريات : ٢٨) .

وقال : ﴿ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾ (الإنسان : ٢) .

وقال : ﴿ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ ﴾ (يوسف : ٥١) .

وقال : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ ﴾ (غافر : ٣٥) .

ومعلوم أنه لا يماثل الحيُّ الحيَّ ، ولا العليمُ العليَم ، ولا العزيزُ العزيزَ ، وكذلك سائر الأسماء ، ونظائرُ هذا كثيرة ، وهذا لازمٌ لجميع العقلاء .

فإن نفى أحد صفةً من صفاته التى وصف بها سبحانهَ نفسه ، كالرضا والغضب والحب والبغض ، ونحو ذلك ، وزعم أن ذلك يستلزمُ التشبيه والتجسيم ، قيل له : فأنت تُثبت له الإرادةَ والكلامَ والسمعَ والبصر ، مع أن ما تُثبته له ليس مثلَ صفات المخلوقين ، فقل فيما نفيتَه وأثبته اللهُ ورسوله مثلَ قولك فيما أثبتّه ، إذ لا فرقَ بينهما .

فإن قال : أنا لا أثبت شيئاً من الصفات .

قيل له : فأنت تُثبت له الأسماءَ الحسنى ، مثل : حى ، عليم ، قدير ، والعبدُ يسمى بهذه الأسماء ، وليس ما يُثبت للرب من هذه الأسماء مماثلاً لما يُثبَت للعبد ، فقل فى صفاته نظيرَ قولك فى مسمى أسمائه .

وأصلُ الخطأ والغلط : توهمُهم أن هذه الأسماء العامةَ الكلية يكون مسماها المطلقُ الكلي هو بعينه ثابتاً فى هذا المعيّن وهذا المعين ، وليس كذلك ، فإن ما يُوجد فى الخارج لا يوجد مطلقاً كلياً ، بل لا يُوجد إلا معيناً مختصاً ، وهذه الأسماء إذا سُمّى اللهُ بها : كان مسماها مختصاً به ، وإذا سُمّى بها العبد : كان مسماها مختصاً به ، فوجودُ الله وحياتهُ لا يشاركه فيه غيره بل وجودُ هذا الموجود المعيّن لا يشاركه فيه غيره ، فكيف بوجود الخالق ؟ ألا ترى أنك تقول : هذا هو ذاك ، فالمشار إليه واحد ، لكن بوجهين مختلفين .

وبهذا ومثله يتبين لك أن المشبهة أخذوا هذا المعنى ، وزادوا فيه على الحق فضلّوا . وأن المعطلة أخذوا نفى المماثلة بوجه من الوجوه ، وزادوا فيه على الحق حتى ضلوا ، وأن كتاب الله دل على الحق المحض الذى تعقله العقول السليمة الصحيحة ، وهو الحق المعتدل الذى لا انحراف فيه ، فالنفاةُ أحسنوا فى تنزيه الخالق سبحانه عن التشبيه بشىء من خلقه ، ولكن أساءوا فى نفى المعانى الثابتة لله

تعالى فى نفس الأمر ، والمشبهة أحسنوا فى إثبات الصفات ولكن أساءوا بزيادة التشبيه .

شرح قول الإمام (ولا شىء يعجزه)

● **قال الطحاوى : (ولا شىء يعجزه)**

وذلك لكمال قدرته .

قال تعالى : ﴿ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الطلاق : ١٢) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِن شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا ﴾ (فاطر : ٤٤) .

وقال عز وجل : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) .

وقوله : لا يؤوده ، أى : لا يُثقله ولا يُعجزه ، فهذا النفى لثبوت كمال ضدِّه ، وكذلك كل نفى يأتى فى صفات الله تعالى فى الكتاب والسنة إنما هو لثبوت كمال ضدِّه . كقوله : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ (الكهف : ٤٩) لكمال عدله .

وكقوله : ﴿ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ (سبأ : ٣) لكمال علمه .

وقوله : ﴿ لَا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) ، لكمال حياته وقيوميته وإلا فالنفى الصرفُ لا مدح فيه .

شرح قول الإمام (ولا إله غيره)

● **قال : (ولا إله غيره)**

وهذه كلمةُ التوحيد التى دعت إليها الرسل ، وإثبات التوحيد بهذه الكلمة باعتبار النفى ، والإثباتَ المقتضى للحصر ، فإن الإثبات المجردَ قد يتطرق إليه الاحتمال ولهذا ــ والله أعلم ــ لما قال تعالى : ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ ﴾ قال

بعده : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾ (البقرة : ١٦٣) .

وذلك أنه قد يخطر ببال أحد خاطرٌ شيطانى ، هَبْ أن إلهنا واحد ، فلغيرنا إلهٌ غيرُه ، فقال تعالى : ﴿ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ﴾ .

شرح قول الإمام (قديم بلا ابتداء ، ودائم بلا انتهاء)

● **قال الطحاوى :** *(قديمٌ بلا ابتداءٍ ، دائمٌ بلا انتهاءٍ)*

وذلك هو قول الله تعالى : ﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ ﴾ (الحديد : ٣) .

وقال ـ ﷺ ـ : **(اللهم أنت الأولُ فليس قبلَك شىء ، وأنت الآخِر فليس بعدك شىء)** .

فقول الشيخ : **(قديمٍ بلا ابتداءُ ، دائمٍ بلا انتهاءُ)** هو معنى اسمه **(الأول والآخر)**

والعلم بثبوت هذين الوصفين مستقرٌ فى الفطرة ، فإن المَوجودات لابد أن تنتهى إلى واجب الوجودْ لذاته ، قطعاً للتسلسل ، فأنت تُشاهد حدوثَ الحيوان والنبات والمعادن وحوادث الجو ، كالسحاب والمطر ، وغير ذلك ، وهذه الحوادث وغيُرها ليست ممتنعة ، فإَن الممتنع لا يُوجد ، ولا واجبةَ الوجود بنفسها ، فإن واجب الوجود بنفسه لا يَقبل العدم ، وهذه كانت معدومةً ثم وُجدت ، فعدمُها ينفى وجودَها ، ووجودُها ينفى امتناعها ، وما كان قابلاً للوجود والعدم لم يكن وجودُه بنفسه ، كما قال تعالى : ﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ ﴾ (الطور : ٣٥) .

يقول سبحانه : أحَدثُوا منْ غير مُحدث ، أم هم أحدثوا أنفسهَم ؟ ومعلوم أن الشىء المحدَث لا يوجد نفسَهَ ، فالممكن اَلذى ليس له من نفسه وجودٌ ولا عدم لا يكون موجوداً بنفسهَ ، بل إن حصل ما يوجده وإلا كان معدوماً ، وكل ما أمكن وجودُه بدلاً من عدمه ، وعدمُه بدلاً عن وجوده ، فليس له من نفسه وجودٌ ولا عدم لازم .

وإذا تأمل الفاضل غايةَ ما يذكره المتكلمون والفلاسفة من الطُرق العقلية : وجد الصواب منها يعود إلى بعض ما ذُكر فى القرآن من الطرق العقلية بأوضح

عبارة وأوجزها ، وفى طُرق القرآن من تمام البيان والتحقيق ما لا يُوجد عندهم مثلُه قال تعالى : ﴿ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً ﴾ (الفرقان : ٣٣) .

ولا نقول : لا ينفع الاستدلال بالمقدمات الخفية والأدلة النظرية ، فإن الخفاءَ والظهور من الأمور النسبية ، فربما ظهر لبعض الناس ما خفىَ على غيره ، ويظهر للإنسان الواحد فى حال ما خفى عليه فى حال أخرى وأيضاً : فالمقدماتُ وإن كانت خفية فقد يُسَلِّم بها بعض الناس ، وينازع فيما هو أجَلّ منها ، وقد تفرح النفس بما علمته بالبحث والنظر ما لا تفرح بما علمته من الأمور الظاهرة ، ولا شك أن العلم بإثبات الصانع ، ووجوب وجوده أمرٌ ضرورى فطرى ، وإن كان يحصل لبعض الناس من الشُبَه ما يُخرجه إلى الطرق النظرية .

ضرورة التوقف فى إطلاق الأسماء على ما ورد به الشرع

وقد أدخل المتكلمون فى أسماء الله تعالى « القديم » وليس هو من أسماء الله تعالى الحسنى ، فإن القديم فى لغة العرب التى نزل بها القرآن ، هو المتقدم على غيره فيقال : هذا قديم للعتيق وهذا حديث للجديد ولم يستعمل هذا الاسُم إلا فى المتقدم على غيره ، لا فيما يسبقه عدم ، كما قال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴾ (يس : ٣٩) .

والعرجون القديم : الذى يبقى إلى حين وجود العرجون الثانى ، وهو العِثق الحاملُ للرُطَب فى النخلة ، فإذا وُجد الحديث قيل للأول : قديم .

وقال تعالى : ﴿ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هَذَا إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴾ (الأحقاف : ١١) أى متقدم فى الزمان .

وأما إدخالُ « القديم » فى أسماء الله تعالى فهو مشهور عند أكثر أهل الكلام ، وقد أنكر ذلك كثير من السلف والخلَف ، منهم : ابن حزم ، ولا ريب أنه إذا كان مستعملاً فى نفس التقدم ، فإن ما يقدم على الحوادث كلها فهو أحقٌ بالتقدم من غيره ، لكن أسماء الله تعالى هى الأسماء الحسنى ، التى تدل على خصوص و ما يُمدح به ، والتقدم فى اللغة مطلقٌ لا يختص بالتقدم على الحوادث كلها ، فلا يكون من الأسماء الحسنى ، وجاء الشرع باسمه « الأول » وهو أحسن من « القديم »

لأنه يُشْعر بأن ما بعده آيلٌ إليه وتابعُ له بخلاف القديم ، والله تعالى له الأسماء الحسنى .

شرح قول الإمام : (لا يفنى ولا يبيد ، ولا يكون إلا ما يريد)

● **وقوله : (لا يَفْنَى ولا يَبِيد)**

إقرارٌ بدوام بقائه سبحانه وتعالى ، قال عز من قائل : ﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ ﴾ (الرحمن : ٢٦ ـ ٢٧) . والفناء والبَيْد متقاربان في المعنى ، والجمع بينهما في الذكْر للتأكيد ، وهو أيضاً مقرر ومؤكد لقوله : دائم بلا انتهاء .

● **قال : (ولا يكونُ إلا ما يُريد)**

وهذا ردّ لقول القدرية والمعتزلة ، فإنهم زعموا أن الله أراد الإيمان من الناس كلهم ، والكافر أراد الكفر وقولُهم فاسدٌ مردود ، لمخالفته الكتابَ والسنة والمعقولَ الصحيح ، وهي مسألة القَدَر المشهورة ، وسيأتي لها زيادةُ بيان ـ إن شاء الله تعالى ـ

وسُمُّوا « قَدَرِيَّةَ » لإنكارهم القَدَر ، وكذلك تُسمى الجَبْرِيَّة المحتجون بالقدر : قدريةً أيضاً ، والتَسمية على الطائفة الأولى أغلب .

وأما أهل السنة فيقولون : إن الله وإن كان يُريد المعاصي قدراً ، فهو لا يحبها ولا يرضاها ولا يأمر بها ، بل يبغضها ويسخطها ويكرهها وينهَى عنها ، وهذا قول السلف قاطبةً ، فيقولون ما شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكن .

إنِ المحققين من أهل السنة يقولون : الإرادة في كتاب الله نوعان : إرادةٌ قدرية كونية خلقية ، وإرادةٌ دينية أمرية شرعية ، فالإرادةُ الشرعية هي المتضمنة للمحبة والرضا ، والكونيةُ هي المشيئة الشاملة لجميع الحوادث .

وهذا كقوله تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

وقوله تعالى عن ـ نوح عليه السلام ـ ﴿ وَلا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ

لَكُمْ إن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ ﴾ (هود : ٣٤) .

وقوله تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾ (البقرة : ٢٥٣) .

وأما الإرادةُ الدينية الشرعية الأمرية فكقوله تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً ﴾ (النساء : ٢٧) .

فهذه الإرادة هى المذكورة فى مثل قول الناس لمن يفعل القبائحَ : هذا يفعل ما لا يريده الله ، أى : ما لا يحبه ولا يرضاه ولا يأمُر به .

وأما الإرادة الكونية فهى الإرادة المذكورة فى قول المسلمين : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

والفرق ثابت بين إرادة المريد أن يفعل ، وبين إرادته من غيره أن يفعل ، فإذا أراد الفاعل فعلاً فهذه الإرادةُ معلَّقة بفعله ، وإذا أراد من غيره أن يفعل فعلاً ، فهذه الإرادةُ لفعل الغير ، وكلا النوعين معقولٌ للناس ، والأمر يستلزم الإرادة الثانية دون الأولى ، فالله تعالى إذا أمر العباد بأمر فقد يريد إعانة المأمور على ما أمر به ، وقد لا يريد ذلك ، وإن كان مريداً منه فعلَه ، وهو سبحانه ـ إذا أمر فرعونَ وأبا لهب وغيرَهما بالإيمان ـ كان قد بين لهم ما ينفعهم وما يصلحهم إذا فعلوه ، ولا يلزمُ إذا أمرهم أن يُعينهم .

وكما أنه يمكن فى حق المخلوق الحكيم أن يأمر غيرَه بأمر ولا يعينَه عليه ، فالخالق أولى بإمكان ذلك فى حقه مع حكمته ، فمَن أمرَهُ وأعانه على فعل المأمور : كان ذلك المأمور به قد تعلق به خلقه وأمرُه ، فكان مراداً بجهة الخلق ومراداً بجهة الأمر ، ومن لم يُعنه على فعل المأمور : كان ذلك المأمور قد تعلّق به أمرُه ، ولم يتعلق به خَلقُه ، لعَدم الحكمة المقتضية لتعلق الخلق به ، ولحصول الحكمة المقتضية لخلق ضده ، وخَلْقُ أحد الضدين ينافى خلق الضد الآخر ، فإن خلق المرض ـ الذى يحصل به ذُل العبدِ لربه ودعاؤه وتوبته وتكفير خطاياه ويرقّ قلبه به ويذهب عنه

الكبرياء ـ يُضادّ خَلق الصحة التى لا تحصل معها هذه المصالح ، وتفصيلُ حكمة الله فى خلقه وأمره تعجز عن معرفتها عقولُ البشر .

معنى قوله تعالى : (ولا يحيطون به علماً)

● **قال الطحاوى : (لا تبلغه الأوهام ، ولا تدركه الأفهام)**

وهو معنى قول الله تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٠) .

قال الجوهرى فى صحاح اللغة : توهمت الشىء : ظننته ، وفهِمت الشىء : علمته .

فمراد الشيخ ـ رحمه الله ـ : أنه لا ينتهى إليه وهمٌ ، ولا يُحيط به علم .

قيل : الوهم ما يُرجى كونه ، أى : يُظن أنه على صيغة كذا ، والفهم : هو ما يحصله العقل ويحيط به ، والله تعالى لا يَعلم كيف هو سبحانه إلا هو سبحانه ، وإنما نعرفه سبحانه بصفاته ، وهو أنه أحد ، صمدٌ ، لم يلد ولم يولد .

المراد بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾

● **قال : (ولا يُشبهُ الأنامَ)**

وهذا رد لقول المشبِّهة ، الذين يشبِّهون الخالق بالمخلوق ، سبحانه وتعالى : قال عز وجل : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ (الشورى : ١١) .

وليس المراد نفىَ الصفات كما يقول أهل البدع ، فمن كلام أبى حنيفةَ ـ رحمه الله ـ فى الفقه الأكبر : لا يُشبه شيئاً من خلقه ، ثم قال بعد ذلك : وصفاتُه كلُّها خلافُ صفات المخلوقين ، يعلَم لا كعلمنا ، ويقدر لا كقدرتنا ، ويرى لا كرؤيتنا .

وقال نُعيم بن حمَّاد المحدِّثُ الثقة : من شَبَّه الله بشىء من خلقه فقد كفر ، ومن أنكر ما وصف اللهُ به نفسَه فقد كفر ، وليس فيما وصفَ الله به نفسه ولا رسوله تشبيه .

والمشهور من استعمال هذا اللفظ عند علماء السُنة المشهورين : أنهم لا يريدون بنفى التشبيه نفىَ الصفات ، ولا يصفون به كل من أثبت الصفات ، بل مرادهم أنه

لا يشبه المخلوق فى أسمائه وصفاته وأفعاله ، كما تقدم من كلام أبى حنيفة ، وهذا معنى قوله تعالى فى الآية المتقدمة ، فقد نفى الله تعالى المثل وأثبت الوصف .

وسيأتى فى كلام الطحاوى إثباتُ الصفات ، تنبيهاً على أن نفى التشبيه لا يستلزمُ نفىَ الصفات .

ومما يوضح هذا : أن العلم الإلهى لا يجوز أن يُستدل فيه بقياس تمثيلى يستوى فيه الأصلُ والفرع ، ولا بقياس شمولى يستوى أفراده ، فإن الله سبحانه ليس كمثله شىء ، فلا يجوز أن يمثل بغيره ، ولا يجوز أن يدخل هو وغيره تحت قضية كلية يستوى أفرادها ، ولهذا لما سلكت طوائف المتفلسفة والمتكلمة مثلَ هذه الأقيسة فى المطالب الإلهية : لم يصلوا بها إلى اليقين ، بل تناقضَت أدلتهمَ ، وغلب عليهمَ الاضطراب .

ولكن يُستعمل فى ذلك قياسُ « الأوْلى » ، سواء كان تمثيلاً أو شمولاً ، كما قال تعالى ، ولله المثلُ الأعلى ، مثل أن يُعلَم أن كل كمال ثبت للممكن ، أو للْمُحدَث ، لا نقصَ فيه بوجه من الوجوه ـ وهو ما كان كمالاً للوجود غيرَ مستلزم للعدم بوجه ـ فالواجبُ القديم أولى به ، وكل كمال لا نقصَ فيه بوجه من الوجوه ، ثبت نوعه للمخلوق والمربوب المدبر ، فإنما استفاد من خالقه وربه ومدبِّره ، وهو أحق به منه ، وإن كلَّ نقص وعيب فى نفسه ـ وهو ما تضمن سلبَ هذا الكمال ، إذا وجب نفُيه عن شىء من أنواع المخلوقات والممكنات والمحدثات ـ فإنه يجب نفيه عن الرب تعالى بطريق الأولى .

(الحى القيوم) من أعظم أسماء الله الحسنى

● **وأما قوله : *(حَىٌ لا يموت ، قيومٌ لا ينامُ)***

فذلك هو قول الله تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَـهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) .

فنفى السِّنَة والنوم دليلٌ على كمال حياته وقيوميته .

وقال ـ ﷺ ـ : **(إن الله لا ينام ، ولا ينبغى له أن ينام)** .

فلما نفى الشيخ ـ رحمه الله ـ التشبيه : أشار إلى ما تقع به التفرقة بينه وبين خلقه ، بما يتصف به تعالى دون خلقه ، فمن ذلك : أنه حى لا يموت ، لأن صفة الحياة الباقية مختصة به تعالى ، دون خلقه ، فإنهم يموتون ومنه : أنه قيوم لا ينام ، إذ هو مختص بعدم السِّنة والنوم ، دون خلقه ، فإنهم ينامون وفى ذلك إشارة إلى أن نفى التشبيه ليس المراد به نفى الصفات ، بل هو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، لكمال ذاته ، فالحى بحياة باقية لا يُشبه الحى بحياة زائلة ، ولهذا كانت الحياة الدنيا متاعاً ولهواً ولعباً .

﴿ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ ﴾ (العنكبوت : ٦٤) .

فالحياة الدينا كالمنام ، والحياة الآخرةُ كاليَقظَة ، ولا يقال : فهذه الحياة الآخرة كاملة ، وهى للمخلوق ، لأنَّا نقول : الحيُّ الذى الحياةُ من صفات ذاته اللازمة لها هو الذى وهبَ المخلوقَ تلك الحياةَ الدائمة ، فهى دائمة بإدامة الله لها ، لا أن الدوام وصف لازم لها لذاتها ، بخلاف حياة الرب تعالى ، وكذلك سائر صفاته ، فصفات الخالق كما يليق به ، وصفات المخلوق كما يليق به .

واعلم أن هذين الاسمين ﴿ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ ، مذكوران فى القرآن ، معاً فى ثلاث سور ، وهما من أعظم أسماء الله الحسنى ، حتى قيل : إنهما الإسم الأعظم فإنهما يتضمنان إثبات صفات الكمال أكمل تَضَمُّن وأصدَقَه ، ويدل « القيوم » على معنى الأزلية والأبدية ما لا يدل عليه لفظُ « القَدِيم » ، ويدل أيضاً على كونه موجوداً بنفسه ، وهو معنى كونه واجبَ الوجود ، واقترانُه بالحى يستلزم سائرَ صفات الكمال ، ويدل على بقائها ودوامها ، وانتفاء النقص والعدم عنها أزلاً وأبداً، ولهذا كان قوله : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ﴾ أعظمَ آية فى القرآن كما ثبت ذلك فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ .

فعلى هذين الاسمين مدارُ الأسماء الحسنى كلِّها ، وإليها تَرْجِع معانيها ، فإن الحياة مستلزمة لجميع صفات الكمالَ ، ولا يتخلف عنها صفةَ منها إلا لضعف الحياة فإذا كانت حياتهُ تعالى أكمل حياة وأتمَّها : استلزم إثباتُها إثبات كل كمال يُضادُّ نفيه كمال الحياة . و« القيوم » متضمِّن كذلك غناه ، وكمالَ قدرته ، فإنه القيوم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجهِ من الوجوه .

معنى قول الإمام (خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤونة)

● **قال الطحاوى : (*خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤونة*)**

فقد قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ ﴾ (الذاريات : ٥٦ ـ ٥٨).

وقال : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ (فاطر : ١٥) .

وقال ـ ﷺ ـ فيما يرويه عن ربه تعالى من الحديث القدسى :

(**يا عبادى : لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أتقى قلبٌ رجل منكم ، ما زاد ذلك فى ملكى شيئا ، يا عبادى لو أن أولكم وآخركم ، وإنسكم وجنكم ، كانوا على أفجر قلب رجلٍ واحدٍ منكم : ما نقص ذلك فى ملكى شيئا**) رواه مسلم .

وقوله بلا مؤونة : بل ثقل ولا كلفة .

معنى قول الإمام : (مُميتٌ بلا مخافة ، باعثٌ بلا مَشقَّة)

● **ثم قال : (*مُميتٌ بلا مخافة ، باعثٌ بلا مَشقَّة*) .**

وذلك أن الموت صفة وجودية ، خلافاً للفلاسفة ومن وافقهم . قال تعالى : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الملك : ٢) .

والعدمُ لا يوصف بكونه مخلوقاً .

وفى الحديث أنه : (**يؤتَى بالموت يوم القيامة على صورة كبش أملحَ فيذبح بين الجنة والنار**) . وهو وإن كان عرَضاً ، فالله تعالى يقلبه عيناً .

وورد فى الأعمال أنها تُوضع فى الميزان ، والأعيانُ هى التى تقبل الوزن دون الأعراض ، وورد فى سورة البقرة وآل عمران : أنهما يوم القيامة (**يظلان صاحبَهما كأنهما غمامتان ، أو غيابتان ، أو فِرقان من طيرٍ صوافٍ**) ، وفى الصحيح : أن أعمال العباد تصعد إلى السماء .

أزلية وأبدية الصفات العلى

• قال : (*مازال بصفاتِه قديماً قبلَ خلقِهِ ، لم يَزدَدْ بكونِهم شيئاً لم يكن قبلهم من صفتِه ، كما كان بصفاتِهِ أزليّاً ، كذلك لا يزالُ عليها أبديّاً*) .

أى : أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ لم يزل متصفاً بصفات الكمال ، صفات الذات وصفات الفعل ، ولا يجوز أن يُعتقد أن الله وُصف بصفة بعد أن لم يكن متصفاً بها ، لأن صفاته سبحانه صفاتُ كمال ، وفقدها صفةُ نقص ، ولا يجوز أن يكون قد حصل له الكمالُ بعد أن كان متصفاً بضده .

والصفات الاختيارية وصفاتُ الفعل كلها أزلية أيضاً ، كالخَلْق والتصوير ، والإحياء والإماتة ، والقَبض والبَسط والطى ، والاستواء والإتيان والمجىء والنزول ، والغضب والرضا ، ونحو ذلك مما وصف به نفسه ووصفه به رَسوله ، وإن كنا لا ندرك كنهه وحقيقته التى هى تأويله ، ولا ندخل فى ذلك متأولين بآرائنا ولا متوهمين بأهوائنا ، ولكن أصل معناه معلومٌ لنا .

قول الإمام : مالك فى الاستواء

كما قال الإمام مالكٌ ـ رضى الله عنه ـ لما سُئل عن قوله تعالى : ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ ﴾ : كيف استوى ؟ فقال : الاستواءُ معلومٌ ، والكيفُ مجهول ، وإن كانت هذه الأحوالُ تحدث فى وقت دون وقت ، كما فى حديث الشفاعة : (**إن ربى قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ، ولن يغضب بعده مثله**) لأن هذا الحدوثَ بهذا الاعتبار غيرُ ممتنع ، ولا يطلق عليه أنه حدث بعد أن لم يكن ، ألا ترى أن الكاتب فى حال الكتابة هو كاتبٌ بالفعل ، ولا يخرجُ عن كونه كاتباً فى حال عدمِ مباشرته للكتابة ؟

وحلولُ الحوادث بالرب تعالى ، المنفىُّ فى علم الكلام المذموم : لم يَرد نفيه ولا إثباته فى كتاب ولا سنة وفيه إجمال ، فإن أريد بالنفى أنه سبحانه لا يّحل فى ذاته المقدسة شىء من مخلوقاته المحدثة ، ولا يحدث له وصفٌ متجدد لم يكن ، فهذا نفى صحيح ، وإن أُريد به نفىُ الصفاتِ الاختيارية ، من أنه لا يفعل ما يريد ،

ولا يتكلم بما شاء إذا شاء ، ولا أنه يغضب ويرضى ــ لا كأحد من الورى ـ ولا يوصف بما وصف به نفسَه من النزول والاستواء والإتيان كما يَليق بجلاله وعظمته ، فهذا نفى باطل .

وكذا مسألةُ « الصفَة » : هل هى زائدة على الذات أم لا ؟ لفظها مجمل .

وكذلك لفظُ « الغَيرِ » فيه إجمالٌ : فقد يراد به ما ليس هو إياه ، وقد يراد به ما جاز مفارقُته له .

قول أئمة السنة فى : إثبات صفات الكمال للذات المقدسة

ولهذا كان أئمة السُنَّة لا يطلقون على صفات الله وكلامه أنه « غيرُه » ، ولا أنه « ليس غيرَه » ، لأن إطلاق الإثبات قد يشعر أن ذلك مباين له ، وإطلاق النفى قد يشعر بأنه هو ، إذا كان لفظ « الغير » فيه إجمال ، فلا يُطلق إلا مع البيان والتفصيل فإن أريد به أن هناك ذاتاً مجردةً قائمةً بنفسها منفصلة عن الصفات الزائدة عليها ، فهذا غير صحيح ، وإن أريد به أن الصفات زائدة على الذات التى يُفهم من معناها غيرُ ما يفهم من معنى الصفة ، فهذا حق ، ولكن ليس فى الخارج ذاتٌ مجردة عن الصفات ، بل الذات الموصوفة بصفات الكمال الثابتة لها لا تنفصل عنها ، وإنما يعرض للذهن ذاتٌ وصفة كلٌ وحدَه ، ولكن ليس فى الخارج ذات غيُر موصوفة ، فإن هذا محال ، ولو لم يكن إلَا صفةُ الوجود فإنها لا تنفك عن الوجود ، وإن كان الذهن يفرض ذاتاً ووجوداً ، يتصور هذا وحدَه ، وهذا وحدَه ، لكن لا ينفك أحدُهما عن الآخر فى الخارج .

وقد يقول : بعضهم : الصفةُ لا عينُ الموصوف ولا غيرُه ، وهذا له معنّى صحيح ، وهو : أن الصفة ليست عينَ ذات الموصوف التى يفرضها الذهن مجردةً بل هى غيرُها ، وليست غيرُ الموصوف ، بل الموصوفُ بصفاته واحدٌ غيرُ متعدد فإذا قلت : أعوذ بالله ، فقد عُذت بالذات المقدسة الموصوفة بصفات الكمال المقدسة الثابتة التى لا تقبل الانفصال بوجه من الوجوه ، وإذا قلت : أعوذ بعزة الله ، فقد عذت بصفة من صفات الله ، ولم تعذ بغير الله ، وهذا المعنى يفهم من لفظ «الذات» فإن « ذات » فى أصل معناها لا تستعمل إلا مضافة ، أى : ذات وجود ،

ذات قدرة ، ذات عز ، ذات علم ، ذات كرم ، إلى غير ذلك من الصفات . فـ « ذاتُ كذا » بمعنى : صاحبة كذا ، من تأنيث « ذو » هذا أصل معنى الكلمة ، فعُلم أن الذات لا يُتصور انفصالُ الصفات عنها بوجه من الوجوه ، وإن كان الذهن قدَ يفرض ذاتاً مجردة عن الصفات ، كما يفرض المحال ، وقد قال ـ ﷺ ـ : **(أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر)** ، وقال ـ ﷺ ـ : **(أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق)** . وكذا قال ـ ﷺ ـ : **(اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك ، وأعوذ بك منك)** ولا يعوذ النبى ـ ﷺ ـ بغير الله .

قول الجمهور فى : منع تسلسل الحوادث ماضياً لا مستقبلاً

• **قال أبو جعفر الطحاويُ : *(ليس بعد خلق الخلق استفاد اسمَ الخالق ، ولا بإحداثه البَرِيّة استفاد اسم « البارى)***

وظاهر كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه يمنع تسلسلَ الحوادث فى الماضى ، ويأتى فى كلامه ما يدل على أنه لا يمنعه فى المستقبل ، وهو قوله : « والجنة والنارمخلوقتان لا تفنيان أبداً ولا تبيدان » ، وهذا مذهب الجُمهور ، ولا شك فى فساد قول من منع ذلك فى الماضى والمستقبل ، كما ذهب إليه الجهم وأتباعه ، وقال بفناء الجنة والنار ، لما يأتى من الأدلة ـ إن شاء الله تعالى ـ .

وأما قول من قال بجواز حوادث لاأولَ لها ، من القائلين بحوادث لا آخرَ لها ، فأظهرُ فى الصحة من قول من فرّق بينهما ، فإنه سبحانه لم يزل حياً ، والفعلُ من لوازم الحياة ، فلم يزل فاعلاً لما يُريد ، كما وصف بذلك نفسه ، حيث يقول : **﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ ⁽¹⁵⁾ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾** (البروج : ١٥ ـ ١٦) .

دلالة قوله تعالى : (ذو العرش المجيد فعال لما يريد)

والآية تدل على أمور :

أحدها : أنه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته .

الثانى : أنه لم يزل كذلك ، لأنه ساق ذلك فى معرض المدح والثناء على نفسه .

الثالث: أنه إذا أراد شيئاً : فَعَلَه ، فإن « ما » موصولة عامة ، أى : يفعل كلَّ ما يريد أن يفعله ، وهذا فى إرادته المتعلقة بفعله ، وأما إرادتُه المتعلقة بفعل العبد فتلك لها شأن آخر ، فإن أراد فعلَ العبد ، ولم يرد من نفسه أن يعينه عليه ويجعله فاعلاً لم يُوجد الفعل ، وإن أراده حتى يريد من نفسه أن يجعله فاعلاً : أعانه وأوجد الفعل ، وهذه هى النكته التى خفيت على القدرية والجبرية ، وخبطوا فى مسألة القدر ، لغفلتهم عنها .

الرابع: أن فعله وإرادته متلازمان ، فإن أراد أن يفعل : فَعَل ، وما فعلَه فقد أراده ، بخلاف المخلوق ، فإنه يريد ما لا يفعل ، وقد يفعل ما لا يريده ، فما ثَمَّ فَعَّالٌ لما يريد إلا اللهُ وحده .

الخامس: إثباتُ إرادات متعددة ، بحَسب الأفعال ، وإن كل فعل له إرادة تخصه ، هذا هو المعقول فى الفطر ، فشأنه سبحانه أنه يريد على الدوام ويفعل ما يريد

السادس: أن كل ما صح أن تتعلق به إرادتُه : جاز فعله ، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا ، وأن يجىء يوم القيامة لفصل القضاء ، وأن يُرىَ عبادَه نفسَه ، وأن يتجلى لهم كيف شاء ، ويخاطبَهم ، ويضحكَ إليهم ، وإنما يتوقف صحة ذلك على إخبار النبى ـ ﷺ ـ به .

والقول بأن الحوادث لها أول : يلزم التعطيلَ قبل ذلك ، وإن الله سبحانه لم يزل غيرَ فاعل ثم صار فاعلاً ، ولا يلزم من ذلك قدَم العالَم ، لأن كل ما سوى الله محدَث ممكُن الوجود ، موجود بإيجاد الله تعالى له ، ليس له من نفسه إلا العدمُ ، والفقُر والاحتياج وصف ذاتى لازم لكل ما سوى الله تعالى ، والله تعالى واجب الوجود لذاته ، غنى لذاته ، والغنى وصف ذاتى لازم له سبحانه وتعالى .

تفصيل فى مبدأ خلق العالم المشهود

وللناس قولان فى هذا العالم : هل هو مخلوق من مادة أم لا ؟ واختلفوا فى أو ل هذا العالم ما هو ؟ وقد قال تعالى : ﴿ وَهُوَ الَّذِى خَلَقَ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ فِى سِتَّةِ

أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ (هود : ٧) .

وروى البخارى وغيره عن عمران بن حصين ـ رضى الله عنه ـ قال : قال أهل اليمن لرسول الله ـ ﷺ ـ : جئناك لنتفقه فى الدين ، ولنسألك عن أول هذا الأمر فقال : « كان الله ولم يكن شىء قبله » وفى رواية : « ولم يكن شيئ معه » . وفى رواية غيره : « وكان عرشه على الماء وكتب فى الذكر كل شىء ، وخلق السماوات والأرض » ، وفى لفظ : « ثم خلق السماوات والأرض » وقوله : كتب فى الذكر ، يعنى : اللوح المحفوظ .

والناس فى هذا الحديث على قولين ، منهم من قال : إن المقصود إخبارهُ بأن الله كان موجوداً وحده ولم يزل كذلك دائماً ، ثم ابتدأ إحداثَ جميع الحوادث ، فجنسُها وأعيانها مسبوقة بالعدم ، وإن جنس الزمان حادث لا فى زمان ، وإن الله صار فاعلاً بعد أن لم يكن يفعل ممكناً .

والقول الثانى : المراد إخباره عن مبدأ خلق هذا العالم المشهود الذى خلقه الله فى ستة أيام ثم استوى على العرش ، كما أخبر القرآن بذلكَ فى غير موضع . وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « قدر الله تعالى مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألفَ سنة ، وكان عرشه على الماء » . فأخبر ـ ﷺ ـ أن تقدير هذا العالم المخلوق فى ستة أيام كان قبل خلق السماوات بخمسين ألفَ سنة ، وأن عرش الرب تعالى حينئذ على الماء .

دليل صحة هذا القول الثانى أن قول أهل اليمن : « جئناك لنسألك عن أول هذا الأمر » ، هو إشارة إلى حاضر مشهود موجود ، والأمر هنا بمعنى المأمور ، أى : الذى كونه الله بأمره . وقد أجابهم النبى ـ ﷺ ـ عن بدء هذا العالم الموجود ، لا عن جنس المخلوقات ، لأنهم لم يسألوه عنه ، وقد أخبرهم عن خلق السماوات والأرض حالَ كون عرشه على الماء ، ولم يخبرهم عن خلقَ العرش ، وهو مخلوق قبل خلق السماوات والأرض .

وأيضاً فإنه قال : « كان الله ولم يكن شىءقبله » ، وقد روى : « معه » ، وروى : « غيره » ، والمجلس كان واحداً ، فعُلِم أنه قال أحد الألفاظ ، والآخران

رويا بالمعنى . . ولفظ « القَبل » ثبت عنه فى غير هذا الحديث ، ففى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ـ ﷺ ـ : أنه كان يقول فى دعائه : «اللهم أنت الأول فليس قبلك شىء » . واللفظان الآخران لم يثبت واحد منهما فى موضع آخر ، ولهذا كان كثير من أهل الحديث إنما يرويه بلفظ القبل ، كالحُمَيدى ، والبَغوى ، وابن الأثير ، وإذا كان كذلك ، لم يكن فى هذا اللفظ تعرّض لابتداء الحوادث ولا لأول مخلوق .

ثبوت الصفات العلى فى الأزل قبل الخلق

• **قال أبو جعفر: *(له معنى الربوبيةِ ولا مربوبٌ ، ومعنى الخالق ولا مخلوق)***

يعنى أن الله تعالى موصوف بأنه الرب قبل أن يُوجَد مربوب ، وموصوف بأنه خالق قبل أن يُوجَد مخلوق .

• **قال: *(وكما أنه محيى الموتى بعدما أحيا ، استحق هذا الاسمَ قبل إحيائهم ، كذلك استحق اسمَ الخالِق قبل إنشائهم)***

يعنى أنه سبحانه وتعالى موصوف بأنه « محيى الموتى » قبل إحيائهم ، فكذلك يوصف بأنه « خالقٌ » قبل خَلقهم ، إلزاما للمعتزلة ومن قال بقولهم ، وتقدَّم تقريرُ أنه تعالى لم يزل يفعل ما يشاء .

• **قال: *(ذلك بأنه على كل شىءٍ قديرٌ ، وكلُّ شىءٍ إليه فقيرٌ ، وكلُّ أمرٍ إليه يسيرٌ ، لا يَحتاجُ إلى شىءٍ ، ليس كمثلِه شىءٌ ، وهو السَّميعُ البصير)***

وذلك إشارة إلى ثبوتِ صفاته فى الأزل قبل خَلقه .

الرد على تحريف المعتزلة لمعنى كلية القدرة

وقد حرّفت المعتزلة المعنى المفهومَ من قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ (الحشر : ٦) .

قالوا : إنه قادر على كل ما هو مقدور له ، وأما نفسُ أفعال العباد فلا يقدرُ عليها ، ولو كان هذا المعنى صحيحاً لكان بمنزلة أن يقال : هو عالمَ بكل ما يعلمه ،

وخالقٌ لكل ما يخلقه ، ونحو ذلك من العبارات التى لا فائدة فيها ، فسلبوا صفةَ كمال قدرته على كل شىء .

وأما أهل السُّنَّة فعندهم أن الله على كل شىء قدير ، وكلُّ ممكن فهو مُندَرج فى هذا ، وأما المحال لذاته ـ مثلُ كون الشىء الواحد موجوداً معدوماً فى حال واحدة ـ فهذا لا حقيقة له ، ولا يُتصورَّ وجودُه ، ولا يسمى شيئاً ، باتفاق العقلاء .

وهذا الأصل هو الإيمان بربوبيته العامة التامة ، فإنه لا يؤمن بأنه ربُّ كلِّ شىء ، إلا من آمن أنه قادر على تلك الأشياء ، ولا يؤمن بتمام ربوبيته وكمالها إلا من آمن بأنه على كل شىء قدير .

(ليس كمثله شىء) (وهو السميع البصير) ردان على فرقتى المشبهة والمعطلة

وقولهُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ ردَّ على المشبّهة وقوله : ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ ﴾ رد على المعطلة فهو سبحانه موصوف بصفات الكمال ، وليس له فيها شبه ، فالمخلوق وإن كان يوصف بأنه سميع بصير ، فليس سمعُه وبصره كسمع الرب وبصره ، ولا يلزم من إثبات الصفة تشبيه ، إذ صفاتُ المخلوق كما يليق به ، وصفاَتُ الخالق كما يليق به ، وقد وصف الله تعالى نفسه بأن له المثلَ الأعلى ، فقال تعالى : ﴿ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ مَثَلُ السَّوْءِ وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ ﴾ (النحل : ٦٠).

وقال تعالى : ﴿ وَلَهُ الْمَثَلُ الأَعْلَىٰ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ (الروم : ٢٧) .

فجعل سبحانه مثَل السَّوء ـ المتضمّنَ للعيوب والنقائص وسلب الكمال ـ لأعدائه المشركين وأوثانهم ، وأخبر أن المثل الأعلى ـ المتضمن لإثبات الكمال كله ـ لله وحدَه ، فمن سلبَ صفات الكمال عن الله تعالى فقد جعل له مَثَل السوء ، ونفى عنه ما وصف به نفسه مَن المثل الأعلى ، وهو الكمالُ المطلق ، المتضمن للأمور الوجودية ، والمعانى الثبوتية ، التى كلما كانت أكثَر فى الموصوف وأكمل ، كان بها أكمل وأعلى من غيره .

ولما كانت صفات الرب تعالى أكثرَ وأكمل ، كان له المثل الأعلى ، وكان أحقَّ به من كل ما سواه ، بل يستحيل أن يشترك فى المثل الأعلى اثنان ، لأنهما إن تكافئا

من كل وجه : لم يكن أحدهما أعلى من الآخر ، وإن لم يتكافئا : فالموصوف به أحدُهما وحدَه ، فيستحيل أن يكون لمن له المثل الأعلى مِثْلٌ أو نظير .

دليلى النقل والعقل على العلم بالخلق

• **قال : (*خلقَ الخلقَ بعِلمِه*)**

وخلق : أى : أوجد وأنشأ وأبدع ويأتى خَلَق أيضاً بمعنى : قدَّر . والخلق مصدر ، وهو هنا بمعنى المخلوق ، وقوله : « بعلمه » فى محل نصب على الحال ، أى : خلقهم عالماً بهم ، قال تعالى : ﴿ **وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ** ﴾ الأنعام : (٥٩ ـ ٦٠) .

والدليل العقلى على علمه تعالى : أنه يستحيل إيجادُه الأشياءَ مع الجهل ، ولأن إيجادَه الأشياءَ بإرادته ، والإرادةُ تستلزم تصوّرَ المراد ، وتصوّرُ المراد هو العلم بالمراد ، فكان الإيجاد مستلزماً للإرادة مستلزمة للعلم ، فالإيجاد مستَلزم للعمل ، ولأن المخلوقات فيها من الإحكام والإتقان ما يستلزم علَم الفاعل لها ، لأن الفعل المحكَم المتقن ، يمتنع صدورُه عن غير علم ، ولأن من المخلوقات ما هو عالم ، والعلم صفة كمال ، ويمتنع أن لا يكون الخالق عالماً .

وهذا له طريقان :

أحدهما : أن يقال : نحن نعلم بالضرورة أن الخالق أكملُ من المخلوق ، وأن الواجب أكملُ من الممكن ، ونعلم ضرورةً أنْ لَو فرضنا شيئين ، أحدهما عالم ، والآخر غيرُ عالم : كان العالم أكمل ، فلو لم يكن الخالق عالماً لزم أن يكون الممكن أكمل منه ، وهو ممتنع .

الثانى : أن يقال : كل علم فى الممكنات ، التى هى المخلوقات ، فهو منه ، ومن الممتنع أن يكون فاعلُ الكمال ومبدعه عارياً منه ، بل هو أحق به ، والله تعالى له المثل الأعلى ، ولا يستوى هو والمخلوق ، لا فى قياس تمثيلى ،

ولا فى قياس شمولى ، بل كلُّ ما ثبت للمخلوق من كمال فالخالق به أحق ، وكل نقص تنزهَ عنه مخلوق ما فتنزهُ الخالقِ عنه أولى .

تقدير الأقدار والآجال ورد على المعتزلة

• **قال : (وقدّر لهم أقداراً) .**

فقد قال تعالى : ﴿ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً ﴾ (الفرقان : ٢) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ (القمر : ٤٩) .

• **قال : (وضرب لهم آجالاً) .**

يعنى أن الله سبحانه وتعالى قدَّر آجالَ الخلائق ، بحيثُ إذا جاء أجلُهم لا يستأخرونَ ساعةً ولا يستقدمون .

قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً ﴾ (آل عمران : ١٤٥) .

وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : قالت أم حبيبةَ زوجُ النبى ـ ﷺ ـ : اللهم أمتعنى بزوجيَ رسول الله ، وبأبى أبى سفيان ، وبأخى معاوية ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : « قد سألت الله لآجال مضروبة ، وأيامٍ معدودة ، وأرزاق مقسومة . لن يعجل شيئاً قبلَ أجله ، ولن يؤخر شيئاً عنَ أجله ، ولو كنت سألتِ الله أن يعيذك من عذابٍ فى النار ، وعذاب فى القبر : كان خيراً وأفضلَ » .

فالمقتول ميت بأجله ، فعلم اللهُ تعالى وقدّر أن هذا يموت بسبب المرض ، وهذا بسبب القتل ، وهذا بسبب الهدم ، إلى غير ذلك من الأسباب ، والله سبحانه خلق الموت والحياة ، وخلق سبب الموت والحياة .

وعند المعتزلة : المقتول مقطوع عليه أجلُه ، ولو لم يُقتل لعاش إلى أجله ، فكان له أجلان ! ! وهذا باطل ، لأنه لا يليق أن يُنسب إلى الله تعالى أنه جعل له أجلاً يعلم أنه لا يعيش إليه البتّة ، أو يجعل أجله أحد الأمرين ، كفعل الجاهل بالعواقب ، وأوجب القصاص والضمان على القاتل لارتكابه المنهيّ عنه ومباشرته

السببَ المحظور ، وعلى هذا يخرج قوله ـ ﷺ ـ : « صلة الرحمِ تَزيد فى العمر » أى : سبب طول العمر ، وقد قدر الله أن هذا يصل رحمه فيعيشَ بهذا السبب إلى هذه الغاية ، ولولا ذلك السببُ لم يصل إلى هذه الغاية ، ولكن قدر هذا السبَب وقضاه ، وكذلك قدّر أن هذا يقطع رحمَه فيعيش إلى كذا ، كما قلنا فى القتل وعدمه .

فإن قيل : هل يلزم من تأثير صلةِ الرحمِ فى زيادة العمر ونقصانه تأثيُر الدعاء فى ذلك أم لا ؟

فالجواب : أن ذلك غيرُ لازم ، لقوله ـ ﷺ ـ لأم حبيبةَ : قد سألت الله تعالى لآجال مضروبة ، كما تقدم ، فعُلم أن الأعمار مقدرة ، لم يُشرع الدعاءُ بتغييرها ، بخلاف النجاة من عذاب الآخرة ، فإن الدعاء مشروع له نافع فيه ألا ترى أن الدعاء بتغيير العمر لما تضمَّن النفعَ الأخروى شرع فى الدعاء الذى رواه النسائى من حديث عمارُ بن ياسر عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « اللهم بعلمك الغيبَ وقدرتك على الخلق : أحينى ما كانت الحياة خيراً لى ، وتوفنى إذا كانت الوفاة خيراً لى » .

ويؤيد هذا ما رواه الحاكم فى مستدركه من حديث ثَوبَان عن النبى ـ ﷺ ـ : « لا يرد القَدَر إلا الدعاءُ ، ولا يَزيد فى العمر إلا البر ، وأن الرجلِ ليُحرم الرزق بالذنب يصيبه » وفى الحديث رد على من يظن أن النذر سببٌ فى دفع البلاء وحصول النعماء ، وقد ثبت فى الصحيحين عن النبى ـ ﷺ ـ : أنه نهى عن النذر، وقال : « أنه لا يأتى بخير ، وإنما يُستخرَج به من البخيل » .

واعلم أن الدعاء يكون نافعاً مشروعاً فى بعض الأشياء دون بعض ، وكذلك هو ولهذا لا يحب الله المعتدين فى الدعاء ، وكان الإمام أحمد يكره أن يدعى له بطول العمر ويقول : هذا أمر قد فرغ منه .

وأما قوله تعالى : ﴿ وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلا تَضَعُ إِلاَّ بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ ﴾ (فاطر : ١١) .

فقد قيل فى الضمير المذكور فى قوله تعالى : ﴿ مِنْ عُمُرِهِ ﴾ إنه بمنزلة قولهم : عندى درهم ونصفه ، أى ونصف درهم آخر ، فيكون المعنى : ولا ينقص من عمر

معمرآخر . وقيل : الزيادة والنقصان فى الصحف التى فى أيدى الملائكة .

وقال تعالى : ﴿ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨) يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (الرعد : ٣٨-٣٩) .

وقد حُمل ذلك على أن المحو والإثبات من الصحف التى فى أيدى الملائكة ، وأن قوله : وعنده أم الكتاب : اللوح المحفوظ .

علم الله المحيط

• **قال الطحاوى : *(لم يَخفَ عليه شىءٌ قبل أن يخلقهم ، وعلم ما هم عاملون قبل أن يخلقهم)* .**

فإنه سبحانه يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن أن لو كان كيف يكون ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ﴾ (الأنعام : ٢٨) .

وإن كان يعلم أنهم لا يُردُّون ، ولكنْ أخبر أنهم لو ردوا لعادوا ، وقال سبحانه : ﴿ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾ (الأنفال : ٢٣) .

غاية الخلق العبادة

• **قال : *(وأمَرهم بطاعته ، ونهاهم عن معصيته)* .**

فذكر الشيخ الأمرَ والنهى ، بعد ذكر الخلق والقدر ، إشارة إلى أن الله تعالى خلق الخلق لعبادته ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

ما شاء الله للعباد كان وما لم يشأ لم يكن

• **قال : *(وكلُّ شىء يجرى بتقديره ، ومشيئته تنفذ لا مشيئة للعباد ، إلا ما شاءَ لهم ، فما شاءَ لهم كان ، وما لم يشأ لم يكن)* .**

وذلك من قول الله تعالى : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ ﴾ (الدهر : ٣٠) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ (التكوير : ٢٩) .

إلى غير ذلك من الأدلة على أنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ، وكيف يكون فى ملكه ما لا يشاء ! ومَن أضلُّ سبيلاً وأكفرُ ممن يزعم أن الله شاء الإيمان من الكافر ، والكافر شاء الكفر ، فغلبت مشيئة الكافر مشيئةُ الله ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

فإن قيل : يشكل على هذا قوله تعالى : ﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلا آبَاؤُنَا ﴾ (الأنعام : ١٤٨) .

وقوله تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ (النحل : ٣٥) .

قيل : قد أجيب عن هذا بأجوبة ، من أحسنها : أنه أنكر عليهم ذلك لأنهم احتجوا بمشيئته على رضاه ومحبته ، وقالوا : لو كره ذلك وسخطَه لما شاءه ، فجعلوا مشيئته دليلَ رضاه ، فردّ الله عليهم ذلك ، أو أنه أنكر عليهم اعتقادَهم أن مشيئة الله دليلٌ على أمره به ، أو أنه أنكر عليهم معارضتَهم شرعَه وأمرَه الذى أرسل به رسله وأنزل به كتبه بقضائه وقدره ، فجعلوا المشيئة العامة دافعةً للأمر ، فلم يذكروا المشيئة على جهة التوحيد ، وإنما ذكروها معارضين بها لأمره ، دافعين بها لشرعه ، كفعلِ الزنادقة والجهال : إذا أمروا أو نُهُوا : احتجوا بالقدَر ، وقد احتج سارق على عمرَ - رضى الله عنه - بالقدر ، فقال : وأنا أقطع يدك بقضاء الله وقدَرِه .

مسألة الهدى والضلال والرد على المعتزلة

قال : (يهدى مَن يشاء ، ويَعصِمُ ويعافى ، فضلاً . ويُضِلُّ مَن يشاءُ ويَخذِلُ ويبتلى ، عدلاً) .

وهذا ردٌّ على المعتزلة حين يقولون بوجوب فعلِ الأصلحِ للعبدِ على الله ، وهى مسألة الهدى والضلال .

قالت المعتزلة : الهدى من الله : بيانُ طريق الصواب ، والإضلالُ : تسميةُ العبد ضالاً ، وحُكمه تعالى على العبد بالضلال عند خَلقِ العبدِ الضلال فى نفسه .

وهذا مبنى على أصلهم الفاسد : أن أفعال العباد مخلوقة لهم ، والدليل على

ما قلناه قوله تعالى : ﴿ إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ (القصص : ٥٦) .

ولو كان الهدى بيان الطريق لما صح هذا النفىُ عن نبيه ، لأنه - ﷺ - بيّن الطريق لمن أحب وأبغض ، ولو كان الهدى من الله البيان - وهو عامٌّ فى كل نفس - لما صح التقييدُ بالمشيئة .

المشيئة بين الفضل والعدل

• **قوله : (وكلهم يتقلبون فى مشيئته ، بين فضله وعدله) .**

فإنهم كما قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ ﴾ (التغابن : ٢) .

فمن هداه إلى الإيمان فبفضله ، وله الحمدُ ، ومن أضله فبعدله ، وله الحمد ، وسيأتى لهذا المعنى زيادةُ إيضاح ، إن شاء الله تعالى ، فإن الشيخ - رحمه الله - لم يجمع الكلام فى القدر فى مكان واحد ، بل فرقه ، فأتيت به على ترتيبه .

تعاليه سبحانه عن المثل

• **قوله : (وهو متعال عن الأضداد والأنداد) .**

الضِّدُّ : المخالف ، والنِّدّ : المثْل ، وهو سبحانه لا معارض له ، بل ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن ، ولا مثْلَ له ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴾ (الإخلاص : ٤) .

الإيمان واليقين بالقضاء والحكم والقدرة

• **قال : (لا رادَّ لقضائه ، ولا معقب لحكمه ، ولا غالبَ لأمره) .**

أى لا يرد قضاءَ الله رادٌّ ، ولا يعقّب ، أى لا يؤخر حكمه مؤخر ، ولا يغلب أمرَه غالبٌ ، بل هو الله الواحدُ القهار .

• **قال : (آمنّا بذلك كله ، وأيقنّا أن كلاً من عنده) .**

الإيمان واليقين باصطفاء محمد عبد الله ورسوله ـ ﷺ ـ

• ثم قال : (*وإنَّ محمداً عبدُه المصطفى ، ونبيُّه المجتبى ، ورسوله المرتضى*)

الاصطفاء والاجتباء والارتضاء : متقاربُ المعنى ، واعلم أن كمال المخلوقِ فى تحقيق عبوديتِه لله تعالى .

زيادة العبودية تحقق زيادة الكمال

وكلما ازداد العبد تحقيقاً للعبودية ازداد كمالُه وعَلَتْ درجتُه ، ومن توهم أن المخلوق يخرج عن العبودية بوجه من الوجوه ، وأن الخروجَ عنها أكملُ ، فهو من أجهل الخلق وأضلِّهم ، قال تعالَى : ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ** ﴾ (الأنبياء : ٢٦) .

وذكرَ الله نبيه ـ ﷺ ـ باسم « العبد » فى أشرف المقامات ، فقال فى ذكر الإسراء : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ (الإسراء : ١) .

وقوله : (وإنَّ محمداً) بكسر الهمزة عطفاً على قوله : (إن الله واحدٌ لا شريك له) لأن الكل معمول القول ، أعنى قوله : (نقول فى توحيَد الله) .

والطريقة المشهورةُ عند أهل الكلام والنظرِ : تقريرُ نبوةِ الأنبياء بالمعجزات .

تقرير النبوة بالمعجزات وقرائن الحال وآثار الكرامة

ولا ريب أن المعجزات دليلٌ صحيح ، لكن الدليل غيرُ محصور فى المعجزات ، فإن النبوة يدَّعيها أصدقُ الصادقين أو أكذبُ الكاذبين ، ولا يلتبس هذا إلا على أجهل الجاهلين ، بل قرائنُ أحوالهما تُعْرب عنهما ، وتُعرّف بهما ، والتمييزُ بين الصادق والكاذب له طرقٌ كثيرةٌ فيما دون دعوى النبوة ، فكيف بدعوى النبوة ؟ وما أحسن ما قال حسان بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ :

لو لم يكن فيه آيات مبيِّنة ... كانت بديهتُه تأتيك بالخبر

وما من أحد ادّعى النبوةَ من الكاذبين إلا وقد ظهر عليه من الجهل والكذب

والفجور واستحواذ الشياطين عليه ما ظهر لمن له أدنى تمييز ، فإن الرسول لابد أن يُخبر الناس بأمور ويَأمرهم بأمور ، ولابد أن يفعل أموراً يبيِّن فيها صدقه والكاذبُ يظهر فى نفس ما يأمر به ويخبر عنه وما يفعله ما يتبين به كذبُه من وجوه كثيرة ، والصادق ضده . بل كلُّ شخصين ادَّعيا أمراً : أحدهما صادق والآخر كاذب ، لابد أن يظهر صدقُ هذا وكذبُ هذا ولو بعد مدة ، إذ الصدق مستلزمٌ للبر ، والكذب مستلزم للفجور ، كما فى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قال : **(عليكم بالصدق ، فإن الصدق يَهدى إلى البر ، وإن البر يَهدى إلى الجنة ، وما يزال الرجل يصدقٍ ويتحرًى الصدقَ حتى يكتب عند الله صدِّيقاً ، وإياكم والكذب ، فإن الكذب يَهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وما يزال الرجل يكذب ويتحرًى الكذبَ حتى يكتب عند الله كذابا)** .

فإذا كان صدق المخبر وكذبه يُعلم بما يقترن من القرائن ، فكيف بدعوى المدعى أنه رسول الله ؟ كيف يخفَى صدق هذا من كذبه ؟ وكيف لا يتميز الصادق فى ذلك من الكاذب بوجوه من الأدلة ؟

ولهذا لما كانت خديجةُ - رضى الله عنها - تعلم من النبى - ﷺ - أنه الصادق البار ، قال لها لما جاءه الوحى : « إنى قد خشيت على نفسى » فقالت : (كلا ، والله لا يُخزيك الله ، إنك لتصل الرحم ، وتَصدُق الحديث ، وتحمل الكلْ ، وتقرى الضيف ، وتكسب المعدوم ، وتُعين على نوائب الحق) .

وكذلك قال النجاشى لما استخبرهم عما يخبر به واستقرأهم القرآن فقرأوا عليه : « إن هذا والذى جاء به موسى ليخرج من مشكاة واحدة » .

وكذلك ورقةُ بنُ نوفل ، لما أخبره النبى - ﷺ - بما رآه - وكان ورقة قد تنَصَّرَ ، وكان يكتب الإنجيل بالعربية - وقالت له خديجه - رضى الله عنها - : « أى عم ، اسمع من ابن أخيك ما يقول ، فأخبره النبى - ﷺ - بما رأى قال : **(هذا هو الناموس الذى كان يأتى موسى)** .

وأيضاً : فإن الله سبحانه أبقى فى العالم الآثار الدالة على ما فعله بأنبيائه والمؤمنين من الكرامة ، وما فعله بمكذبيهم من العقوبة ، كثبوت الطوفان ، وإغراق

فرعونَ وجنوده ، ولما ذكر سبحانه قصص الأنبياء نبيّاً بعد نبى ، وفى سورة الشعراء ، كقصة موسى وإبراهيم ونوح ومن بعده ، يقول فى آخر كل قصة : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ۝٨ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (الشعراء : ٨ ـ ٩)

ونحن اليوم علمنا بالتواتر من أحوال الأنبياء وأوليائهم وأعدائهم علماً يقيناً أنهم كانوا صادقين من وجوه متعددة :

منها : أنهم أخبروا الأمم بما سيكون من انتصارهم وخذلان أولئك وبقاء العاقبة لهم .

ومنها ما أحدثه الله لهم من نصرهم وإهلاك عدوهم ، إذا عُرف الوجه الذى حصل عليه ـ كغرق فرعون وغرق قوم نوح ـ عرف صدق الرسل .

ومنها : أن من عرف صدقَ ما جاءت به الرسل من الشرائع وتفاصيل أحوالها ، تبين له أنهم أعلم الخلق ، وأنه لا يحصل مثل ذلك من كذاب جاهل .

إنكار رسالته ـ ﷺ ـ طعن فى الرب تعالى

بل إنكار رسالته ـ ﷺ ـ طعنٌ فى الرب تبارك وتعالى ، ونسبةٌ له إلى الظلم ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، بل جحدٌ للرب بالكلية وإنكارٌ .

وبيان ذلك : أنه إذا كان محمد عندهم ليس بنبى صادق ، بل ملك ظالم ، فقد تهيأ له أن يفترى على الله ، ويتقول عليه ، ويستمر حتى يحلل ويحرم ، ويفرضَ الفرائض ، ويشرع الشرائع ، وينسخَ الملل ، ويضرب الرقاب ، ويقتل أتباع الرسل وهم أهل الحق ، ويتم ذلك حتى تفتح له الأرض ، وينسب ذلك كلّه إلى أمر الله له به ، والرب تعالى يشاهده وهو يفعل بأهل الحق ، وهو مستمر بالافتراء عليه ثلاثاً وعشرين سنة ، وهو مع ذلك كله يؤيده وينصره ، ويُعلى أمره ويمكّن له من أسباب النصر الخارجة عن عادة البشر ، وأبلغُ من ذلك أنه يجيب دعوته ، ويُهلك أعداءه ويرفع له ذكْرَه ، هذا وهو عندهم فى غاية الافتراء والظلم ، والله تعالى يقره على ذلك ، فليزمهم أن يقولوا : لا صانعَ للعالم ولا مدبر ، ولو كان له مدبر قدير لأخذ

على يديه وجعله نكالاً للعالمين ، إذ لا يليق بالملوك غير ذلك فكيف بملك الملوك وأحكم الحاكمين .

ونحن لا ننكر أن كثيراً من الكذابين قائم فى الوجود ، وظهرت له شوكة ولكن لم يتّم أمره ، ولم تطُلْ مدته ، بل يسلط الله عليه رسله وأتباعه .

هذه سنة الله قد خلت من قبل ، حتى إن الكفار يعلمون ذلك قال تعالى : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ﴾ (الطور : ٣٠ـ ٣١) .

صفات وأسماء للنبى ـ ﷺ ـ

• قال الطحاوى : (*وإنه خاتمُ الأنبياءِ*) .

وذلك قول الله تعالى : ﴿ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾ (الأحزاب : ٤٠) .

وقال النبى ـ ﷺ ـ : **(إن مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بيتا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون : هلا وضّعت هذه اللبنة ؟ قال : فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين)** رواه البخارى .

وقال ـ ﷺ ـ : **(لى خمسةِ أسماء : أنا محمدِ وأحمد ، وأنا الماحى الذى يمحو الله بى الكفر ، وأنا الحاشّر الذى يحشر الناس على قدمى ، وأنا العاقب)** . رواه البخارى .

والعاقب : الذى ليس بعده نبى .

• قال : (*وإمامُ الأتقياءِ*) .

والإمام : الذى يُؤْتَمُّ به ، أى يقتدونَ به ، والنبى ـ ﷺ ـ إنما بُعثَ للاقتداء به لقوله تعالى : ﴿ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ (آل عمران : ٣١) .

وكل من اتبعه واقتدى به فهو من الأتقياء

• قال : (وسيدُ المرسَلين) .

فقد قال النبى ـ ﷺ ـ « أنا سيد ولدِ آدمَ يوم القيامة ، وأولُ من ينشق عنه

القبر ، وأولُ شافع وأول مشفّع » . رواهمسلم

فإن قيل : يشكل على هذا قوله ـ ﷺ ـ : **(لا تفضلونى على موسى ، فإن الناس يصعقون يوم القيامة ، فأكون أول من يفيق ، فأجد موسى باطشا بساق العرش ، فلا أدرى : هل أفاق قبلى ؟ أو كان ممن استثنى الله ؟)** .

خرّجاه فى الصحيحين . فكيف يُجمع بين هذا وبين قوله : « أنا سيد ولد آدم » ؟

فالجواب : أن هذا كان له سبب ، فإنه كان قد قال يهودى : لا والذى اصطفى موسى على البشر فلطمه مسلم وقال : أتقول هذا ورسول الله ـ ﷺ ـ بين أظهرنا؟ فجاء اليهودى فاشتكى من المسلم الذى لطمه فقال النبى ـ ﷺ ـ : لأن التفضيل إذا كان وجه الحميّة والعصبية وهوى النفس ، كان مذوماً ، بل نفسُ الجهاد إذا قاتل الرجلُ حَمية وعصبية كان مذموماً فإن الله حرم الفخر وقد قال تعالى ﴿ **تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ** ﴾ (البقرة : ٢٥٣) .

فعُلم أن المذموم إنَّما هو التفضيل على وجه الفخر ، أو على وجه الانتقاص بالفضول .

وأما ما يُروى أن النبى ـ ﷺ ـ قال : **(لا تفضلونى على يونسَ بنُ متَّى)** فإن هذا الحديث بهذا اللفظ لم يروه أحد من أهل الكتب المعتمدة ، وإنما اللفظُ الذى فى الصحيح : **(لا ينبغى لعبد أن يقول : أنا خير من يونسَ بنُ متى . وفى رواية: من قال : إنى خير من يونس بن متى فقد كذب)** وهذا اللفظ يدل على العموم ، لا ينبغى لأحد أن يفضل نفسه على يونس ، ليس فيه نهى المسلمين أن يفضلوا محمداً على يونس وذلك لأن الله تعالى قد أخبر عنه أنه التقمه الحوتُ وهو مُليم ، أى فاعلُ ما يلام عليه ، ثم ذكر الله خبرَه من بعدُ فقال : ﴿ **وَذَا النُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي الظُّلُمَاتِ أَن لَّا إِلَٰهَ إِلَّا أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (الأنبياء : ٨٧) .

فقد يقع فى نفس بعض الناس أنه أكمل من يونس ، فلا يحتاج إلى هذا المقام ،

مقام الاستغفار ، والأعتراف والتسبيح ، فمن ظن هذا فقد كذب ، بل كلّ عبد من عباد الله يقول ما قال يونس : ﴿ **أَن لاَّ إِلَهَ إِلاَّ أَنتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ** ﴾ كما قال أول الأنبياء وآخرهم ، فأولهم آدم قال : ﴿ **رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ (الأعراف : ٢٣) .

وآخرهم وأفضلهم وسيدهم : محمدٌ ـ ﷺ ـ قال فى الحديث الصحيح : **(اللهم أنت الملك لا إله إلا أنت ، أنت ربى وأنا عبدك ، ظلمت نفسى ، واعترفت بذنبى ، فاغفر لى ذنوبى جميعاً ، لا يغفر الذنوب إلا أنت)** .

وفى « صحيح مسلم » عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : **(أوحَىّ إلىَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخرّ أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد)** .

فالله تعالى نهى أن يفخر على عموم المؤمنين ، فكيف على نبى كريم ؟

وإنما أخبر ـ ﷺ ـ أنه سيد ولد آدمَ لأنا لا يمكننا أن نعلم ذلك إلا بخبره ، إذ لا نبىَّ بعده يخبرنا بعظيم قدره عند اللَه ، كما أخبرنا هو بفضائل الأنبياء قبله ، صلى الله عليهم أجمعين ، ولهذا أتبعه بقوله : « لا فخر » كما جاء فى رواية .

وهل يقول من يؤمن بالله واليوم الآخر : أن مقام الذى أسرى به إلى ربه ، وهو مقرَّب مكرَّم ، كمقام الذى ألقى فى بطن الحوت وهو مليم ؟

• **ثم قال الطحاوى : *(وحبيب رب العالمين)***

فقد ثبت له ـ ﷺ ـ أعلى مراتب المحبة ، وهى الخُلَّة ، كما صح عنه ـ ﷺ ـ أنه قال : **(إن الله اتخذنى خليلاً كما اتخذَ إبراهيم خليلاً)** ، وقال : **(ولو كنت متخذاً من أهل الأرض خليلاً لا تَّخذت أبا بكر خليلاً ، ولكن صاحبكم خليلُ الرحمن)** .

والحديثان فى الصحيح ، وهما يُبطلان قولَ من قال : الخلةُ لإبراهيمَ والمحبةُ لمحمد ، فقد ثبتت المحبة لغيره من المؤمنين ، كما قال الله تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ** ﴾ (البقرة : ٢٢٢) .

وأما حديثُ : « إن إبراهيم خليلُ الله ، ألا وأنا حبيبُ اللهِ ولا فخر » الذى رواه الترمذى فإنه لم يثبُتْ ، لضعف راويه زمعةَ بن صالح .

كذب كل مدع للنبوة بعده ـ ﷺ ـ

• قال : (وكلُّ دعوى النبوةِ بعده فغيّ وهوى)

وذلك لأنه خاتم النبيين ، فعلم أن من ادعى النبوةَ بعده فهو كاذب .

ولا يقال : فلو جاء المدعى للنبوة بالمعجزات الخارقة والبراهين الصادقة كيف يقال بتكذيبه ؟ لأنَّا نقول : هذا لا يُتصوَّر أن يوجد ، وهوَ من باب فَرض الْمُحال ، لأن الله تعالى لما أخبر أنه خاتُم النبيين ، فمن المحال أن يأتى مُدّعٍ بدَّعى النبوةَ ولا يظهر كذبُه .

والغَيُّ : ضدُّ الرشاد .

والهوى : عبارةٌ عن شهوةِ النفس .

عموم بعثته ـ ﷺ ـ لكافة الورى

• قال : (وهو المبعوث إلى عامّة الجن وكافة الورى ، بالحق والهدى ، وبالنور والضياء)

فأما كونه مبعوثاً إلى عامَّة الجنِّ فثابتٌ فى قوله تعالى : ﴿ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ (الأحقاف : ٣١) .

والذين يخاطبون الجن هنا ويقولون : يا قومنا ، هم نفر من أنفسهم ، وهم الذين صرفهم الله إلى النبى ـ ﷺ ـ لاستماع القرآن ، ثم ولَّوا إلى قومهم منذرين

وكذا سورةُ الجن تدل على أنه أُرسل إليهم .

وظاهرُ القرآن يدل على أن موسى ـ عليه السلام ـ مرسل إليهم أيضاً ، والله أعلم . وذلك قوله تعالى : ﴿ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ (الأحقاف : ٣٠) .

وأما كونه مبعوثاً إلى كافة الورى فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ (سبأ : ٢٨) .

وقال سبحانه : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ (الأعراف : ١٥٨)

وقال النبى ـ ﷺ ـ : (أعطيت خمسا لم يعطّهن أحد من الأنبياء قبلى : نصّرت بالرعب مسيرةَ شهر ، وجعّلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيُما رجل مّن أمتى أدركته الصلاة فليصلَ ، وأحِلَت لى الغنائم ، ولم تحِل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعّث إلى قومه خاصة ، وبعّثت إلى الناس عامة) رواه البخارى ومسلم فى الصحيحين .

وقال ـ ﷺ ـ : (لا يسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لا يؤمن بى إلا دخل النار) رواه مسلم .

وكونُه ـ ﷺ ـ مبعوثاً إلى الناس كافةً معلومٌ من دينِ الإسلام بالضرورة .

وأما قول النصارى : إنه رسول العرب خاصةً فظاهرُ البطلان ، فقد قال : إنه رسول الله إلى الناس عامة ، والرسول لا يكذب ؛ فلزم تصديقُه حتماً ، فقد أرسل رسله وبعث كتبه فى أقطار الأرض ، إلى كسرى وقيصرَ والنجاشى والمقوقس وسائرِ ملوك الأطراف ، يدعوهم إلى الإسلام .

القول الحق فى : القرآن الكريم كلام الله تعالى

• قال الطحاوى ـ رحمه الله ـ

(وإن القرآنَ كلامُ الله ، منه بدا بلا كيفية قولاً ، وأنزله على رسوله وحياً ، وصدَّقَه المؤمنون على ذلكَ حقاً ، وأيقنوا أنهَ كلامُ الله تعالى بالحقيقة ، ليس بمخلوق ككلامِ البريَّة ، فمَنْ سمعه فزعم أنه كلام البشرِ فقد كفر ، وقد ذَمَّهُ الله وعابه وأوعده بسقَرَ ، حيث قالَ تعالى : ﴿سَأُصْلِيه سَقَرَ﴾ ، فلما أوعد اللهُ بسقر لمن قال : « إنْ هذا إلا قولُ البشر » : علِمنا وأيقنَّا أنه قولُ خالق البشر ، ولا يُشبه قول البشر) .

قال ابنُ أبى العزّ الأذرعىُّ الشارح ـ رحمه الله ـ

وهذه قاعدة شريفةٌ ، وأصلٌ كبيرٌ من أصول الدين ، ضل فيه طوائف كثيرة من الناس وهذا الذى حكاه الطحاوى ـ رحمه الله ـ هو الحق الذى دلت عليه الأدلة ، من الكتاب والسنة ، لمن تدبرهما ، وشهد به الفطرةُ السليمة التى لم تغير بالشُبُهات

والشكوك والآراء الباطلة .

وقوله : « منه بدا بلا كيفية قولاً » ردٌ على المعتزلة وغيرهم ، فإن المعتزلة تزعم أن القرآن لم يبدُ منه قالوا : وإضافتهُ إليه إضافة تشريف ، كبيت الله ، وناقة الله ، يحرفون الكلام عن مواضعه ، وقولهم باطل ، فإن المضاف إلى الله تعالى : مَعان وأعيانٌ ، فإضافة الأعيان إلى الله للتشريف ، وهي مخلوقة له ، كبيت الله ، بخلاف إضافة المعاني ، كعلم الله ، وقدرته ، وعزته ، وكلامه ، فإن هذا كلَّه من صفاته ، لا يمكن أن يكون شيء من ذلك مخلوقاً .

الكلام صفة كمال ورد على المعتزلة

والوصف بالتكلم من أوصاف الكمال ، وضدُّه من أوصاف النقص قال تعالى : ﴿ **وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً** ﴾ (الأعراف : ١٤٨) .

فكان عُبّاد العجل ـ مع كفرهم ـ أعرفَ بالله من المعتزلة ، فإنهم لم يقولوا لموسى : وربك لا يتكلم أيضاً .

وقد قال تعالى عن العجل أيضاً : ﴿ **أَفَلا يَرَوْنَ أَلاَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلاً وَلا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلا نَفْعًا** ﴾ (طه : ٨٩) .

فعُلم أن نفيَ رجوعِ القول ونفيَ التكلمِ نقصٌ يُستدل به على عدم ألوهية العجل .

وغاية شبهتهم أنهم يقولون : يلزم منه التشبيه والتجسيم . فيقال لهم : إذا قلنا أنه تعالى يتكلمَ كما يليق بجلاله ، انتفت ، ألا ترى أنه تعالى قال : ﴿ **الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم** ﴾ (يس : ٦٥) .

فنحن نؤمن أنها تتكلم ، ولا نعرف كيف تتكلم .

وكذا قوله تعالى : ﴿ **وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ** ﴾ (فصلت : ٢١) .

وإلى هذا أشار الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله : « منه بدا بلا كيفية قولاً » ، أى : ظهر منه ولا ندرى كيفية تكلمه به وأكد هذا المعنى بقوله : « قولاً » أتى بالمصدر المعرف للحقيقة ، كما أكد اللهَ تعالى بالمصدر المثبت النافى للمجاز فى قوله : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ فماذا بعد الحق إلا الضلال ؟

ولقد قال بعضهم لأبى عَمرو بن العلاء ـ أحد القراء السبعة ـ أريد أن تقرأ : وكلَّم اللهَ موسى ، بنصب اسم الله ، ليكون موسىَ هو المتكلم لا اللهُ ، فقال له أبو عمرو : هب أنى قرأت هذه الآية كذا ، فكيف تصنع بقوله تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ ﴾ ؟ فبهت المعتزلى .

وكم فى الكتاب والسنة من دليل على تكلم الله تعالى لأهل الجنة وغيرهم ؟

قال تعالى : ﴿ سَلامٌ قَوْلاً مِن رَّبٍّ رَّحِيمٍ ﴾ (يس : ٥٨) .

وقال سبحانه : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ ﴾ (آل عمران : ٧٧) .

فأهانهم بترك تكليمهم ، والمراد أنه لا يكلمهم تكليمَ تكريم ، وهو الصحيح ، إذ قد أخبر فى الآية الأخرى أنه يقول لهم فى النار : ﴿ اخْسَئُوا فِيهَا وَلا تُكَلِّمُونِ ﴾ (المؤمنون : ١٠٨) .

فلو كان لا يكلم عباده المؤمنين لكانوا فى ذلك هم وأعداؤه سواء ، ولم يكن فى تخصيص أعدائه بأنه لا يكلمهم فائدةٌ أصلاً .

وقال البخارى فى « صحيحه » : باب كلامِ الرب تبارك وتعالى مع أهل الجنة وساق فيه عدة أحاديث .

فأفضلُ نعيم أهل الجنة : رؤية وجهه تبارك وتعالى ، وتكليمه لهم ، فإنكار ذلك : إنكار لروح الجنَة وأعلى نعيمها وأفضله الذى ما طابت لأهلها إلا به .

إبطال استدلالهم بقوله تعالى : (الله خالق كل شىء)

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ والقرآن شىء فيكون داخلاً فى عموم « كل » فيكون مخلوقاً ! ! فمن أعجب العجب وذلك أن أفعال

العباد كلَّها عندهم غيرُ مخلوقة لله تعالى ، وإنما يخلقها العباد جميعاً ، لا يخلقها الله ، فأخرجوها من عموم « كل » وأدخلوا كلام الله فى عمومها ، مع أنه صفةٌ من صفاته ، به تكون الأشياء المخلوقة ، إذا بأمره تكون المخلوقات قال تعالى : ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ ﴾ (الأعراف : ٥٤) .

ففرّق بين الخلق والأمر ، فلو كان الأمر مخلوقاً للزم أن يكون مخلوقاً بأمر آخر والآخرُ بآخر ، إلى ما لا نهاية له ، فيلزم التسلسل ، وهو باطل .

وعموم « كل » في كل موضع بحَسَبه ، ويعرف ذلك بالقرائن ، ألا ترى إلى قوله تعالى : ﴿ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لا يُرَىٰ إِلاَّ مَسَاكِنُهُمْ ﴾ ، ومساكنهم شىء ، ولم تدخل فى عموم كل شىء دمرته الريح ؟ وذلك لأن المراد ندمر كل شىء يقبل التدمير بالريح عادة وما يستحق التدمير .

وكذل قولُه تعالي حكايةً عن بلقيس : ﴿ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ ﴾ ، المراد : من كل شىء يحتاج إليه الملوك ، وهذا القيد يُفهم من قرائن الكلام ، إذ مرادُ الهدهد أنها ملكة كاملةٌ فى أمر الملك .

ولهذا نظائر كثيرة .

والمراد من قوله تعالى : ﴿ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : كل شىء مخلوق ، وكل موجود سوى الله فهو مخلوق ، فدخل فى هذا العموم أفعال العباد حتماً ، ولم يدخل فى العموم الخالق تعالى ، وصفاتُه ليست غيَره ، لأنه سبحانه وتعالى هو الموصوف بصفات الكمال ، وصفاتُه لازمةٌ لذاته المقدسة ، لا يُتصوَّر انفصال صفاته عنه .

وأما استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ فما أفسده من استدلال ! فإن « جعل » إذا كان بمعنى خلق يتعدى إلى مفعول واحد ، كقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ ﴾ وإذا تعدى إلى مفعولين : لم يكن بمعنى خلق . قال تعالى :﴿ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً ﴾ (النحل : ٩١) .

وقال تعالى : ﴿ الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ ﴾ (الحجر : ٩١) .

ونظائره كثيرة .

فكذا قوله تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ (الزخرف : ٣) .

إبطال استدلالهم بقوله تعالى : (إنه لقول رسول كريم)

فإن قيل : قد قال الله تعالى : ﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ (التكوير : ١٩) .

وهذا يدل على أن الرسول أحدثه ، إما جبريل أو محمد . قيل : ذكر الرسول معرِّف أنه مُبلّغ عن مرسله ، لأنه لم يقل أنه قول ملك أو نبى ، فعلم أنه بلغه عمن أرسله به ، لا أنه أنشأه من جهة نفسه .

وأيضاً : فالرسول فى إحدى الآيتين : جبريل ، وفى الأخرى : محمد ، فإضافته إلى كل منهما تُبيِّن أن الإضافة للتبليغ ، إذ لو أحدثه أحدهما ، امتنع أن يحدثه الآخر .

وأيضاً : فقوله : « أمين » دليل على أنه لا يَزيد فى الكلام الذى أرسل بتبليغه ولا ينقص منه ، بل هو أمين على ما أرسل به ، يبلغه عن مرسله .

وأيضاً : فإن الله قد كفّر من جعله قول البشر ، ومحمد ـ ﷺ ـ بشر ، فمن جعله قول محمد ، بمعنى أنه أنشأه ، فقد كفر ، ولا فرق بين أن يقول أنه قول بشر أو جنِّى ، أو مَلَك . والكلام كلام من قاله مبتدئاً ، لا مَن قاله مُبلغا .

إتفاق أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق

وبالجملة : فأهل السُنَّة كُلُّهُمْ ، من أهل المذاهب الأربعة وغيرهم ، من السلف والخلف ، متفقون على أن كلام الله غيرُ مخلوق . ولو تُرك الناسُ على فطرهم السليمة وعقولهم المستقيمة لم يكن بينهم نزاع ، ولكن ألقى الشيطان إلى بعض الناس أغلوطة من أغاليطه فرّق بها بينهم ﴿ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِى الْكِتَابِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾ (البقرة : ١٧٦) .

والذى يدل عليه كلام الطحّاوى ـ رحمه الله ـ : أنه تعالى لم يزل متكلماً إذا شاء كيف شاء ، وأن نوع كلامه قديم . وكذلك ظاهر كلام الإمام أبى حنيفة ـ رحمه الله ـ فى الفقه الأكبر ، فإنه قال : « والقرآن فى المصاحف مكتوب ، وفى القلوب محفوظ ، وعلى الألسن مقروء ، وعلى النبى ـ ﷺ ـ مُنزّل ، ولفظنا بالقرآن مخلوق ، والقرآن غير مخلوق » .

ولا شك أن الرسل الذين خاطبوا الناس وأخبروهم أن الله قَال ونادى وناجى ويقول ، لم يُفهموهم أن هذه مخلوقات منفصلةٌ عنه ، بل الذى أفهموهمْ إياه : أن الله نفسَه هو الذى تكلم ، والكلام قائمٌ به لا بغيره ، وأنه هو الذى تكلم به وقاله : كما قالت عائشة ـ رضى الله عنها ـ فى حديث الإفك : « ولَشأنى فى نفسى أحقرُ من أن يتكلم الله فىّ بوحى يُتلى » ولو كان المراد من ذلك كلِّه خلافَ مفهومه لوجب بيانه ، إذ تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز .

وقد قال النبى ـ ﷺ ـ : **(أعوذ بكلمات الله التامات)** فهل يقول عاقل : إنه ـ ﷺ ـ عاذ بمخلوق ؟ بل هذا كقوله : **(أعوذ برضاك من سخطك ، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك)** كل هذه من صفات الله تعالى .

وحقيقةُ كلام الله تعالى الخارجية : هى ما يسمع منه أو من المبلغ عنه ، فإذا سمعه السامع : علمه وحفظه ، فكلامُ الله مسموع له محفوظ معلوم فإذا قاله السامع فهو مقروء له متلو ، فإن كتبه فهو مكتوب له مرسوم ، وهو حقيقةٌ فى هذه الوجوه ، لا يصح نفيه ، والمجاز يصح نفيه ، فلا يجوز أن يقال : ليس فى المصاحف كلام الله ، ولا : ما قرأ القارئ كلام الله ، وقد قال تعالى : ﴿ **وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾ (التوبة : ٦) .

وهو لا يسمع كلام الله من الله ، وإنما يسمعه من مُبلغه عن الله ، وهذه الآية تدل على فساد قول من قال : إن المسموع عبارة عن كلام الله وليس هو كلام الله ، فإنه تعالى قال : ﴿ **حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ** ﴾ ، ولم يقل : حتى يسمع ما هو عبارة عن كلام الله ، أو حكايةُ كلام الله ، وليس فيها كلامُ الله ، فقد خالف الكتاب والسنةَ وسلفَ الأمة ، وكفى بذلكَ ضلالاً .

وكلام الطحاوى يردّ قول من قال : إنه معنى واحد لا يتصور سماعه منه ، وإن المسموع المنزل المقروء والمكتوب ليس كلام الله وإنما هو عبارة عنه ، فإن الطحاوى ـ رحمه الله ـ يقول : « كلام الله منه بدا » وكذلك قال غيره من السلف ، «ويقولون : منه بدا ، وإليه يعود » وإنما قالوا : منه بدا ، لأن الجهمية من المعتزلة وغيرهم كانوا يقولون : إنه خلق الكلام فى محل ، فبدا الكلام من ذلك المحل ، فقال السلف : منه بدا ، أى : هو المتكلم به ، فمنه بدا ، لا بعض المخلوقات ، كما قال تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الزمر : ١) .

وقال سبحانه : ﴿ وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي ﴾ (السجدة : ١٣) .

ومعنى قوله : « وإليه يعود » أى : يُرفع من الصدور والمصاحف ، فلا يبقى فى الصدور منه آيةٌ ولا فى المصاحف ، كما جاءَ ذلكَ فى عدة آثار .

وقوله : « بلا كيفية » أى : لا يُعرف تكلمه به قولاً ليس بالمجاز ، وأنزله على رسوله وحياً ، أى : أنزلهُ إليه على لسان المَلَكَ ، فسمعه الملك جبريلُ من الله ، وسمعه الرسول محمدٌ ـ ﷺ ـ من الملك وقرأه على الناس .

قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء : ١٩٣ ـ ١٩٤ ـ ١٩٥) .

وقوله : « وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة ليس بمخلوق ككلام البرية » رد على المعتزلة وغيرهم ، وفى قوله « بالحقيقة » رد على من قال أنه معنى واحد قائم بذات الله لم يُسمع منه وإنما هو الكلام النفسانى ، لأنه لا يقال لمن قام به الكلام النفسانى ولم يتكلم به : إن هذا كلام حقيقة ، وإلا للزم أن يكون الأخرس متكلماً ولزم أن لا يكون الذى فى المصحف عند الإطلاق هو القرآن ولا كلامَ الله ، ولكن عبارة عنه ليست هى كلام الله ، كما لو أشار أخرسُ إلى شخص بإشارة فهم بها مقصوده ، فكتب ذلك الشخص عبارته عن المعنى الذى أوحاه إليه ذلك الأخرس ، فالمكتوب هو عبارة ذلك الشخص عن ذلك المعنى ، وهذا المثلُ مطابقٌ غاية المطابقة لما يقولونه ، وإن كان الله تعالى لا يسميه أحد « أخرس » لكن عندهم أن الملك فهم منه معنى قائماً بنفسه ، لم يسمع منه حرفاً ولا صوتاً ، بل فهم معنى مجرداً ، ثم عبر عنه ، فهو الذى أحدث نظم القرآن وتأليفَه العربى .

القول إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس

ويرد قول من قال بأن الكلام هو المعنى القائم بالنفس : قوله ـ ﷺ ـ : (إن صلاتنا هذه لا يصلح فيها شيء من كلام الناس) وقال : (إن الله يحدث من أمره ما يشاء ، وإن مما أحدث : أن لا تكلموا فى الصلاة) فقد اتفق العلماء على أن المصلى إذا تكلم فى الصلاة عامداً لغير مصلحتها بطلت صلاته .

واتفقوا كلهم على أن ما يقوم بالقلب ـ من تصديق بأمور دنيوية وطلب ـ لا يُبطل الصلاة ، وإنما يبطلها التكلم بذلك ، فعلم اتفاق المسلمين على أن هذا ليس بكلام .

حكم قائل ذلك

ولا شك أن من قال : إن كلام الله معنى واحد قائم بنفسه تعالى ، وإن المتلو المحفوظ المكتوبَ المسموعَ من القارىء حكايةُ كلام الله ، وهو مخلوق : فقد قال بخلق القرآن وهو لا يشعر ، فإن الله يقول : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ﴾ (الإسراء : ٨٨) .

أفتَراه سبحانه يشير إلى ما فى نفسه أو إلى المتلو المسموع ؟

لا شك أن الإشارة إنما هى إلى هذا المتلو المسموع ، إذ ما فى ذات الله غيرُ مشار إليه ولا متلوٍّ ولا مسموع .

وقوله : « لا يأتون بمثله » أفتراه سبحانه يقول : لا يأتون بمثل ما فى نفسى مما لم يسمعوه ولم يعرفوه ؟ وما فى نفس الله ـ عز وجل ـ لا سبيل إلى الوصول إليه ؟

وقوله : « ولا يُشبه قول البشر » يعنى : أنه أشرف وأفصح وأصدق . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا ﴾ (النساء : ٨٧) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ (يونس : ٣٨) .

فلما عَجزوا ـ وهم فصحاء العرب ، مع شدة العداوة ـ عن الإتيان بسورة مثله : تبيَّن صدقُ الرسول ـ ﷺ ـ أنه من عند الله ، وإعجازُه من جهة نظمه ومعناه ، لا من جهة أحدهما فقط .

تنزيه الله تعالى عن الوصف بمعنى من معانى البشر

• **قال الطحاوى : (ومن وصفَ اللهَ بمعنى من معانى البَشَر ، فقد كفر . مَنْ أبصرَ هذا اعتبرَ ، وعن مثل قول الكفار انزجرَ ، عَلم أنه بصفتهِ ليسَ كالبشَر)**

لما ذكر الشيخ فيما تقدم « أن القرآن كلامُ الله حقيقة ، منه بدا » ، نبه بعد ذلك على أنه تعالى بصفاته ليس كالبشر ، نفياً للتشبيه عقيبَ الإثبات ، يعنى أن الله تعالى وإن وُصف بأنه متكلم ، لكن لا يوصف بمعنى من معانى البشر التى يكون الإنسان بها متكلماً ، فإن الله ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

رد الإمام الطحاوى على منكرى ثبوت الرؤية فى الجنة

* قال : (والرؤيةُ حقٌّ لأهل الجنة ، بغير إحاطة ولا كيفية ، كما نطق به كتابُ ربّنا : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴾ وتفسيرُه علَى ما أراد اللهُ تعالى وعلمَه ، وكلُّ ما جاء فى ذلك من الحديث الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ فهو كمَا قال : ومعناه على ما أراد ، لا ندخلُ فى ذلك متأولين بآرائنا ، ولا متوهمين بأهوائنا ، فإنه ما سَلم فى دينه إلا مَن سَلّم لله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولرسوله ـ ﷺ ـ ، وَرَدَّ عِلْم مَا اشتبهَ عليه إلَى عالمه) .

وهذا رد من الطحاوى على من خالَفَ فى الرؤية ، رؤية المؤمنين ـ إذا دخلوا الجنةَ ـ الربَّ سبحانه ، إذ أنكر ذلك الجهَمية والمعتزلَة ومن وافقهُم ، وقولُهم باطل مردودٌ بالكتاب والسنة وقد قال بثُبوت الرؤية : الصحابة والتابعون ، وأئمةُ الإسلام المعرفون بالإمامة فى الدين ، وأهَل الحَديث ، وسائرُ طوائف أهلِ الكلام المنسوبونَ إلى السنة والجماعة .

إيـراد أدلــــة

وقد ذكر الشيخ ـ رحمه الله ـ من الأدلة قوله تعالى : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴾ (القيامة : ٢٢) .

وهى من أظهر الأدلة ، وأما من أبَى إلا تحريفها بما يسميه تأويلاً ، فتأويلُ

نصوص المعاد والجنة والنار والحساب أسهلُ من تأويلها على أرباب التأويل ، ولا يشاء مُبطَل أن يتأول النصوص ويحرفَها عن مواضعِها إلا وجد إلى ذلك من السبيل ما وجدهُ متأولُ هذه النصُوص .

وهذا الذى أفسدَ الدنيا والدين ، وهكذا فعلت اليهودُ والنصارى فى نصوص التوراة والإنجيل ، وحذرنا اللهُ أن نفعل مثلَهم ، وأبَى المبطلون إلا سلوكَ سبيلهم .

وإضافةُ النظر إلى الوجه ـ الذى هو محله ـ فى هذه الآية ، وتعديتُه بأداة « إلى » الصريحة فى نظرَ العين ، وَإخلاءُ الكلام من قرينه تدل على خلافه ، حقيقةٌ موضوعة فَى أن الله أراد بذلك نظرَ العين التى فى الوجه إلى الربَ جلَّ جلالُه ، فإن « النظر » له عدةُ استعمالات ، بحسب صلاته ، وتعديَه بنفسه ، فإن عُدِّىَ بنفسه فمعناه : التوقف والانتظار ، كقوله : ﴿ انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُورِكُمْ ﴾ ، وإن عدى بـ « فى » فمعناه : التفكر والاعتبار ، كقوله تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ وإن عدى بـ « إلى » فمعناه : المعاينة بالأبصار ، كقوله : ﴿انظُرُوا إِلَىٰ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ ﴾ فكيف إذا أضيف إلى الوجه الذى هو محل البصر ؟

وقال تعالى : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ (يونس : ٢٦) .

فالحسنى : الجنة ، والزيادة : هى النظر إلى وجهه الكريم ، فَسّرها بذلك رسولُ الله ـ ﷺ ـ ، كما روى مسلمٌ فى « صحيحه » عن صهيب قال : قرأ رسول الله ـ ﷺ ـ : ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ ثم قال : **(إذا دخل أهل الجنةٌ ، وأهلِ النارٌ النارِ : نادى منادُ : يا أهل الجنة ، إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه . فيقولون : ما هو ؟ ألم يثقل موازيننا ويبيض وجوهنا ويدخلنا الجنة ويجرنا من النار ؟ فيكشَف الحجاب ، فينظرون إليه ، فما أعطاهم شيئاْ أحبَّ إليهم من النظر إليه ، وهى الزيادة)** .

ورواه غيره بأسانيدَ متعددة وألفاظ أخَر ، وكذلك فسَرها الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ روى ابن جرير الطبرّى ذلكً عن جماعة منهم : أبو بكر الصديقُ ـ رضى الله عنه ـ وحذيفةُ ، وأبو موسى الأشعرى ، وابن عباس ـ رضى الله عنهم ـ

وقال تعالى : ﴿ كَلاَّ إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ ﴾ (المطففين : ١٥) .

وقد احتج الشافعي - رحمه الله - وغيره من الأئمة بهذه الآية على الرؤية لأهل الجنة ، ذكر ذلك الطبرى وغيرُه عن المزنى عن الشافعى قال : لما أن حجب هؤلاء فى السخط ، كان فى هذا دليل على أن أولياءه يرونه فى الرضاء .

استدلال المعتزلة دليل عليهم

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ ، وبقوله تعالى : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ فالآيتان دليل عليهم .

أما الآية الأولى : فالاستدلال منها على ثبوت الرؤية من وجوه :

أحدها : أنه لا يُظن بكليم الله ورسوله الكريم وأعلم الناس بربه فى وقته أن يسأل ما لا يجوز عليه .

الثانى : أن الله لم ينكر عليه سؤاله ، ولما سأل نوح ربه نجاة ابنه ، أنكر سؤاله وقال : ﴿ إِنِّي أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ .

الثالث : أنه تعالى قال : ﴿ لَن تَرَانِي ﴾ ، ولم يقل : إنى لا أرى ، أو لا يجوز رؤيتى ، والفرق بين الجوابين ظاهر ، وموسى لا تحتمل قواه رؤيتهَ فى هذه الدار ، لضعف قوى البشر فيها .

الرابع : قول الله تعالى : ﴿ وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِى ﴾ (الأعراف : ١٤٣) .

فأعلمه أن الجبل مع قوته وصلابته لا يثبتُ للتجلى فى هذه الدار ، فكيف بالبشر الذى خُلق من ضعف ؟

الخامس : قوله تعالى : ﴿ فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا ﴾ (الأعراف : ١٤٣) .

فإذا جاز أن يتجلى للجبل ، الذى هو جماد ، فكيف يمتنع أن يتجلى لرسوله وأوليائه فى دار كرامته ؟ ولكن الله تعالى أعلم موسى أن الجبل إذا لم يثبت لرؤيته فى هذه الدار فالبشرُ أضعف .

السادس: أن الله كلم موسى وناداه وناجاه ، ومن جاز عليه التكلم والتكليم وأن يسمع مخاطبَهُ كلامه بغير واسطة فرؤيتُه أولى بالجواز ، ولهذا لا يتم إنكار رؤيته إلا بإنكار كلامه .

معنى (لن) وكونها لا تفيد تأبيد النفى

وأما دعوى المعتزلة تأبيدَ النفى بـ « لن » ، وأن ذلك يدل على نفى الرؤية فى الآخرة ، ففاسد ، إنها لو قيدت بالتأبيد لا يدل على دوام النفى فى الآخرة ، فكيف إذا أطلقت ؟

قال تعالى : ﴿ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا ﴾ (البقرة : ٩٥) .

مع قوله : ﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ ﴾ (الزخرف : ٧٧) .

ولأنها لو كانت للتأبيد المطلق لما جاز تحديد الفعل بعدها ، وقد جاء ذلك .

قال تعالى : ﴿ فَلَنْ أَبْرَحَ الأَرْضَ حَتَّىٰ يَأْذَنَ لِي أَبِي ﴾ (يوسف : ٨٠) .

فثبت أن « لن » لا تقتضى النفىَ المؤبد .

قال الشيخ جمالُ الدين بنُ مالكٍ ـ رحمه الله ـ :

ومن رأى النفى بلن مؤبدا فقوله اردد وسواه فاعضدا

وأما الآية الثانية : فالاستدلال بها على الرؤية من وجه حسن لطيف ، وهو : أن الله تعالى إنما ذكرها فى سياق التمدح ، ومعلوم أن المدَح إنما يكون بالصفات الثبوتية ، وأما العدَمُ المحضُ فليس بكمال ، فلا يمدح به ، وإنما يمدح الرب تعالى بالنفى إذا تضمن أمراً وجودياً ، كمدحه بنفى السنة والنوم ، المتضمن كمال القيّومية ، ونفى الموت المتضمن كمالَ الحياَة ، ونفى اللغوب والإعياء ، المتضمن كمال القدرة ، ونفى الشريك والصاحبة ، والولد والظَهير ، المتضمن كمالَ الربوبية والألوهية وقهره ونفى الظلم ، المتضمن كمال عدله وعلمه وغناه ونفى النسيان وعزوب شَىء من علمَه ، المتضمن كمالَ علمه وإحاَطته ، ونفىَ المثْلِ ، المتضمن لكمال ذاته وصفاته .

ولهذا لم يُمتدَح بعدم محض لم يتضمن أمراً ثبوتياً ، فإن المعدوم يشارك الموصوف فى ذلك العدم ، ولا يوصف الكامل بأمر يشترك هو والمعدومُ فيه ، فإن المعنى : أنه يرى ولا يدرك ولا يحاط به .

معنى الإدراك

فقوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ : يدل على كمال عظمته ، وأنه أكبر من كل شيء ، وأنه لكمال عظمته لا يدرك بحيث يحاط به ، فإن الإدراك هو الإحاطةُ بالشيء ، وهو قدر زائد على الرؤية ، فالرب تعالى يرى ولا يدرك ، كما يُعلم ولا يحاط به علماً ، وهو الذى فهمه الصحابة والأئمة من هذه الآية ، بل هذه الشمس المخلوقة لا يتمكن رائيها من إدراكها على ما هى عليه .

وأما الأحاديث عن النبى ـ ﷺ ـ ، الدالة على الرؤية فمتواترة . منها : حديث أبى هريرة : أن ناساً قالوا : يا رسول الله : هل نرى ربنا يوم القيامة ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « هل تضارون فى رؤية القمر ليلة البدر ؟ قالوا : لا يا رسول الله قال : هل تضارون فى الشمس ليس دونها سحاب ؟ قالوا : لا قال : فإنكم ترونه كذلك » أخرجاه فى « الصحيحين » .

وحديث أبى سعيد الخدرى أيضاً فى « الصحيحين » نظيره .

وحديث جرير بن عبد الله البجلى قال : « كنا جلوساً مع النبى ـ ﷺ ـ فنظر إلى القمر ليلة أربعَ عشَرة ، فقال : إنكم سترون ربكم عِيانا كما ترون هذا ، لا تضامون فى رؤيته » أخرجاه فى الصحيحين .

وليس تشبيه رؤية الله تعالى برؤية الشمس والقمر تشبيهاً لله ، بل هو تشبيه الرؤية بالرؤية ، لا تشبيه المرئى بالمرئى .

وقول الطحاوى : « والرؤية حق لأهل الجنة » تخصيصُ أهل الجنة بالذكر ، فيفهم منه نفى الرؤية عن غيرهم .

الرؤية فى المحشر حاصلة

وكذلك يرونه فى المحشر قبل دخولهم الجنة ، كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن رسول الله ـ ﷺ ـ ، ويدل عليه قوله تعالى : ﴿ تَحِيَّتُهُمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سَلامٌ ﴾ (الأحزاب : ٤٤) .

إمكان وقوع الرؤية فى الدنيا ، وترجيح نفى وقوعها

واتفقت الأمة على أنه لا يراه أحد فى الدنيا بعينه ، ولم يتنازعوا فى ذلك ، إلا فى نبينا ـ ﷺ ـ خاصة : منهم مَن نفَى رؤيتَه بالعين ، ومنهم من أثبتها له ـ ﷺ ـ وحكى القاضى عياضٌ فى كتابه « الشفا » اختلاف الصحابة ومَن بعدهم فى رؤيته ـ ﷺ ـ وإنكار عائشةَ ـ رضى الله عنها ـ أن يكون النبى ـ ﷺ ـ رأى ربَّه بعين رأسه وأنها قالت لمسروق حين سألها : هل رأى محمد ربه ؟ فقالت : لقد وقف شعرى مما قلت . ثم قالت : من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذَب ثم قال : وقال جماعة بقول عائشة ـ رضى الله عنها ـ وهو المشهور عن ابن مسعود وأبى هريرة فى قول عنه : وقال بإنكار هذا وامتناع رؤيته فى الدنيا جماعةُ من المحدثين والفقهاء والمتكلمين ، وعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ : أنه ـ ﷺ ـ رآه بعينه وروى عطاء عنه : أنه رآه بقلبه .

قال عياض : القول بأنه رآه بعينه ليس فيه قاطعٌ ولا نص ، والمعوَّل فيه على آيتى النجم ، والتنازع فيهما مأثور ، والاحتمال لهما ممكن .

وهذا القول الذى قاله القاضى عياض ـ رحمه الله ـ هو الحق ، فإن الرؤية فى الدنيا ممكنة ، إذا لو لم تكن ممكنة لما سألها موسى ـ عليه السلام ـ لكن لم يردْ نص بأنه ـ ﷺ ـ رأى ربه بعين رأسه ، بل ورد ما يدل على نفى الرؤية ، وهو ما رواه مسلم فى صحيحه عن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ قال : سألت رسول الله ـ ﷺ ـ : « هل رأيتَ ربكَ ؟ فقال : نورٌ ، أنّى أراه » ؟ وفى رواية : « رأيتُ نوراً » .

وقد روى مسلم أيضاً عن أبى موسى الأشعرى ـ رضى الله عنه ـ قال : « قام فينا رسول الله ـ ﷺ ـ بخمس كلمات ، فقال : إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام

يخفض القسطَ ويرفعهُ ، يُرفع إليه عملُ الليل قبل عمل النهار ، وعملُ النهار قبل عمل الليل ، حجابُه النور » وفى رواية : « لو كَشَفه لأحرقتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه » فيكون ـ والله أعلم ـ قوله لأبى ذر : « رأيت نوراً » : أنه رأى الحجاب . ومعنى قوله : « نور أنَّى أراه » ؟ النور الذى هو الحجاب يمنع من رؤيته ، فأنى أراه ؟ أى : فكيف أراه والنور حجاب بينى وبينه يمنعنى من رؤيته ؟

فهذا صريح فى نفى رؤية النبى ـ ﷺ ـ ربَّه ، والله أعلم .

• وقول الطحاوى : (بغير إحاطة ولا كيفية)

هـذا لكمال عظمته وبهائه سبحانه وتعالى . قال تعالى : ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ (طه : ١١٠) .

وقـول الطحـاوى : « فـإنه مـا سلم فى دينه إلا من سلّم لله ـ عـز وجل ـ ولـرسوله ـ ﷺ ـ وردَ علمَ ما اشتبه عليه إلي عالمه » أى : سلم لنصوص الكتاب والسنة ، ولم يعترض عليها بالشكوك والشُّبه والتأويلات الفاسدة ، أو بقوله : العقل يشهد بضد ما دل عليه النقل ، والعقل أصلُ النقل ! ! فإذا عارضه قدّمنا العقل ! وهذا لا يكون قطّ ، لكن إذا جاء ما يوهم مثلَ ذلك : فإن كان النقل صحيحاً فذلك الذى يدعى أنه معقول إنما هو مجهول ، ولو حقق النظر لظهر ذلك وإن كان النقل غيرَ صحيح فلا يَصلُح للمعارضة ، فلا يُتصور أن يتعارض عقل صريح ، ونقلٌ صحيح أبداً ، ويُعارَض كلامُ من يقول ذلك بنظره ، فيقال : إذا تعارض العقل والنقل وجَبَ تقديمُ النقل ، لأن الجمع بين المدلولين : جمعٌ بين النقيضين ، وتقديمُ العقل ممتنع ، لأن العقل دلّ على صحة السمع ووجوب قُبول ما أخبر به الرسول ـ ﷺ ـ فلو أبطلنا النقل لكنا قد أبطلنا دلالة العقل ، ولَو أبطلنا دلالة العقل لم يصلح أن يكون معارضاً للنقل ، لأن ماليس بدليل لا يصلح لمعارضة شىء من الأشياء ، فكان تقديمُ العقل موجباً عدم تقديمه ، فلا يجوز تقديمُه وهذا بَيِّن واضح ، فإن العقل هو الذى دل على صدق السمع وصحته ، وأن خبره مطابق لمخبره ، فإن جاز أن تكون الدلالة باطلة لبطلان النقل : لزم أن لا يكون النقل دليلاً صحيحاً ، وإذا لم يكن دليلاً صحيحاً : لم يجز أن يُتبع بحال ، فضلاً عن أن يُقدّم ، فصار تقديم العقل على النقل قدحاً فى العقل .

الواجب كمال التسليم، وتقديم النقل

فالواجب : كمال التسليم للرسول ـ ﷺ ـ والانقيادُ لأمره ، وتلقّى خبره بالقبول والتصديق ، دون أن نعارضه بخيال باطل نسميه معقولاً ، أو نحمله شبهة أو شكاً أو نقدمَ عليه آراء الرجالَ ، فنوحّدهُ بالتحكيم والتسليم والانقياد والإذعان ، كما نوحّد المرسِل بالعبادة والخضوع والذل والإنابة والتوكل .

فهما توحيدان ، لا نجاة للعبد من عذاب الله إلا بهما : توحيدُ المرسل تعالى ، وتوحيدُ متابعة الرسول ـ ﷺ ـ .

قال الإمام أحمد بنُ حنبلٍ : حدثنا أنس بن عياض ، حدثنا أبو حازم :

لقد جلست أنا وأخى مجلساً ما أحب أن لى به حُمْرَ النَّعم ، أقبلت أنا وأخى ، وإذا مشيخةٌ من أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ جلوسٌ عند باب من أبوابه ، فكرهْنا أن نفرق بينهم ، فجلسنا حجرة ، إذ ذكروا آية من القرآن ، فتماروَا فيها ، حَتى ارتفعت أصواتهم ، فخرج رسول ـ ﷺ ـ مغضباً قد احمر وجهه ، يرميهم بالتراب ويقول : « مهلاً يا قوم ، بهذا أهلكت الأمم من قبلكم ، فاختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتب بعضها ببعض . إن القرآن لم ينزل يكذّب بعضُه بعضاً ، بل يصدق بعضه بعضاً ، فما عرَفتم منه فاعملوا به ، وما جهلتم منه فردّوه إلى عالمه »

قال أحمد محمد شاكر : هذا الحديث هو الحديث رقم ٦٧٠٢ فى « مسند الإمام أحمد » ، بتحقيقنا ، وهو حديث صحيح ، ومعناه ثابت فى المسند أيضاً ، مختصراً برقم ٦٦٦٨ ، ورواه البخارى فى كتاب « خلق أفعال العباد » ص ٧٨ ، وروى مسلم فى « صحيحه » ٢ / ٣٠٤ نحو معناه .

تحريم القول على الله بغير علم

• قال العلامة الأذرعى الشارح :

« ولا شك أن الله قد حرم القول عليه بغير علم » .

قال تعالى : ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ

وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ ﴾ (الأعراف : ٣٣) .

وقال تعالى : ﴿ وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ﴾ (الإسراء : ٣٦) .

فعلى العبد أن يجعل ما بعث الله به رسله وأنزل به كتبه هو الحقَّ الذى يجب اتباعه ، فيصدق بأنه حق وصدق ، وما سواه من كلام سائر الناس يعرض عليه ، فإن وافقه فهو حق ، وإن خالفه فهو باطل ، وإن لم يعلم : هل خالفه أو وافقه ، يكن ذلك الكلام مجملاً لا يعرف مراد صاحبه ، أو قد عرَف مراده لكن لم يعرف : هل جاء رسول بتصديقه أو بتكذيبه : فإنه يمسك عنه ، ولا يتكلم إلا بعلم

والعلم ما قام عليه الدليل ، والنافعُ منه ما جاء به الرسول ، وقد يكون علمٌ من غير الرسول ، لكن فى الأمور الدنيوية ، مثل الطب والحساب ، وأما الأمور الإلهية فتؤخذ عن الرسول لا غير .

لا توحيد خالصاً فى غيبة التسليم التام

• **قال الطحاوى : (*ولا تثبتُ قدمُ الإسلام إلا على ظهر التسليم والاستسلام*) .**

وهذا من باب الاستعارة ، إذ القدم الحسى لا تثبتُ إلا على ظهر شىء ، أى : لا يثبت إسلامُ من لم يسلّم لنصوص الوحيين ، وينقدْ إليها ، ولا يعترضُ عليها ، ولا يعارضها برأيه ومعقوله وقياسه .

روى البخارى عن الإمام محمد بن شهاب الزهرى ـ رحمه الله ـ أنه قال : من الله الرسالة ، ومن الرسول البلاغُ ، وعلينا التسليم .

• **قال : (*فمن رامَ علمَ ما حُظر عنه علمه ، ولم يَقنعْ بالتسليم فهمُه ، حَجَبه مرامُه عن خالص التوحيد ، وصافى المعرفة وصحيح الإيمان*) .**

وهذا تقريرٌ للكلام الأول ، وزيادةُ تحذيرٍ أن يُتكلم فى أصول الدين ـ بل وفى غيرها ـ بغير علم .

قال تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ

مَّرِيدٍ ﴾ (الحج : ٣) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾ (القصص : ٥٠) .

وعن أبي أمامة الباهلي ـ رضي الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « ما ضل قوم بعد هُدىً كانوا عليه إلا أوتوا الجدل ـ ثم تلا : ﴿ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً ﴾ رواه الترمذي وقال : حديث حسن .

الطرق الكلامية وتيه أصحابها

• قال : ***(فيتذبذب بين الكفر والإيمان ، والتصديق والتكذيب ، والإقرار والإنكار ، مُوَسْوَساً تائهاً شاكاً ، لا مؤمناً مصدقاً ولا جاحداً مكذباً) .***

يتذبذب : يضطرب ويتردد .

وهذه الحالُ التي وصفها الشيخ ـ رحمه الله ـ حالُ كلٍّ من عَدَل عن الكتاب والسنة إلى علم الكلام المذموم ، أو أراد أن يجمع بينه وبين الكتاب والسنة وعند التعارض يتأوَّل النصّ ويردّه إلى الرأي والآراء المختلفة ، فيؤولُ أمرُه إلى الحَيْرة والضلال والشك ، كما قال ابن رشد الحفيد ـ وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم ـ في كتابه « تهافت التهافت » : ومن ذا الذي قال في الإلهيات شيئاً يعتدّ به ؟

وكذلك الآمدي ـ أفضلُ أهلِ زمانه ـ واقفٌ في المسائل الكبار ، حائر .

وكذلك الغزالي ـ رحمه الله ـ : انتهى آخر أمره إلى الوقف والحَيْرة في المسائل الكلامية ، ثم أعرض عن تلك الطُرُق وأقبل علىَ أحاديثِ الرسول ـ ﷺ ـ فمات و « صحيحُ البخاري » على صدره .

وكذلك أبو عبد الله محمدُ بنُ عمرَ الرازي : قال : لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهجَ الفلسفية ، فما رأيتُها تشفي عليلاً ، ولا تروي غليلاً ، ورأيت أقربَ الطرق : طريقة القرآن ، اقرأ في الإثبات : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ .

﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ﴾ واقرأ فى النفى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ . ﴿ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ . ثم قال : ومن جرب مثل تجربتى ، عرف مثل معرفتى .

وكذلك الشيخ محمدُ بنُ عبد الكريم الشهرستانى ، لم يجد عند الفلاسفة والمتكلمين إلا الحَيْرَة والندم ، فقال :

لَعَمرى لقد طفتُ المعاهدَ كلَّها ... وسيَّرت طَرفى بين تلك المعالمِ

فلم أرَ إلا واضعاً كفَّ حائر ... على ذَقَنٍ ، أو قارعاً سنَّ نادمِ

وقال أبو المعالى الجوينى : لقد خضتُ البحرَ الخضَم ، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم ، ودخلت فى الذى نهونى عنه ، والآنَ فإن لم يتداركنى ربى برحمته فالويلُ لابن الجوينى ، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمى وعجائزِ نيسابور .

والدواء النافعُ لمثل هذا المرضِ ما كان من طبيب القلوب ـ صلواتُ الله وسلامهُ عليه ـ يقوله ـ إذا قام من الليل يفتتحَ الصلاة ـ :

(اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل ، فاطر السموات والأرض ، عالمّ الغيب والشهادة ، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ،اهد نى لما اختلف فيه من الحق بإذنك ، إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم) . خرجه مسلم .

الرد على المعتزلة فى تأويلهم الفاسد فى الرؤية

*** قال : (ولا يصحُّ الإيمانِ بالرؤية لأهل دار السلام لمن اعتبَرها منهم بوهم ، أو تأوَّلها بفّهم ، إذا كان تأويلِ الرؤيّة ــ وتأويلِ كلِّ معنى يضافِ إلى الرؤيّة ــ بتركُ التأويلُ ، ولزومُ التسليمٌ ، وعليه دينِ المسلمين ، ومن لم يتوقَّ النفيّ والتشبيهَ ، زلَّ ولّم يصّب التنزيه)** .

ويشير الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله هذا إلى الرد على المعتزلة ومن يقول بقولهم فى نفى الرؤية ، وعلى من يُشبه الله بشىء من مخلوقاته ، فإن النبى ـ ﷺ ـ قال : **(ترون ربكم كما ترون القمر ليلة البدر)** ، فأدخل « كاف التشبيه » على « ما » المصدرية أو الموصولة بـ « ترون » التى تتأول مع صلتها إلى المصدر الذى هو «الرؤية» ، فيكون التشبيهُ فى الرؤية لا فى المرئى ، وهذا بيّن واضح فى أن المراد إثباتُ الرؤية وتحقيقُها ، ودفعُ الاحتمالات عنها ، وماذا بعد هذا البيان وهذا

الإيضاح ؟ فإذا سلط التأويل على مثل هذا النص : كيف يُستدل بنص من النصوص ؟ وهل يحتمل هذا النص أن يكون معناه : أنكم تعلمون ربكم كما تعلمون القمر ؟

ويُسْتَشهد لهذا التأويل الفاسد بقوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ** ﴾ ونحو ذلك مما استعمل فيه « رأى » التى هى من أفعال القلوب ، ولا شك أن « ترى » تارة تكون بصرية ، وتارة تكون قلبية ، وتارة تكون من رؤيا الحُلْم ، وغيرَ ذلك ، ولكن ما يخلو الكلام من قرينة تخلّص أصل معانيه من الباقى ، وإلا لو أخلى المتكلم كلامه من القرينة المخلصة لأحد المعانى لكان مجملاً ملغزاً ، لا مبيناً ولا موضحاً . وأىُّ قرينة فوق قوله ـ ﷺ ـ : « **ترون ربكم كما ترون الشمس فى الظهيرة ليس دونها سحاب** » ؟ .

فإن قالوا : ألجأنا إلى هذا التأويل حكمُ العقل بأن رؤيته تعالى محالٌ لا يتُصور إمكانُها !

فالجواب : أن هذه دعوى منكم ، خالفكم فيها أكثرُ العقلاء ، وليس فى العقل ما يحيلها ، بل لو عُرض على العقل موجود قائم بنفسه لا يمكن رؤيته لحكم بأن هذا محال .

وقوله : « لمن اعتبرها منهم بوهم » : أى : توهم أن الله تعالى يرى على صفة كذا ، فيتوهم تشبيهاً ، ثم بعد هذا التوهم ـ إن أثبت ما توهمه من الوصف ـ فهو مشبّه ، وإنْ نفى الرؤية من أصلها لأجل ذلك التوهم فهو جاحد معطّل ، بل الواجب دفع ذلك الوهم وحده ، ولا يعمم بنفيه الحق والباطل ، فينفيهما رداً على من أثبت الباطل ، بل الواجب ردُّ الباطلِ وإثبات الحق .

وإلى هذا المعنى أشار الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله : « ومن لم يتوقَّ النفىَ والتشبيه : زلّ ولم يُصب التنزيه » ، فإن هؤلاء المعتزلة يزعمون أنهم ينزهون الله بهذا النفى ! وهل يكون التنزيه بنفى صفة الكمال ؟ فإن نفى الرؤية ليس بصفة كمال ، إذ المعدوم لا يرى ، وإنما الكمال فى إثبات الرؤية ونفى إدراك الرائى له إدراكَ إحاطة ، كما فى العلم ، فإن نفى العلم به ليس بكمال ، وإنما الكمال فى

إثبات العلم ونفى الإحاطة به علماً ، فهو سبحانه لا يُحاط به رؤية ، كما لا يُحاط به علماً .

وقوله : « أو تأولها بفهم » : أى : ادعى أنه فهم لها تأويلاً يخالف ظاهرَها ، وما يفهمه كل عربى من معناها ، فإنه قد صار اصطلاح المتأخرين فى معنى التأويل : أنه صرفُ اللفظ عن ظاهره ، وبهذا تسلط المحرفون على النصوص ، فسمَّوا التحريف تأويلاً ، تزييناً له وزخرفةً ليُقبلَ ، وقد ذم الله الذين زخرفوا الباطل ، فقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ﴾ (الأنعام : ١١٢) .

والعبرة للمعانى لا للألفاظ ، فكم من باطل قد أقيم عليه دليل مزخرف عورض به دليل الحق .

وليس مراد الطحاوى تركَ كلِّ ما يسمى تأويلاً ، وإنما مرادُه تركُ التأويلات الفاسدة المبتدعة ، فإن التأويل فى كتاب الله وسنة رسوله : هو الحقيقةُ التى يؤول إليها الكلام ، فتأويل الخبر : هو عين المخبَر به ، وتأويل الأمر : نفس الفعل المأمور به ، كما قالت عائشة ــ رضى الله عنها ــ « كان رسول الله ــ ﷺ ــ يقول فى ركوعه : سبحانك اللهم ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى ، يتأول القرآن » .

وقال تعالى : ﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ (الأعراف : ٥٣) .

ومنه تأويل الرؤيا ، وتأويل العمل ، كقوله تعالى : ﴿ هَذَا تَأْوِيلُ رُءْيَايَ مِن قَبْلُ ﴾ (يوسف : ١٠٠) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ ﴾ (يوسف : ٦) .

فمن ينكر وقوع مثل هذا التأويل ؟

وأما ما كان خبراً ، كالإخبار عن الله واليوم الآخر ، فهذا قد لا يُعلم تأويله ، الذى هو حقيقته ، فإن المخبَر إن لم يكن قد تصور المخبَر به ، أو لم يعرفه قبل ذلك ، لم يعرف حقيقته ، التى هى تأويلُه ، بمجرد الإخبار ، وهذا هو التأويلُ

الذى لا يعلمه إلا الله ، لكن لا يلزم من نفى العلم بالتأويل نفىُ العلم بالمعنى الذى قصد المخاطب إفهام المخاطب إياه ، فما فى القرآن آية إلا وقد أمر الله بتدبرها ، وما أنزل آية إلا وهو يحب أن يعلم ما عنى بها ، وإن كان من تأويله ما لا يعلمه إلا الله ، فهذا هو معنى التأويل فى الكتاب والسنة وكلام السلف ، وسواء كان هذا التأويل موافقاً للظاهر أو مخالفاً له .

ولكن التأويل فى كلام المتأخرين من الفقهاء والمتكلمين : هو صرفُ اللفظ عن الاحتمال الراجح إلى الاحتمال المرجوح لدلالة توجب ذلك ، وهذا هو التأويل الذى تنازع الناس فيه فى كثير من الأمور الخبرية والطلبية فالتأويل الصحيح منه : هو الذى يوافق ما دلت عليه نصوصُ الكتاب والسنة ، وما خالف ذلك فهو التأويل الفاسد .

ويقال لأهل التأويل : هذا الباب الذى فتحتموه فتحتم به باباً لأنواع المشركين والمبتدعين لا تقدرون على سده ، فإنكم إذا سوغتم صرف القرآن عن دَلالته المفهومة بغير دليل شرعىً ، فما الضابط فيما يسوغ تأويلُه وما لا يسوغ ؟ فإن قلتم : ما دلَ القاطع العقلى على استحالته تأولناه ، وإلا أقررناه ! قيل : وبأى عقل نزن القاطعَ العقلى ؟ فإن القرمطى يزعم قيامَ القواطع على بطلان حشر الأجساد ، ويزعم المعتزلى قيام القواطع على امتناع رؤية الله تعالى ، ويلزم حينئذ محذوران عظيمان :

أحدهما: أن لا نقر بشىء من معانى الكتاب والسنة حتى نبحث قبل ذلك بحوثاً طويلة عريضة فى إمكان ذلك بالعقل ، وكلُّ طائفة من المختلفين فى الكتاب يدّعون أن العقل يدل على ما ذهبوا إليه ، فيؤول الأمر إلى الحيرة المحذورة .

الثانى: أن القلوب تتخلى عن الجزم بشىء تعتقده ، مما أخبر به الرسول ، إذ لا يوثق بأن الظاهر هو المراد ، والتأويلات مضطربة ، فيلزم عزلُ الكتاب والسنة عن الدَّلالة والإرشاد إلى ما أنبأ الله به العباد ، وخاصة النبى هى الإنباء ، والقرآن هو النبأ العظيم ، ولهذا نجد أهل التأويل إنما يذكرون نصوصَ الكتاب والسنة للاعتضاد لا للاعتماد ، إن وافقت ما ادعوا أن العقل دل

عليه : قبِلوها ، وإن خالفته : أوَّلُوها ، وهذا فتح باب الزندقة ، نسأل الله العافية .

أمراض القلوب نوعان : شبهة وشهوة

وأما ما قاله الطحاوى من أن « مَنْ لم يتوقَّ النفى والتشبيه : زل ولم يصب التنزيه » فذلك لأن النفى والتشبيه من أمراض القلوب ، فإن أمراض القلوب نوعان : مرضُ شبهة ، ومرض شهوة ، وكلاهما مذكور فى القرآن .

قال تعالى : ﴿ فَلا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِى قَلْبِهِ مَرَضٌ ﴾ (الأحزاب : ٢٢) .

فهذا مرض الشهوة .

وقال تعالى : ﴿ وَأَمَّا الَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ ﴾ (التوبة : ١٢٥) .

وهذا مرض الشبهة ، وهو أردأ من مرض الشهوة ، إذ مرضُ الشهوة يرجى له الشفاء بقضاء الشهوة ، ومرض الشبهة لا شفاء له إن لم يتداركه الله برحمته .

والشبهة التى فى مسألة الصفات : نفيُها وتشبيهُها ، وشُبَه النفى أردأ من شُبَه التشبيه ، فإن شبه النفى رد وتكذيبٌ لما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ ، وشبه التشبيه غلو ومجاوزة للحد .

تفسير سورة الإخلاص

• قال الطحاوى : *(فإن ربَّنا جلَّ وعلا موصوفٌ بصفاتِ الوحدانية ، منعوتٌ بنعوتِ الفرادنية ، ليس فى معناه أحدٌ من البرية)*

ويشير الشيخ بقوله هذا إلى تنزيه الرب تعالى بالذى هو وصفه ، كما وصف نفسه نفياً وإثباتاً ، وكلام الشيخ مأخوذ من معنى سورة الإخلاص ، فقوله : «موصوف بصفات الوحدانية » مأخوذ من قوله تعالى : ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ . وقوله : « منعوت بنعوت الفردانية » من قوله تعالى : ﴿ اللَّهُ الصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ

يُولَدْ ﴾ . وقوله : « ليس فى معناه أحد من البرية » من قوله تعالى : ﴿ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُواً أَحَدٌ ﴾ . وهو أيضاً مؤكد لما تقدم من إثبات الصفات ونفى التشبيه .

والوصف والنعت مترادفان ، وقيل : متقاربان ، فالوصف للذات ، والنعت للفعل ، وكذلك الوحدانية والفردانية ، وقيل فى الفرق بينهما : إن الوحدانية للذات ، والفردانية للصفات ، فهو تعالى موحد فى ذاته ، منفرد بصفاته .

الاتباع فى الإثبات والنفى والابتداع

* قال : **(وتعالى عن الحدود والغاياتِ ، والأركانِ والأعضاءِ والأدواتِ ، لا تحويه الجهاتُ الستُّ كسائرِ المبتَدعاتَ) .**

وللناس فى إطلاق مثل هذه الألفاظ ثلاثةُ أقوال : فطائفة تنفيها ، وطائفة تُثبتها ، وطائفة تفصّل ، وهم المتبعون للسلف ، فلا يُطلقون نفيَها ولا إثباتها إلا إذا تبيّن ، ما أثبت بها فهو ثابت ، وما نفى بها فهو منفى ، لأن المتأخرين قد صارت هذه الألفاظ فى اصطلاحهم فيها إجمال وإبهام ، كغيرها من الألفاظ الاصطلاحية فليس كلُّهم يستعملها فى نفس معناها اللغوى ، ولهذا كان النفاة يَنفون بها حقاً وباطلاً ، مخالفاً لقول السلف ولما دل عليه الكتابُ والميزان ، ولم يَرد نص من الكتابِ ولا من السنة بنفيها ولا إثباتها ، وليس لنا أن نصف الله تعالى بما يصفْ به نفسه ، ولا وصفه به رسوله ، نفياً ولا إثباتاً ، وإنما نحن متبعون لا مبتدعونَ .

فالواجب أن نُثبتَ فى باب الصفات ما أثبته الله ورسولهُ ، وأن ننفىَ ما نفاه الله ورسوله ، والألفاظُ التى ورد بها النص يُعتصَم بها فى الإثبات والنفى ، وأما الألفاظ التى لم يَرِدْ نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى يُنظر فى مقصود قائلها ، فإن كان معنى صحيحاً ، قبل ، لكن ينبغى التعبير عنه بألفاظ النصوص ، دون الألفاظ المجملة ، إلا عند الحاجَة ، مع قرائنَ تبين المراد ، والحاجة مثل أن يكون الخطاب مع من لا يتم المقصود معه إن لم يخاطَب بها ، ونحو ذلك .

والشيخ ـ رحمه الله ـ أردا الرد بهذا الكلام على المشبهة القائلين : إن الله جسم ، وإنه جثة وأعضاء ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً ، فالمعنى الذى أراده

الشيخ ـ رحمه الله ـ من النفى الذى ذكره هنا : حق ، لكن حَدَث بعده من أدخلَ فى عموم نفيه حقاً وباطلاً ، فيحتاج إلى بيان ذلك ، وهو : أن السلف متفقون على أن البشر لا يعلمون لله حدًا ، وأنهم لا يحدّون شيئاً من صفاته .

قال أبو داود الطيالسى : كان سُفيانُ الثورى ، وشُعبة ، وحمّادُ بن زيد ، وحماد بن سلمة ، وشَريكٌ ، وأبو عَوانة ، لا يحدّون ولا يُشبّهون ولا يُمثلون يروون الحديث ولا يقولون : كيف ؟ وإذا سئلوا قالوا بالأثر .

معنى لفظ « الحدّ »

ومن المعلوم أن الحدَّ يقال على ما ينفصل به الشيء ويتميز به عن غيره ، والله تعالى غير حال فى خلقه ، ولا قائم بهم ، بل هو القيوم القائم بنفسه ، المقيم لما سواه ، فالحد بهذا المعنى لا يجوز أن يكون فيه منازعة فى نفس الأمر أصلاً ، فإنه ليس وراء نفيه إلا نفيُ وجوب وجود الرب ونفيُ حقيقته ، وأما الحد بمعنى العلمِ والقول ، وهو أن يَحدَّه العباد ، فهذا منتفٍ بلا منازعةٍ بين أهل السنة .

كلام نفيس لسهل التسترى ـ رحمه الله ـ

قال أبو القاسم القشيرى فى رسالة : سمعت أبا عبد الرحمن السلمى ، سمعت أبا منصور بن عبد الله ، سمعتُ أبا الحسن العنبرى ، سمعتُ سَهل بن عبد الله التسترى يقول ـ وقد سُئل عن ذات الله ـ فقال : ذاتُ الله موصوفة بالعلم . غيرُ مُدرَكة بالإحاطة ولا مرئية بالأبصار فى دار الدنيا ، وهى موجودة بحقائق الإيمان ، من غير حدٍّ ولا إحاطةَ ولا حلُول . وتراه العيون فى العقبى ظاهراً فى ملكه وَقدرته ، وقد حَجَب الخلقَ عن معرفة كنه ذاته ، ودلهم عليه بآياته . فالقلوب تعرفُه ، والعيونُ تدركه ينظر إليه المؤمن بالأبصارَ ، من غير إحاطةِ ولا إدراك نهاية

وأما لفظ « الأركان » و « الأعضاء » و الأدوات » فيستدل بها النفاة على نفى بعض الصفات الثابتة بالأدلة القطعية ، كاليد والوجه .

إثبات الإمام أبى حنيفة اليد والوجه والنفس

قال أبو حنيفة ـ رضى الله عنه ـ فى « الفقه الأكبر » : له يد ووجه ونفس ، كما

ذكر تعالى فى القرآن من ذكر اليد والوجه والنفس ، فهو له صفة بلا كيف ، ولايقال : إن يده قدرته ونعمته ، لأن فيه إبطال الصفة . انتهى .

وهذا الذى قاله الإمام ـ رضى الله عنه ـ ثابت بالأدلة القاطعة .

قال تعالى : ﴿ **مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ** ﴾ (ص : ٧٥) .

وقال سبحانه : ﴿ **وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ** ﴾ (الزمر : ٦٧) .

وقال عز وجل : ﴿ **كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ** ﴾ (القصص : ٨٨) .

وقال تعالى : ﴿ **تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ** ﴾ (المائد : ١١٦) .

وقال ـ ﷺ ـ فى حديث الشفاعة لما يأتى الناس آدم فيقولون له : « **خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته** » .

ولا يصح تأويل من قال : إن المراد باليد القدرة ، فإن قوله : ﴿ **لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ** ﴾ لا يصح أن يكون معناه : بقدرتى ، مع تثنية اليد .

ولا دليل لهم فى قوله تعالى : ﴿ **أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ** ﴾ ، لأنه تعالى جمع الأيدى لما أضافها إلى ضمير الجميع ليتناسب الجمعان .

ولكن لا يقال لهذه الصفات : إنها أعضاء ، أو جوارح ، أو أدوات ، أو أركان ، لأن الركن جزء الماهية ، والله تعالى هو الأحد الصمد ، لا يتجزأ ، سبحانه وتعالى ، والأعضاء فيها معنى التفريق ، تعالى الله عن ذلك ، والجوارح فيها معنى الاكتساب والانتفاع ، وكذلك الأدواتُ هى الآلات التى يُنتفع بها فى جلب المنفعة ودفع المضرة ، وكلٌّ هذه المعانى منتفية عن الله تعالى ، ولهذا لم يرد ذكرها فى صفات الله تعالى ، فالألفاظ الشرعية صحيحة المعانى ، سالمة من الاحتمالات الفاسدة ، فكذلك يجب أن لا يُعدَل عن الألفاظ الشرعية نفياً ولا إثباتاً ، لئلا يثبت معنىً فاسد ، أو ينفى معنى صحيح ، وكل هذه الألفاظ المجملة عرضة للمحق والمبطل .

معنى لفظ « الجهة »

وأما لفظ « الجهة » فقد يراد به ما هو موجود ، وقد يراد به ماهو معدوم ، ومن المعلوم أنه لا موجود إلا الخالقُ والمخلوق ، فإذا أريد بالجهة أمرٌ موجود غيرُ الله تعالى كان مخلوقاً ، والله تعالى لا يحصره شيء ، ولا يحيط به شيء من المخلوقات ، تعالى الله عن ذلك ، وإن أريد بالجهة أمرٌ عدمي ، وهو ما فوق العالم ، فليس هناك إلا اللهُ وحده ، فإذا قيل : إنه في جهة بهذا الاعتبار فهو صحيح ، ومعناه : أنه فوق العالم حيث انتهت المخلوقات ، فهو فوق الجميع ، عالٍ عليه .

ونفاة لفظ « الجهة » الذين يريدون بذلك نفيَ العلو ، يذكرون من أدلتهم : أن الجهات كلَّها مخلوقة ، وأنه كان قبل الجهات ، وأن من قال : إن في جهة يلزمه القول بقدم شيء من العالم ، وأنهُ كان مستغنياً عن الجهة ثم صار فيها ، وهذه الألفاظُ ونحوها إنما تدل على أنه ليس في شيء من المخلوقات ، سواء سمي جهةً ، أو لم يسم ، وهذا حق . ولكن الجهة ليست أمراً وجودياً ، بل أمر اعتباري : ولا شك أن الجهات لا نهاية لها ، وما لا يوجد فيما لا نهاية له فليس بموجود .

وقول الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا تحويه الجهات الستُّ كسائر المبتدعات » هو حق ، باعتبار أنه لا يحيط به شيء من مخلوقاته ، بل هو محيط بكل شيء وفوقه ، وهذا المعنى هو الذى أراده الشيخ ـ رحمه الله ـ لما يأتى فى كلامه : « أنه تعالى محيط بكل شيء وفوقه » ، فإذا جمع بين كلامه ، وهو قوله : « لا تحويه الجهات الست » وقوله : « محيط بكل شيء وفوقه » ، علم أن مراده أن الله تعالى لا يحويه شيء ، ولا يحيط به شيء ، كما يكون لغيره من المخلوقات ، وأنه تعالى هو المحيط بكل شيء ، العالى على كل شيء .

رد أوهام الجهلة فى حديث النزول

وللجهال هنا أوهام ، وبصورة خاصة إزاءَ حديث نزول الرب تعالى إلى السماءالدنيا كلَّ ليلةٍ ، فيظنون أنه إذا نزل ـ كما أخبرَ الصادق ـ ﷺ ـ يكون

العرش فوقه ، ويكون محصوراً بين طبقتين من العالم ، وهذا ظن مخالف لإجماع السلف ، مخالف للكتاب والسُّنة .

قال شيخ الإسلام أبو عثمانَ إسماعيلُ بن عبد الرحمن الصابونى : سمعت الأستاد أبا منصور بن حماد ـ بعد روايته حديث النزوِل ـ يقولَ : سُئل أبو حنيفة عنه فقال : ينزل بلا كيف .

وإنما توقف من توقف فى نفى ذلك لضعف علمه بمعانى الكتاب والسنة وأقوال السلف ، ولذلك يُنكر بعضهم أن يكون فوق العرش ، بل يقول : لا مباين ولا مجانب ، لا داخل العالم ولا خارجه ، فيصفونه بصفة العدم والممتنع ، ولا يصفونه بما وصف به نفسه من العلو والاستواء على العرش .

الإيمان بالإسراء والمعراج ، ورواية البخارى ـ رحمه الله ـ

• **قال الطحاوى :** « والمعراجُ حقٌّ ، وقد أسرى بالنبى ـ ﷺ ـ وعُرِجَ بشخصه فى اليقظة إلى السماء ، ثم إلَى حيثُ شاءَ اللهُ من العلا ، وأكرَمهُ الله بماَ شاءَ ، وأَوَحى إليهِ ما أوحَى ، ماَ كَذَب الفؤادُ ما رأى ، فصلى اللهُ عليهِ فى الآخرةِ والأُولى » .

قال الشارح قاضى القضاة ابن أبى العز :

المعراج : مفعال ، من العروج ، أى الآلة التى يُعرج فيها ، أى : يُصعد ، وهو بمنزلة السُّلم ، لكن لا يعلم كيف هو ، وحكمُه كحكم غيرِه من المغيبات ، ونؤمن به ولا نشتغلُ بكيفيَته .

واختلف الناس فى الإسراء :

فقيل : كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده نقله ابن إسحاق عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ ونقل عن الحسن البصرى نحوُه ، لكن ينبغى أن يعرف الفرق بين أن يقال : كان الإسراء مناماً ، وبين أن يقال : كان بروحه دون جسده ، وبينهما فرق عظيم ، فعائشةُ ومعاوية ـ رضى الله عنهما ـ لم يقولا : كان مناماً ، وإنما قالا : أسرى بروحه ولم يفقد جسده ، وفرق ما بين الأمرين : أن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم فى الصورة المحسوسة ، فيرى كأنه قد عَرَجَ إلى

السماء ، وذهب به إلى مكة ، وروحه لم تصعد ولم تذهب ، وإنما مَلَك الرؤيا ضرب له المثال ، فما أرادت عائشة ولا أراد معاوية أن الإسراء كان مناماً ، وإنما أراد أن الروح ذاتها أسرى بها ، ففارقت الجَسدَ ثم عادت إليه ، ويجعلان هذا من خصائصه ، فإن غيره لا تنال ذاتُ روحَه الصعودَ الكاملَ إلى السماء إلا بعدَ الموت .

وقيل : كان الإسراء مرتين ، مرة يقظة ، ومرة مناماً ، وأصحاب هذا القول كأنهم أرادوا الجمع بين حديث شريك وقوله : « ثم استيقظت » وبين سائر الروايات ، وكذلك منهم من قال : بل كان مرتين ، مرة قبلَ الوحى ، ومرة بعده . ومنهم من قال : بل ثلاثُ مرات ، مرةَ قبل الوحى ، ومرتين بعدَه ، وكلما اشتبه عليهم لفظ : زادوا مرة ، للتوفيقِ ! وهذا يفعله ضعفاءُ أهل الحديث ، وإلا فالذى عليه أئمة النقل : أن الإسراء كان مرة واحدة بمكةَ ، بعد البعثة ، قبلَ الهجرة بسنة ، وقيل : بسنة وشهرين . ذكره ابن عبد البَر .

قال شمس الدين ابن قيم الجوزية : يا عجباً لهؤلاء الذين زعموا أنه كان مراراً ! كيف ساغ لهم أن يظنوا أنه فى كل مرة يفرض عليهم الصلوات خمسين مرة، ثم يتردد بين ربه وبين موسى حتى تصير خمساً ، فيقول : « أمضيت فريضتى ، وخففت عن عبادى » ، ثم يعيدها فى المرة الثانية إلى خمسين ، ثم يحطها إلى خمس ؟ وقد غَلّط الحفاظُ شريكاً فى ألفاظ من حديث الإسراء ، ومسلم أورد المسند منه ثم قال « فقدّم وأخّر ، وزاد ونقص » ، وأجاد ـ رحمه الله ـ انتهى كلام ابن القيم ـ رحمه الله ـ .

وكان من حديث الإسراء : أنه ـ ﷺ ـ أسرى بجسده فى اليقَظة ، على الصحيح ، من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، راكباً على البراق .

قال البخارى فى الجزء الخامس من « صحيحه » : حدثنا هُدْبةُ بنُ خالد ، حدثنا همَّام بن يحيى ، حدَّثنا قتادة ، عن أنس بن مالك ، عن مالك بن صَعْصَعة ـ رضى الله عنهما ـ أن نبى الله ـ ﷺ ـ حدثهم عن ليلة أسرى به : « بينما أنا فى الحطَيم ـ وربما قال : فى الحجر ـ مُضطجعاً ، إذ أتانى آت فقَدَّ . قال : وسمعته يقول : فشق ما بين هذه إلَى هذه . فقلت للجارود وهو إلَى جنبى : ما يعنى به ؟ قال : من ثغرة نَحره إلى شِعْرَتِه ، وسمعته يقول : من قَصّه إلى شِعرته ، فاستخرج

قلبى ، ثم أتى بطَست من ذهب مملوءة إيماناً ، فغسل قلبى ، ثم حُشى ، ثم أتيت بدابة دون البغل وفوقَ الحمار ، أبيض . فقال له الجارود : هو البراق يا أبا حمزة ؟ قال أنس : نعم ، يضع خطوَهُ عند أقصى طَرْفه ، فحُملت عليه ، فانطلق بى جبريلُ ، حتى أتى السماء الدنيا فاستفتح ، فقيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد أُرسِل إليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحباً به ، فنِعمَ المجىءُ جاءَ .

ففتح ، فلما خَلَصتُ ، فإذا فيها آدم ، فقال : هذا أبوك آدم فسلم عليه فسلمت عليه ، فرد السلام ، ثم قال مرحباً بالابن الصالح والنبى الصالح .

ثم صَعِدَ حتى أتى السماءَ الثانية ، فاستفتح . قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحباً به ، فنِعمَ المجىءَ جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا يحيى وعيسى ، وهما أبناءالخالة .

قال : هذا يحيى وعيسى فسلم عليهما ، فسلمتُ ، فردّا ، ثم قالاً : مرحبا بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى إلى السماء الثالثة فاستفتح . قِيلَ : مَن هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن مَعَك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحباً به ، فنِعمَ المجىءَ جاء .

ففتح ، فلما خلصت إذا يوسف . قال : هذا يوسفُ فسلم عليه ، فسلمتُ عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبىِّ الصالح .

ثم صعد بى ، حتى أتى السماء الرابعة فاستفتح . قيل : من هذا ؟

قال : جبريل :

قيل ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل : أو قد أرسل إليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحباً به ، فنعم المجىء جاء ففتح ، فلما خلصت إلى إدريس ، قال : هذا إدريس فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى ، حتى أتى السماء الخامسة ، فاستفتح .

قيل : من هذا ؟

جبريل .

ومن معك ؟

قال : محمدٌ ـ ﷺ ـ .

قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال : نعم .

قيل : مرحباً به ، فنِعمَ المجىء جاء .

فلما خلصت فإذا هَارون . قال : هذا هارونُ فسلم عليه ، فسلمت عليه ، فرد ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى الصالح .

ثم صعد بى حتى أتى السماء السادسة فاستفتح ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : من معك ؟

قال : محمد .

قيل : وقد أرسل إليه ؟

قال نعم .

قيل : مرحباً به ، فنِعْمَ المجىءُ جاءَ .

فلما خلصتُ فإذا موسى . قال : هذا موسى فسلم عليه ، فسلمتُ عليه ، فرد ، ثم قال : مرحباً بالأخ الصالح والنبى والصالح .

فلما تجاوزت بكى .

قيل له : ما يُبكيك ؟

قال : أبكى لأن غلاماً بُعث بعدى يدخل الجنة من أمته أكثر ممن يدخلها من أمتى .

ثم صعد إلى السماء السابعة ، فاستفتح جبريل ، قيل : من هذا ؟

قال : جبريل .

قيل : ومن معك ؟

قال : محمد .

قيل وقد بعث إليه ؟

قال : نعم .

قال : مرحباً به ، فَنعمَ المجيء جاء .

فلما خلصت فإذا إبراهيم ، قال : هذا أبوك فسلم عليه ، قال : فسلمت عليه فرد السلام ، قال : مرحباً بالإبن الصالح والنبى الصالح .

ثم رُفعت إلى سدرةُ المنتهى ، فإذا نَبْقُهَا مثلُ قلال هَجَر ، وإذا ورقُها مثلُ آذان الفيلة قال : هذه سدَرة المنتهى ، وإذا أربعة أنَهارَ ، نهَران باطنان ونهران ظاهران ، فقلت : ما هذا يا جبريل ؟

قال : أما الباطنان فنهران فى الجنة ، وأما الظاهران فالنيلُ والفرات .

ثم رُفع لى البيت المعمور ، ثم أتيت بإناء من خمر وإناء من لبن وإناء ممن عسل ، فأخذت اللبن ، فقال : هى الفطرة ، أنت عليها وأمتك .

ثم فُرضت علىَّ الصلاةُ خمسين صلاةً كلَّ يوم ، فرَجعت ، فمررت على موسى ، فقال : بمَ أُمرت ؟

قال : أمرت بخمسين صلاة كل يوم .

قال : إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاةً كل يوم ، وإنى والله قد جربت الناس قبلك ، وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

فرجعت ، فوضَع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله ، فرجعت فوضع عنى عشراً ، فرجعت إلى موسى فقال مثله فرجعت فأمرت بعشر صلوات كل يوم ، فرجعت فقال مثله ، فرجعت فأُمرت بخمس صلوات كلَّ يوم ، فرجعت إلى موسى فقال : بَم أُمرت ؟

قلت : أمرت بخمس صلوات كل يوم .

قال : إن أمتك لا تستطيع خمس صلوات كل يوم ، وإنى قد جربت الناس قبلك وعالجت بنى إسرائيل أشد المعالجة ، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف لأمتك .

قال سألت ربى حتى استحييت ، ولكت أرضَى وأُسَلِّم .

قال : فلما جاوزت نادى مناد : أمضيتُ فريضتى ، وخففتُ عن عبادى .

حدثنا الحُميدى ، حدثنا سفيان ، حدثنا عَمرو ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ فى قوله تعالى : ﴿وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلاَّ فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ قال : هى رؤيا عين أريها رسول الله ـ ﷺ ـ ليلة أسرى به إلى بيت المقدس .

الرؤية كانت بالقلب لا بعينى الرأس

وقد اختلف الصحابة فى رؤيته ـ ﷺ ـ ربّه ـ عز وجل ـ بعينى رأسه ، والصحيح أنه رآه بقلبه ، ولم يره بعينى رأسه .

وقوله : ﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ﴾ صح عن النبى ـ ﷺ ـ أن هذا المرئى جبرائيل ، رآه مرتين على صورته التى خلق عليها .

وأما قوله تعالى فى سورة النجم : ﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ فهو غير الدنو والتدلى المذكورين فى قصة الإسراء ، فإن الذى فى سورة النجم هو دنو جبرائيل وتدليه ، كما قالت عائشة وابن مسعود ـ رضى الله عنهما ـ فإنه قال : ﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ ۝ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴾ (النجم : ٥ ـ ٨) .

فالضمائر كلها راجعة إلى هذا المعلم شديد القوى ، وأما الدنو والتدلى الذى فى حديث الإسراء فذلك صريح فى أنه دنو الرب تعالى وتدليه ، وأما الذى فى سورة النجم أنه رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى فهذا هو جبرائيل ، رآه مرتين ، مرة فى الأرض ، ومرة عند سدرة المنتهى .

الإسراء بالجسد يقظة

ومما يدل على أن الإسراء بجسده فى اليقظَة قوله تعالى : ﴿ سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَىٰ

بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا ﴾ (الإسراء : ١) .

والعبد : عبارة عن مجموع الجسد والروح ، كما أن الإنسان : اسم لمجموع الجسد والروح ، هذا هو المعروف عند الإطلاق ، وهو الصحيح ، فيكون الإسراء بهذا المجموع ، ولا يمتنع ذلك عقلاً ، ولو جاز استبعادُ صعود البشر لجاز استبعاد نزول الملائكة ، وذلك يؤدى إلى إنكار النبوة ، فهو كفر .

الحكمة فى الإسراء أولاً

فإن قيل : فما الحكمة فى الإسراء إلى بيت المقدس أولاً ؟

فالجواب ـ والله أعلم ـ : أنه كان ذلك إظهاراً لصدق دعوى الرسول ـ ﷺ ـ المعراج ، حين سألته قريش عن نعت بيت المقدس ، فنعته لهم ، وأخبرهم عن عيرهم التى مر عليها فى طريقه ، ولو كان عروجه إلى السماء من مكة لما حصل ذلكَ ، إذ لا يمكن اطلاعهم على ما فى السماء لو أخبرهم عنه ، وقد اطلعوا على بيت المقدس ، فأخبرهم بنعته .

وفى حديث المعراج دليل على ثبوت صفة العلو لله تعالى من وجوه ، لمن تدبره ، وبالله التوفيق .

الإيمان بورود الحوض

* قال : « والحوضُ ـ الذى أكرمُه الله تعالى به غياثاً لأمته ـ : حقٌّ » .

وذلك أن الأحاديث الواردةَ فى ذكر الحوض تبلغ حدَّ التواتر ، رواها من الصحابة بضع وثلاثون صحابياً ، ولقد استقصى طرقها شيخُنا الشيخ عماد الدين ابنُ كثير ، تغمده الله برحمته ، فى آخر تاريخه الكبير ، المسمى بـ « البداية والنهاية » .

فمنها ما رواه البخارى ـ رحمه الله تعالى ـ عن أنس بن مالك ـ رضى الله عنه ـ أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **إن قدر حوضى كما بين أيلة إلى صنعاءَ من اليمن ، وإن فيه من الأباريق كعدد نجوم السماء** » .

والذى يتلخص من الأحاديث الواردة فى صفة الحوض : أنه حوض عظيم ، وموردٌ كريم ، يمد من شراب الجنة ، من نهر الكوثر ، الذى هو أشد بياضاً من اللبن ، وأبرد من الثلج وأحلى من العسل . وأطيبُ ريحاً من المسك ، وهو فى غاية الاتساع ، عرضه وطوله سواء ، وكل زاوية من زواياه مسيرة شهر ، فسبحان الخالق الذى لا يعجزه شيء .

وقد ورد فى بعض الأحاديث أن لكل نبى حوضاً ، وأن حوض نبينا ـ ﷺ ـ أعظمها وأحلاها وأكثرها وارداً ، جعلنا الله منهم بفضله وكرمه .

الإيمان بالشفاعة وأنواعها الثمانية

* قال : « **والشفاعةُ التى ادَّخَرَها لهم حقٌّ ، كما رُوى فى الأخبار** » .

والشفاعة أنواع : منها ما هو متفق عليه بين الأمة ، ومنها ما خالف فيه المعتزلة ونحوُهم من أهل البدع .

النوع الأول : الشفاعة الأولى ، وهى العظمى ، الخاصة بنبينا ـ ﷺ ـ من بين سائر إخوانه من الأنبياء والمرسلين ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ وفى «الصحيحين» وغيرِهما ، عن جماعة من الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ جملة أحاديث تثبتها .

منها : قول النبى ـ ﷺ ـ فى الحديث الصحيح :

« آتى تحت العرش ، فأقع ساجدا لربى ـ عز وجل ـ ثم يفتح الله علىَّ ويُلهمنى من محامده وحسن الثناء عليه شيئاً لم يفتح على أحد قبلى ، فيقال : يا محمد : ارفع رأسك ، سَل تعطه ، اشفع تشفع ، فأقول : يا رب : أمتى أمتى ، يا رب : أمتى أمتى ، يا رب : أمتى أمتى ، فيقول : أدخل من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة ، وهم شركاء الناس فيما سواه من الأبواب ، ثم قال : والذى نفسُ محمد بيده ، لما بين مصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهَجَر ، أو كما بين مكة وبصرى » .

النوع الثانى والثالث من الشفاعة : شفاعته ـ ﷺ ـ فى أقوام قد تساوت

حسناتهم وسيئاتهم ، فيشفعُ فيهم ليدخلوا الجنة ، وفى أقوام آخرين قد أُمر بهم إلى النار ، لا يدخلونها .

النوع الرابع : شافعته ـ ﷺ ـ فى رَفْع درجات من يدخل الجنة فيها فوق ما كان يقتضيه ثوابُ أعمالهم ، وقد وافقت المعتزلة على هذه الشفاعة خاصة ، وخالفوا فيما عداهامن المقامات ، مع تواتر الأحاديث فيها .

النوع الخامس : الشفاعة فى أقوام أن يدخلوا الجنة بغير حساب ، ويحسن أن يستشهد لهذا النوع بحديث عُكاشة بن محصن ، حين دعا له رسول الله ـ ﷺ ـ أن يجعله من السبعين ألفاً الذينَ يدخلون الجنة بغير حساب ، والحديث مُخرَّج فى « الصحيحين » .

النوع السادس : الشفاعة فى تخفيف العذاب عمن يستحقه ، كشفاعته فى عمه أبى طالب أن يخفف عنه عذابه ، ثم قال القرطبى فى « التذكرة » بعد ذكر هذا النوع : فإن قيل : فقد قال الله تعالى : ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴾ ؟ قيل له : لا تنفعه فى الخروج من النار ، كما تنفع عصاةَ الموحّدين الذين يخرجون منها ويدخلون الجنة .

النوع السابع : شفاعته أن يؤذن لجميع المؤمنين فى دخول الجنة ، كما تقدم . وفى « صحيح مسلم » عن أنس ـ رضى الله عنه ـ : أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **أنا أولُ شفيع فى الجنة** » .

النوع الثامن : شفاعته فى أهل الكبائر من أمته ، فمن دخل النار ، فيخرجون منها ، وقد تواترت بهذا النوع الأحاديث ، وقد خفى علمُ ذلك على الخوارج والمعتزلة ، فخالفوا فى ذلك ، جهلاً منهم بصحة الأحاديث ، وعناداً ممن علم ذلك واستمر على بدعته .

وهذه الشفاعة تشاركه فيها الملائكة والنبيون والمؤمنون أيضاً ، وهى تتكرر منه ـ ﷺ ـ أربع مرات .

ومن أحاديث هذا النوع حديث أنس بن مالك قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ :

« **شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى** » . رواه الإمام أحمد بن حنبل .

ثم إن الناس فى الشفاعة على ثلاثة أقوال : فالمشركون ، والنصارى ، والمبتدعون من الغلاة فى تقليد المشايخ : يجعلون شفاعة من يعظمونه عند الله كالشفاعة المعروفة فى الدنيا ، والمعتزلة والخوارجُ أنكروا شفاعة نبينا - ﷺ - فى أهل الكبائر ، وشفاعة غيره ، ولكن لا يشفع أحد حتى يأذن الله له ويحدّ له حدًّا ، كما فى الحديث الصحيح - حديث الشفاعة - أنهم يأتون آدم ، ثم نوحاً ، ثم إبراهيم ثم موسى ، ثم عيسى ، فيقول لهم عيسى - عليه السلام - اذهبوا إلى محمد ، فإنه عبد غُفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، « فيأتونى ، فأذهب ، فإذا رأيت ربى خررت له ساجداً ، فأحمد ربى بمحامَد يفتحها على ، لا أحسنها الآن ، فيقول : أىْ محمد : ارفع رأسك ، وقل يُسمَع ، واشفع تُشفَع . فأقول : ربى ، أمتى ، فيحدُّ لى حداً ، فأدخلهم الجنة ، ثم أنطلق فأسجد ، فيحدُّ لى حداً » . ذكر هذا ثلاث مرات .

تفصيل فى حكم الاستشفاع والتوسل والدعاء

وأما الاستشفاع بالنبى - ﷺ - وغيره فى الدنيا إلى الله تعالى فى الدعاء ، ففيه تفصيل ، فإن الداعىَ تارةً يقول : بحق فلان ، يُقسم على الله بأحد من مخلوقاته ، فهذا محذور من وجهين : أنه أقسم بغير الله .

الثانى : اعتقاده أن لأحد على الله حقاً ولا يجوز الحلف بغير الله ، وليس لأحد على الله حق إلا ما أحقه على نفسه ، كقوله تعالى : ﴿ **وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ** ﴾ (الروم : ٤٧) .

وكذلك ما ثبت فى « الصحيحين » من قوله - ﷺ - لمُعاذ - رضى الله عنه - وهو رديفه : « **يا معاذ : أتدرى ما حق الله على عباده ؟ قلت : اللهَ ورسوله أعلم قال : حقه عليهم أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا ، أتدرى ما حق العباد على الله إذا فعلوا ذلك ؟ قلت : الله ورسوله أعلم ، قال : حقهم عليه أن لا يعذبهم** » .

فهذا حق وجب بكلماته التامة ووعده الصادق ، لا أن العبد نفسَه يستحق على الله شيئاً كما يكون للمخلوق على المخلَوق ، فإن الله هو المنعم على العباد بكل

خير ، وحقهم الواجب بوعده هو أن لا يعذبهم ، وتركُ تعذيبهم معنى لا يصلح أن يُقسم به ، ولا أن يُسأل بسببه ويتوسل به ، لأن السبب هو ما نصبَه الله سبباً .

وكذلك الحديثُ الذى فى المسند من حديث أبى سعيد الخدرى عن النبى ـ ﷺ ـ فى قول الماشى إلى الصلاة :

« أسألك بحق ممشاى ، وبحق السائلين عليك » فهذا حق السائلين ، هو أوجبه على نفسه ، فهو الذى أحقَّ للسائلين أن يجيبهم ، وللعابدين أن يُثيبهم ، ولقد أحسن القائل :

ما للعباد عليه حقٌ واجبُ ... كلا ، ولا سعىٌ لديه ضائعُ
إن عُذبوا فبعدله ، أو نعِّموا ... فبفضله ، وهو الكريم الواسعُ

فإن قيل : فأى فريق بين قول الداعى : « بحق السائلين عليك » وبين قوله : « بحق نبيك » أو نحو ذلك ؟

فالجواب : أن معنى قوله : « بحق السائلين عليك » : أنك وعدت السائلين بالإجابة ، وأنا من جملة السائلين ، فأجب دعائى . . بخلاف قوله : « بحق فلان» ـ وإن كان له حق على الله بوعده الصادق ـ فلا مناسبة بين ذلك وبين إجابة دعاء السائل ، فكأنه يقول : لكون فلان من عبادك الصالحين أجب دعاى ! وأىُّ مناسبة فى هذا وأى ملازمة ؟ وإنما هذا من الاعتداء فى الدعاء ، وقد قال تعالى : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾ (الأعراف : ٥٥) .

وهذا ونحوُه من الأدعية المبتدعة ولم يُنقَل عن النبى ـ ﷺ ـ ولا عن الصحابة، ولا عن التابعين ، ولا عن أحد من الأئمة ، وإنما يوجد مثلُ هذا فى الحروز والهياكل التى يكتب بها الجهال والطُّرُقيَّة ، والدعاء من أفضل العبادات ، والعباداتُ مبناها على السنة والاتباع ، لا عن الهوى والابتداع .

وإن كان مراده : الأقسامَ على الله بحق فلان ، فذلك محذور أيضاً ، لأن الإقسام بالمخلوق على المخلوق لا يجوز ، فكيف على الخالق ؟ وقد قال ـ ﷺ ـ : « من حلف بغير الله فقد أشرك » ولهذا قال أبو حنيفة وصاحباه ـ رضى الله عنهم ـ

يُكره أن يقول الداعي : أسألك بحق فلان ، أو بحق أنبيائك ورسلك ، وبحق البيت الحرام والمشعَر الحرام ، ونحو ذلك ، حتى كره أبو حنيفة ومحمدُ بن الحسن الشيباني أن يقول الرجل اللهم إني أسألك بمعقدَ العز من عرشك ، ولم يكرهه أبو يوسف لما بلغه الأثر فيه .

وتارةً يقول : بجاه فلان عندك ، أو يقول : نتوسل إليك بأنبيائك ورسلك وأوليائك ، ومراده : لأن فلاناً عندك ذو وجاهة وشرف ومنزلة فأجب دعانا وهذا أيضاً محذور ، فإنه لو كان هذا هو التوسلَ الذى كان الصحابة يفعلون فى حياة النبى - ﷺ - لفعلوه بعد موته ، وإنما كانوا يتوسلون فى حياته بدعائه ، يطلبون منه أن يدعو لهم ، وهم يؤمّنون على دعائه ، كما فى الاستسقاء وغيره ، فلما مات : قال عمر - رضى الله عنه - لما خرجوا يستسقون : « اللهم إنا كنا إذا أجدبنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا » معناه : بدعائه هو ربه وشفاعته وسؤاله ، ليس المرادإنا نقسم عليك به ، أو نسألك بجاهه عندك ، إذ لو كان ذلك مراداً لكان جاه النبى - ﷺ - أعظم وأعظم من جاه العباس .

وتارة يقول : باتباعى لرسولك ومحبتى له وإيمانى به وسائر أنبيائك ورسلك وتصديقى لهم ، ونحو ذلك ، فهذا من أحسن ما يكون من الدعاء والتوسل والاستشفاع .

فلفظ التوسل بالشخص والتوجه به : فيه إجمال ، غَلط بسببه من لم يفهم معناه فإن أريد به التسبب به لكونه داعياً وشافعاً - وهذا فى حياته يكون - أو لكون الداعى محباً له مطيعاً لأمره : فيكون التوسل إما بدعاء الوسلية وشفاعته ، وإما بمحبة السائل واتباعه ، أو يراد به الإقسامُ به والتوسل بذاته ، فهذا الثانى هو الذى كرِهوه ونَهواْ عنه .

وكذلك السؤال بالشىء : قد يراد به التسبب به ، لكونه سبباً فى حصول المطلوب ، وقد يراد به الإقسام به .

ومن الأول : حديث الثلاثة الذين أوَوْا إلى الغار ، وهو حديث مشهور فى الصحيحين وغيرهما ، فإن الصخرة انطبقت عليهم ، فتوسلوا إلى الله بذكر

أعمالهم الصالحة الخالصة ، وكل واحد منهم يقول : فإن كنت فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج عنا ما نحن فيه ، فانفرجت الصخرة فخرجوا يمشون ، فهؤلاء دَعوا الله بصالح الأعمال ، لأن الأعمال الصالحة هى أعظمُ ما يتوسَّل به العبد إلى الله ، ويَتَوجّه إليه ويسأله به ، لأنه وعد أن يستجيبَ للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدَهم من فضله .

فالحاصل : أن الشفاعة عند الله ليستْ كالشفاعة عند البشر ، فلا يشفع عندهُ أحد إلا بإذنه ، فالأمر كلُّه لله ، كما قال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ الأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ** ﴾ (آل عمران : ١٥٤) .

وقال سبحان : ﴿ **لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ** ﴾ (آل عمران : ١٢٨) .

فإذا كان لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه لمن يشاء ، ولكن يُكرم الشفيع بقبول شفاعته ، كما قال ـ ﷺ ـ : « **اشفعوا تؤجروا ، ويقضى الله على لَسان نبيه ما يشاء** » وفى الصحيح أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **يا بنى عبد مناف : لا أملك لكم من الله شيئاً ، يا صفيةُ عمةَ رسول الله ـ ﷺ ـ : لا أملك لك من الله شيئاً ، يا عباسُ عمَّ رسول الله ـ ﷺ ـ : لا أملك لكَ من الله شيئاً** » .

فإذا كان سيد الخلق وأفضل الشفعاء يقول لأخص الناس به : لا أملك لك من الله من شىء ، فما الظنُّ بغيره ؟

وإذا دعاه الداعى ، وشفع عنده الشفيع ، فسمِع الدعاء وقبل الشفاعة : لم يكن هذا هو المؤثر فيه كما يؤثر المخلوق فى المخلوق ، فإنه سبحانه وتعالى هو الذى جعل هذا يدعو ويشفع ، وهو الخالق لأفعال العباد ، فهو الذى وفق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذى وفقه للعمل ثم أثابه ، وهو الذى وفقه للدعاء ثم أجابه ، وهذا مستقيم على أصول أهل السنة المؤمنين بالقدر ، وأن الله خالق كل شىء .

الإيمان بميثاق الأزل

● **قال الطحاوى : (*والميثاق الذى أخذهُ الله تعالى من آدمَ وذريتِه : حقٌ*)**

فقد قال تعالى : ﴿ **وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِى آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ**

عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ (الأعراف : ١٧٢) .

يُخبر سبحانه أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربُّهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو .

وقد وردت أحاديثُ فى أخذ الذرية من صُلب آدم ـ عليه السلام ـ وتمييزهم إلى أصحاب اليمين وإلى أصحاب الشمال ، وفى بعضها الإشهادُ عليهم بأن الله ربهم .

علم الله محيط بكل شىء

* قال : « **وقَدْ عَلِمَ اللهُ تعالى فى الأزلِ عَدَدَ مَنْ يَدخلُ الجنةَ ، وعَدَدَ مَنْ يَدخُلُ النارَ ، جُملةً واحدةً ، فلا يُزادُ فى ذلك العددِ ولا يُنقَصُ منه ، وكذلك أفعالُهم فيما عَلِمَ منهم أن يَفعَلُوه** » .

قال تعالى : ﴿ **إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ** ﴾ (التوبة : ١١٥) .

وقال سبحانه : ﴿ **وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً** ﴾ (الفتح : ٢٦) .

فالله تعالى موصوفٌ بأنه بكل شىء عليم ، أزلاً وأبَداً ، ولم يتقدم علمَه بالأشياء جهالة ، وما كان ربك نسياً .

العبرة بقضاء الله فى خواتيم الأعمال

وعن علىٍّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ قال : « كنا فى جنازة فى بقيع الغرْقد ، فأتانا رسول الله ـ ﷺ ـ فقعد وقعدنا حوله ، ومعه مخصرةٌ ، فنكس رأسَه ينكُتُ بمخصرته ، ثم قال : **ما من نفس منفوسة ، إلا وقد كتب الله مكانَها من الجنة والنار ، وإلا قد كُتبت شقيةً أو سعيدة** ، قال : فقال رجل : يا رسول الله ، أفلا نمكث على كتابنا وندَعُ العمل ؟ فقال : **من كان من أهل السعادة فسيصير إلى عمل أهل السعادة ، ومن كان من أهل الشقاوة فسيصير إلى عمل أهل الشقاوة ، ثم قال : اعملوا فكل ميسَّر لما خُلِق له ، أما أهل السعادة فسيُيَسَّرون لعمل**

أهل السعادة ، وأما أهل الشقاوة فسييُشَّرون لعمل أهل الشقاوة ، ثم قرأ : ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ﴾ .

خرجاه فى الصحيحين .

* قال : « **وكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له ، والأعمالُ بالخواتيمِ : السعيدُ من سَعِدَ بقضاء الله ، والشقىُّ من شَقِىَ بقضاء الله** » .

ففى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ قال : حدثنا رسول الله ـ ﷺ ـ وهو الصادق المصدوق :

« **إن أحدكم يُجمع خَلْقُه فى بطن أمه أربعين يوماً نطفةً ، ثم يكون علقةً مثلَ ذلك ، ثم يكون مضغةً مثلَ ذلك ، ثم يُرْسل إليه المَلَك فينفُخُ فيه الروح ، ويؤمر بأربع كلمات يكتب رزقه وأجله وعمله وشقياً أم سعيداً . فوالذى لا إله غيره : إن أحدكم ليعملُ بعمل أهل الجنة حتى ما يكونُ بينه وبينها إلا ذراع ، فيَسبق عليه الكتابُ فيعملُ بعمل أهل النار فيدخُلُها . وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النَار حتى ما يكونُ بينه وبينَها إلا ذراع ، فيسبِقُ عليه الكتاب ، فيعملُ بعملِ أهلِ الجنة فيدخُلُها** » .

والأحاديث فى هذا الباب كثيرة ، وكذلك الآثار عن السلف .

قال : أبو عمر بن عبد البر فى التمهيد : قد أكثَر الناسُ من تخريج الآثار فى هذا الباب ، وأكثر المتكلمون من الكلام فيه ، وأهل السُّنة مجتمعون على الإيمان بهذه الآثار واعتقادها وترك المجادلة فيها ، وبالله العصمة والتوفيق .

التعمق فى معرفة أصل القدر ذريعة الخذلان

* قال : « **وأصلُ القَدَر سرٌّ الله تعالى فى خَلْقه ، لم يَطّلع على ذلك مَلَكٌ مُقَرَّبٌ ، ولا نبىٌّ مُرسل ، والتعمُّق والنظر فى ذلك : ذريعة الخذْلان ، وسُلَّمُ الحرمان ، ودرجةُ الطغيان ، فالحَذَرَ كلَّ الحَذَر من ذلك ، نظراً وفكراً وَوَسْوَسَة ، فإن اللهَ تعالى طَوَى علمَ القدرِ عن أنامه ، ونهاهم عن مَرامِه ، كما قال تعالى فى**

كتابه : لا يُسألُ عما يفعلُ وهم يُسألون ، فمن سَألَ : لِمَ فعل ؟ فقد رَدَّ حكمَ الكتاَبِ ، ومن رَدَّ حُكم الكتابِ : كان من الكافرين » .

والذى عليه أهل السنة والجماعة : أن كل شىء بقضاء الله وقدره ، وخالف فى ذلك القدريةُ والمعتزلة ، وزعموا أن الله شاء الإيمان من الكاَفر ، ولكن الكافر شاء الكُفَر ، فوقعت مشيئةُ الكافر دون مشيئة الله تعالى ! وهذا من أقبح الاعتقاد ، وهو قول لا دليلَ عليه ، بل هو مخالف للدليل ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّى لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ** ﴾ (السجدة : ١٣) .

وقال تعالى : ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى السَّمَاءِ** ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

فرق بين المشيئة والرضا

ومنشأ الضلال : من التسوية بين المشيئة والإرادة ، وبين المحبة والرضا ، فسوى بينهما الجبرية والقدرية ، ثم اختلفوا فقالت الجبرية : الكون كلّه بقضاء الله وقَدَره ، فيكون محبوباً مرضياً ، وقالت القدرية النفاة : ليست المعاصى محبوبةً لله ولا مرضية له ، فليست مقدرةً ولا مقضية ، فهى خارجة عن مشيئته وخلقه .

وقد دل على الفرق بين المشيئة والمحبة : الكتابُ والسنةُ والفطرة الصحيحة .

أما نصوص المشيئة والإرادة من الكتاب فقد تقدم ذكرُ بعضها .

وأما نصوص المحبة والرضا فقال الله تعالى : ﴿ **وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الْفَسَادَ** ﴾ (البقرة: ٢٠٥) .

وقال سبحانه : ﴿ **وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ** ﴾ (الزمر : ٧) .

وفى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **إن الله كرِه لكم ثلاثاً : قيلَ وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال** » .

وفى المسند : « إن الله يحب أن يُؤخذَ برُخَصِه كما يكرهُ أن تؤتى معاصيه » .

فإن قيل : كيف يريد الله أمراً ولا يرضاه ولا يحبه ؟ وكيف يشاؤه ويكوْنه ؟ وكيف تجتمع إرادته وبغضه وكراهته ؟

قيل : هذا السؤال هو الذى افترق الناسُ لأجله فرَقاً وتباينت طُرُقهم وأقوالُهم، فاعلم أن المراد نوعان : مراد لنفسه ، ومرادَ لغيره ، فالمراد لنفسه مطلوبٌ محبوب لذاته وما فيه من الخير ، فهو مرادٌ إرادة الغايات والمقاصد ، والمراد لغيره : قد لا يكون مقصوداً لما يريد ، ولا فيه مصلحةٌ له بالنظر إلى ذاته ، وإن كان وسيلةً إلى مقصوده ومراده ، فهو مكروه له من حيثُ نفسه وذاته ، مرادٌ له من حيث قضاؤه وإيصاله إلى مراده ، فيجتمع فيه الأمران : بغضه وإرادته ، ولا يتنافيان ، لاختلاف متعلقهما ، وهذا كالدواء الكريه ، إذا علم المتناول له أن فيه شفاءه ، وقطع العضو المتآكل ، إذا علم أن فى قطعه بقاء جسده ، وكقطع المسافة الشاقة ، إذا علم أنها توصل إلى مراده ومحبوبه ، بل العاقل يكتفى فى إيثار هذا المكروه وإرادته بالظن الغالب وإن خفيت عنه عاقبته ، فكيف ممن لا يخفى عليه خافية ، فهو سبحانه يكره الشىء ، ولا ينافى ذلك إرادته لأجل غيره ، وكونه سبباً إلى أمرٍ هو أحبُّ إليه من فوقه .

من ذلك : أنه خلق إبليسَ ، الذى هو مادةٌ لفساد الأديان والأعمال والاعتقادات والإرادات وهو سبب لشقاوة كثير من العباد ، وعملهم بما يُغضب الرب سبحانه ، وهو الساعى فى وقوع خلاف ما يحبه الله ويرضاه ومع هذا فهو وسيلة إلى محابَّ كثيرةٍ للرب تعالى تَرتَّبتْ على خلقه ، ووجودُها أحبُّ إليه من عَدَمها .

منها : أنه يظهر للعباد قدرة الله تعالى على خلق المتضادات المتقابلات ، فخَلَق هذه الذَاتَ ، التى هى أخبث الذوات وشرُّها ، فى مقابلة ذات جبرائيل التى هى أشرف الذوات وأطهرها ، فتبارك خالق هذا وهذا ، كما ظهرت قدرته فى خلق الليل والنهار والداء والدواء ، والحُسْنِ والقبح ، وذلك دليل كمال قدرته .

ومنها : ظهورُ آثار أسمائه القهرية ، مثل : القهار ، والمنتقم ، وشديد العقاب وذى البطشِ الشديد ، فإن هذه الأسماءوالأفعال كمال ، لابد من وجود متعلقها

ولو كان الجن والإنس على طبيعة الملائكة لم يظهر أثر هذه الأسماء .

ومنها : ظهورُ آثار أسمائه المتضمنة عفَوه ومغفرته ، وقد أشار النبي - ﷺ - إلى هذا بقوله : « **لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم يذنبون ويستغفرون ، فيغفر لهم** » .

ومنها : حصول العبودية المتنوعة التي لولا خلْقُ إبليس لما حصلت فإن عبودية الجهاد من أحبِّ أنواع العبودية إليه سبحانه ، ولو كان الناس كلُّهم مؤمنين لتعطلت هذه العبودية وتوابعها ، من الموالاة لله سبحانه وتعالى والمعاداة فيه ، وعبودية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعبودية الصبر ، والتوبة .

فإن قيل : فهل كان يمكن وجودُ تلك الحكم بدون هذه الأسباب ؟

فهذا سؤال فاسد ! وهو فرض وجود الملزوم بدون لازمه ، كفرض وجود الحركة بدون المتحرك ، والتوبة بدون التائب .

فإن قيل : كيف يرضى لعبده شيئاً ولا يعينُه عليه ؟

قيل : لأن إعانته عليه قد تستلزم فوات محبوب له أعظم من حصول تلك الطاعة التي رضيها له ، وقد يكون وقوعُ تلك الطاعة منه يتضمن مفسدة هي أكرهُ إليه سبحانه من محبته لتلك الطاعة ، وقد أشار تعالى إلى ذلك بقوله : ﴿ **وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ** ﴾ (التوبة : ٤٦) .

فأخبر سبحانه أنه كره انبعاثهم إلى الغزو مع رسوله : وهو طاعته ، فلما كرهه منهم : ثبطهم عنه ، ثم ذكر سبحانه بعض المفاسد التي تترتب على خروجهم مع رسوله ، فقال : ﴿ **لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا** ﴾ (التوبة : ٤٧) .

أي فساداً وشراً .

﴿ **وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ** ﴾ (التوبة : ٤٧) .

أى سَعوا بينكم بالفساد ، وفيكم من يستجيب لهم ، فيتولد من سعى هؤلاء واستجابة هؤلاء من الشر ما هو أعظم من مصلحة خروجهم ، فاقتضت الحكمة والرحمة أن أقعدهم عنه ، فاجعل هذا المثال أصلاً وقس عليه .

هل نحن مأمورون بالرضا بكل مقضىّ

فإن قيل : إذا كان الكفر بقضاء الله وقدره ونحن مأمورون أن نرضى بقضاء الله ، فكيف نُنكره ونكرهه ؟

فالجواب : أن يقال أولاً : نحن غير مأمورين بالرضا بكل ما يقضيه الله ويقدّره ، ولم يرد بذلك كتاب ولا سنة ، بل من المقضىِّ ما يرضى به ، ومنَه ما يسخط ويمقت ، كما لا يرضى به القاضى لا قضيته سبحانه ، بل من القضاء ما يسخط ، كما أن من الأعيان المقضية ما يغضب عليه ويمقت ويلعن ويذم .

ويقال ثانياً : هنا أمران : قضاءُ الله ، وهو فعل قائم بذات الله تعالى ، ومقضى ، وهو المفعول المنفصل عنه ، فالقضاءُ كله خيرٌ وعدل وحكمة ، نرضى به كلَّه ، والمقضى قسمان : منه ما يرضى به ، ومنه ما لا يرضى به .

ويقال ثالثاً : القضاء له وجهان : أحدهُما تعلقُه بالرب تعالى ، فمن هذا الوجه ونسبته إليه : يُرضى به والوجه الثانى : تعلقه بالعبد ونسبتهُ إليه فمن هذا الوجه ينقسم إلى ما يُرضى به وإلى ما لا يُرضى به .

مثال ذلك : قتل النفس : له اعتباران : فمن حيثُ قدَّره الله وقضاه وكتبه وشاءه وجعله أجلاً للمقتول ، يرضى به ، ومن حيث صدر من القاتل وباشره وأقدم عليه باختياره وعصى الله بفعله : نسخطه ولا نرضى به .

حكم من سأل : لم فعل ؟

وقول الطحاوى: « فمن سأل لم فعل ؟ فقد رد حكم الكتاب ، ومن رد حكم الكتاب كان من الكافرين » قول صحيح ، فإن مبنى العبودية والإيمان بالله وكتبه ورسله : على التسليم وعدم الأسئلة عن تفاصيل الحكمة فى الأوامر والنواهى والشرائع ، ولهذا لم يَحْكِ الله سبحانه عن أمة نبىٍّ صدقت بنبيها وآمنتَ بما جاء به

أنها سألته عن تفاصيل الحكمة فيما أمرها به ونهاها عنه و بلغها ، ولو فعلت ذلك لما كانت مؤمنة بنبيها ، بل انقادت وسلمت وأذعنت ، وما عرفت من الحكمة : عرَفته وما خفى عنها : لم تتوقف فى انقيادها وتسليمها على معرفته ، ولهذا كان سلف هذه الأمة المحمدية - التي هى أكملُ الأمم عقولاً ومعارفَ وعلوماً - لا تسأل نبيها : لم أمر الله بكذا ؟ ولم قدَّر كذا ؟ لعلمهم أن ذلك مضاد للإيمان والاستسلام .

العلم علمان : علم موجود وآخر مفقود

• قال الطحاوى: « فهذا جُملةُ ما يَحتاجُ إليه مَن هو مُنوَّرٌ قلبُهُ من أولياء الله تعالى ، وهى دَرَجةُ الراسخينَ فى العلمِ ، لأنَّ العلمَ علمان : علْمٌ فى الخَلْقِ موجودٌ ، وعلمٌ فى الخَلقِ مفقودٌ ، فإنكارُ العلمِ الموجودَ : كُفْرٌ ، وَادِّعاءُ العلمَ المفقود : كفَرٌ ، ولا يثبُتُ الإيمانُ إلا بقبولِ العلمِ الموجودِ ، ترْكِ طَلَبِ العِلْمَ المفقود » .

والإشارة بقوله : (فهذا) إلى ما تقدم ذكره ، مما يجب اعتقاده والعملُ به ، مما جاءت به الشريعة .

وقوله : « وهى درجة الراسخين فى العلم » ، أى علم ما جاء به الرسول - ﷺ - جملة وتفصيلاً ، نفياً وإثباتاً .

ويعنى بالعلم المفقود : علم القدر الذى طواه الله عن أنامه ، ونهاهم عن مَرامه

ويعنى بالعلم الموجود : علمَ الشريعة ، أصولها وفروعها .

فمن أنكر شيئاً مما جاء به الرسول كان من الكافرين ، ومن ادَّعى علمَ الغيب كان من الكافرين .

قال تعالى : ﴿ **عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا (٢٧) لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا** ﴾ (الجن : ٢٦ : ٢٨) .

ولا يلزم من خفاء حكمة الله علينا عدمُها ، ولا من جهلنا انتفاءُ حكمته ، ألا ترى أن خفاء حكمة الله علينا فى خلق العقارب والحشرات - التى لا يعلم مَنها إلا

المضرة ـ لم ينف أن يكون الله تعالى خالقاً لها ، ولا يلزم أن لا يكون فيها حكمة خفيت علينا ، لأن عدم العلم لا يكون علماً بالمعدوم .

الإيمان باللوح والقلم

* قال : « **ونؤمنُ باللَّوْحِ والقَلَمِ ، وبجميعِ ما فيه قد رقَم** » .

فقد قال تعالى : ﴿ بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَّجِيدٌ (٢١) فِي لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴾ (البروج : ٢١ : ٢٢) .

واللوح المذكور هو الذى كَتب الله مقاديرَ الخلائق فيه ، والقلُم المذكور هو الذى خلقه الله وكتب به فى اللوح المذكور المقاديرَ ، كما فى سنن أبى داود ، عن عُبادة بن الصامت قال : سمعت رسول الله ـ ﷺ ـ يقول : « إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ، قال : يا رب وماذا أكتب ؟ قال : اكتب مقاديرَ كل شيءٍ حتى تقومَ السَّاعة » .

خلق العرش قبل القلم

واختلف العلماء : هل القلم أول المخلوقات أو العرش ؟ على قولين ، ذكرهما الحافظ أبو العلاء الهمدانى ، أصحُّهما : أن العرش قبل القلم ، لما ثبت فى الصحيح من حديث عبد الله بن عمرو قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة ، قال : وعرشه على الماء** » . فهذا صريح أن التقدير وَقع بعد خلق العرش ، والتقدير وقع عند أول خلق القلم ، بحديث عبادة هذا .

ولا يخلو قوله : « أول ما خلق الله القلم » إلى آخره : أما أن يكون جملة أو جملتين ، فإن كان جملة ـ وهو الصحيح ـ كان عناه : أنه عند أول خلقه قال له : «اكتب » كما فى اللفظ : « أولَ ما خلق الله القلمَ قال له اكتب » بنصب « أولَ » و «القلَمَ » وإن كان جملتين ـ وهو مروى ـ برفع « أولُ » و « القلم » فيتعين حمله على أنه أول المخلوقات من هذا العالم ، فيتفق الحديثان إذ حديث عبد الله بن عمرو صريح فى أن العرش سابق على التقدير ، والتقدير مقارن لخلق القلم .

فهذا القلم أول الأقلام وأفضلها وأجلها ، وقد قال غير واحد من أهل التفسير : إنه القلم الذى أقسم الله به فى قوله تعالى : ﴿ نٓ وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ ﴾ والقلم الثانى : قلم الوحى ، وهو الذى يكتب به الوحى إلى أنبيائه ورسله ، وأصحاب هذا القلم هم الحكام على العالم ، والأقلام كلها خدم لأقلامهم ، وقد رفع النبى - ﷺ - ليلة أسرى به إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام ، فهذه الأقلام هى التى تكتب ما يوحيه الله - تبارك وتعالى - من الأمور التى يدبّرها أمر العالم العلوى والسفلى .

عجز الخلق عن تغيير الكائن المقدر

* ثم قال أبو جعفر - رحمه الله - : « **فلو اجتمعَ الخلقُ كلُّهم على شيء كتبه الله تعالى أنه كائنٌ ، ليجعلوه غيرَ كائن ، لم يَقدروا عليه ، ولو اجتمعوا كلُّهمَ على شيء لم يكتبه اللهُ تعالى ، ليجعلوه كائناً : لم يقدروا عليهِ ، جفَّ القلمُ بما هو كائنٌ إلى يومِ القيامةِ** » .

وذلك فى حديث جابر عن رسول الله - ﷺ - قال : « جاء سُراقةُ بنُ مالك بن جُعشم فقال : يا رسول الله ، بيْن لنا ديننا كأننا خلقنا الآن : ففيم العمل اليوم ؟ أفيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير ؟ أم فيما استقبل ؟ قال : لا ، بل فيما جفت به الأقلام وجرت به المقادير » .

وعن ابن عباس - رضى الله عنه - قال :

« كنت خلف رسول الله - ﷺ - يوماً فقال : **يا غلام : ألا أعلمك كلمات !! احفظ الله يحفظك ، احفظ الله تجدْه تُجاهَك ، إذا سألت فاسال الله ، وَإذا استعنت فاستعن بالله ، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك إلا بشىء قد كتبه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشىءٍ لم يضرّوك إلا بشىءٍ قد كتبهَ الله عليك ، رفعت الأقلام ، وجفت الصحف** » .

رواه الترمذى وقال : حديث حسن صحيح .

وإذا علم العبد أن كلا من عند الله فالواجبُ إفرادُهُ سبحانه بالخشية والتقوى .

قال تعالى : ﴿ فَلا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ ﴾ (المائدة : ٤٤) .

وقال سبحانه : ﴿ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (النور : ٥٢) .

وقال بعض السلف : ما احتاج تقيٌّ قطُّ ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ② وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق : ٢ ـ ٣) .

فقد ضمن الله للمتقين أن يجعل لهم مخرجاً مما يَضيق على الناس ، وأن يرزقهم من حيث لا يحتسبون ، فإذا لم يحصل ذلك دل على أن فى التقوى خللاً ، فليستغفر الله وليتب إليه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(الطلاق : ٣) .

أى فهو كافيه غيرُ مُحْوِجه إلى غيره .

وقد ظن بعض الناس أن التوكل ينافى الاكتساب وتعاطى الأسباب ، وأن الأمور إذا كانت مقدرة فلا حاجة إلى الأسباب ، وهذا فاسد ، فإن الاكتساب منه فرض ، ومنه مستحب ، ومنه مباح ، ومنه مكروه ، ومنه حرام ، وقد كان النبى ـ ﷺ ـ أفضل المتوكلين يلبس لأمة الحرب ويمشى فى الأسواق للاكتساب حتى قال الكافرون : ﴿ مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان : ٧) .

ولهذا تجد كثيراً ممن يرى الاكتساب ينافى التوكل يرزقون على يد من يعطيهم ، إما صدقة ، وإما هدية .

* قال : « **وما أخطأ العبدَ لم يكنْ ليُصيبَه وما أصابَهُ لم يكنْ ليُخطِئه** » .

وهذا بناء على ما تقدم من أن المقدور كائن لا مَحالة .

تقدير المقادير قبل الخلق معلوم محكم

* قال : « **وعلى العبد أنْ يَعلَمَ أنَّ اللهَ قد سَبَقَ علمُه فى كلِّ كائنٍ من خَلْقه ، فقدَّرَ ذلك تقديراً مُحكماً مُبْرَماً ، ليسَ فيه ناقضٌ ، وَلا مُعقِّبٌ ولا مُزيلٌ ولا مُغَيِّرٌ ولا ناقصٌ ولا زائدٌ من خلقِه فى سماواتِه وأرْضِه** » .

وهذا بناء على ما تقدم من أن الله تعالى قد سبق علمه بالكائنات ، وأنه قدَّر مقاديرها قبل خلقها ، كما قال ـ ﷺ ـ : « **قدّر الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السموات والأراض بخمسين ألف سنة ، وعرشُه على الماء** » . فيعلم أن الله قد علم أن الأشياء تصير موجودة لأوقاتها ، على ما اقتضته حكمتُه البالغة ، فكانت كما علم ، فإن حصول المخلوقات على ما فيها من غرائب الحكم لا يتصور إيجادُها إلا من عالم قد سبق علمه على إيجادها .

قال تعالى : ﴿ **أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ** ﴾ (الملك : ١٤) .

وأنكر غلاة المعتزلة أن الله كان عالماً فى الأزل ، وقالوا : إن الله تعالى لا يعلم أفعال العباد حتى يفعلوا ! تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً .

القدر نظام التوحيد والإيمان

* قال : « **وذلك من عَقْد الإيمان وأُصول المعرفة والاعتراف بتوحيد الله تعالى وربوبيّته ، كما قالَ تعالى فى كِتابه : وخلَقَ كلَّ شىءٍ فقدّرهُ تقديراً ، وقال تَعالى : وكان أمرُ الله قَدَراً مَقْدُوراً** » .

فعن ابن عباس ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : « **القَدرَ نظام التوحيد ، فمن وحَّد الله وكذّب بالقدر نقض تكذيبُه توحيدَه** » .

وهذا لأن الإيمان بالقَدر يتضمن الإيمان بعلم الله القديم وما أظهر من علمه الذى لا يحاط به ، وكتابه مقادير الخلائق ، وقد ضل فى هذا الموضع خلائقُ من المشركين والصابئين والفلاسفة وغيرهم ، ممن ينكر علمه بالجزئيات أوبغير ذلك ، فإن ذلك كلَّه مما يدخل فى التكذيب بالقدر ، وأما قدرة الله على كل شىء فهو الذى يكذب به القدرية جملة ، حيث جعلوه لم يخلق أفعال العباد ، فأخرَجوها عن قدرته وخلقه .

والقدر ـ الذى لا ريب فى دلالة الكتاب والسنة والإجماع عليه ، وإن الذين جحدوه هم القدرية المحضة بلا نزاع ـ هو ما قدره الله من مقادير العباد ، وعامة ما يوجد من كلام الصحابة والأئمة فى ذم القدرية يعنى به هؤلاء .

* قال : « **فويلٌ لمنْ صارَ قلبُه فى القَدَر قلباً سقيماً ، لقد التمسَ بوهمِه فى فَحْص الغيبِ سِرًا كتيماً ، وعادَ بما قالَ فيه أفّاكاً أثيماً** » .

اعلم أن القلب له حياة وموت ، ومرض وشفاء ، وذلك أعظم مما للبدن ، قال تعالى : ﴿ **أَوَ مَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا** ﴾ (الأنعام : ١٢٢) .

أى كان ميتاً بالكفر فأحييناه بالإيمان ، فالقلب الصحيح الحى إذا عُرِض عليه الباطل والقبائحُ نفَرَ منها بطبعه وأبغضها ولم يلتفت إليها ، بخلاف القلب الميت فإنه لا يفرق بين الحَسَن والقبيح ، كما قال عبد الله بن مسعود : « هلك من لم يكن له قلب يعرف به المعروف والمنكر » وكذلك القلب المريض بالشهوة فإنه لضعفه يميل إلى ما يعرض له من ذلك ، بحسب قوة المرض وضعفه .

ومرض القلب نوعان : مرضُ شَهوة، ومرضُ شبهة ، وأردؤها : مرض الشبهة ، وأردأ الشُّبَه : ما كان من أمر القدر ، وقد يَمرض القلب ويشتد مرضه ولا يشعر به صاحبه ، لاشتغاله وانصرافه عن معرفة صحته وأسبابها ، بل قد يموت وصاحبه لا يشعر بموته ، وعلامة ذلك أنه لا تؤلمه جراحات القبائح ، ولا يوجعه جهله بالحق وعقائده الباطلة ، فإن القلب إذا كانت فيه حياة : تألم بورود القبيح عليه ، وتألم بجهله بالحق بحَسب حياته .

ما لجُرحٍ بميتٍ إيلامُ

وقد يشعر بمرضه ، ولكنه يشتد عليه تحملُ مرارة الدواء والصبر عليها ، فيؤثر بقاء ألمه على مشقة الدواء ، فإن دواءَهُ فى مخالفة الهوى ، وذلك أصعب شىء فى النفس ، وليس له أنفعُ منه ، وتارة يوطن نفسه علَى الصبر ، ثم ينفسخ عزمه ولا يستمر معه ، لضعف علمه وبصيرته وصبره ، كمن دخل فى طريق مَخُوف مُفض إلى غاية الأمن ، وهو يعلم أنه إن صَبر عليه انقضى الخوف وأعقبه الأمنُ ، فهوَ محتاج إلى قوة صبر وقوة يقين بما يصير إليه ، ومتى ضعف صبره ويقينه : رجع من الطريق ولم يتحملْ مشقتها ، ولا سيما إنْ عُدم الرفيقَ واستوحش من الوحدة ، وجعل يقول : أين ذهب الناس فلى أسوة بهم ! وهذه حال أكثر الخلق ، هى التى

أهلكتهم ، فالصابر الصادق لا يستوحش من قلة الرفيق ولا من فَقده إذا استشعر قلبه مرافَقةَ الرعيلِ الأول :

﴿ الَّذين أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ (النساء : ٦٩) .

لزوم اتباع الحق عاصم عن الشبه فى أمر القدر

وما أحسنَ ما قال أبو محمد عبدُ الرحمن بن إسماعيل ، المعروف بأبى شامة ، فى كتاب « الحوداث والبدع » : حيث جاء الأمر بلزوم الجماعة ، فالمراد : لزوم الحق واتباعُه ، وإن كان المتمسك به قليلاً والمخالف له كثيراً ، لأن الحق هو الذى كانت عليه الجماعة الأولى من عهد النبى ـ ﷺ ـ وأصحابه ، ولا ننظر إلى كثرة أهل الباطل بعدهم .

وعن الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ أنه قال : السنَّة ـ والذى لا إله إلا هو ـ بين الغالى والجافى ، فاصبروا عليها رحمكم الله ، فإن أهل السنة كانوا أقلّ الناس فيما مضى ، وهم أقل الناس فيما بقى ، الذين لم يذهبوا مع أهل الإتراف فى إترافهم ، ولا مع أهلِ البدع فى بدعتهم ، وصبروا على سنتهم حتى لقوا ربهم ، فكذلك فكونوا .

وعلامة مرض القلب : عدولُه عن الأغذية النافعة الموافقة ، إلى الأغذية الضارة ، وعدولُه عن دوائه النافع ، إلى دوائه الضار منها هنا أربع أشياء : غذاء نافع ، ودواء شاف ، وغذاء ضار ، ودواء مهلك ، فالقلب الصحيح يؤثر النافعَ الشافى على الضارّ المؤذى ، والقلب المريض بضد ذلك ، وأنفعُ الأغذية : غذاءُ الإيمان ، وأنفعُ الأدوية : دواءُ القرآن ، و كل منهما فيه الغذاءُ والدواء ، فمن طلب الشفاء فى غير الكتاب والسنة فهو من أجهل الجاهلين وأضلِّ الضالين ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِن مَّكَانٍ بَعِيدٍ ﴾ (فصلت : ٤٤) .

وقال تعالى : ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلاَّ خَسَارًا ﴾ (الإسراء : ٨٢) .

و ﴿ مِنَ ﴾ فى قوله : ﴿ مِنَ الْقُرْآنِ ﴾ لبيان الجنس ، لا للتبعيض .

الإيمان بالعرش والكرسى

• **قال الطحاوى :** « والعَرْشُ والكُرسىّ حَقٌّ » .

وذلك كما بين الله تعالى فى كتابه :

قال تعالى : ﴿ ذُو الْعَرْشِ الْمَجِيدُ (١٥) فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴾ (البروج : ١٥ـ١٦) .

وقال سبحانه : ﴿ رَفِيعُ الدَّرَجَاتِ ذُو الْعَرْشِ ﴾ (غافر : ١٥) .

وقال عز وجل : ﴿ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ ﴾ (طـه : ٥) .

وقال تعالى : ﴿ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ﴾ (النمل : ٢٦) .

وفى صحيح البخارى عن رسول الله ـ ﷺ ـ أنه قال :

« **إذا سألتم الله الجنة فاسألوه الفردوس ، فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، وفوقه عرش الرحمن** » .

وقد ثبت أن له قوائم تحمله الملائكة ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : « **إن الناس يصُعقون ، فأكون أول من يُفيق ، فإذا أنا بموسى آخذ بقائمة من قوائم العرش ، فلا أدرى أفاق قبلى ؟ أم جُوزى بصعقة الطور ؟** » رواه البخارى ومسلم .

والعرش فى اللغة : عبارة عن السرير الذى للملك ، كما قال تعالى عن بلقيس : ﴿ولها عرش عظيم ﴾ .

العرش غير الكرسى

وأما من حَرَّف كلام الله ، وجعل العرش عبارةً عن المُلْك ، كيف يصنع بقوله تعالى : ﴿ وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ ﴾ (١٧/ الحاقة) .

وبقوله تعالى : ﴿ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ ﴾ (هود : ٧) .

أيقول : ويحمل ملكه يومئذ ثمانية ؟ وكان ملكه على الماء ؟ ويكون موسى - عليه السلام - آخذاً بقائمة من قوائم الملك ؟ هل يقول هذا عاقل يدرى مايقول ؟

وأما الكرسى فقال تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ (البقرة : ٢٥٥) .

وقد قيل : هو العرش ، والصحيح أنه غيره . نقل ذلك عن ابن عباس - رضى الله عنهما - وغيره .

روى ابن أبى شيبة فى كتاب « صفة العرش » والحاكم فى مستدركه ، وقال : إنه على شرط الشيخين البخارى ومسلم ولم يخرجاه ، عن سعيد بن جبير ، عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ ﴾ أنه قال : « **الكرسى موضع القدمين ، والعرش لايقدر قدره إلا الله تعالى** » وقد روى مرفوعاً إلى النبى - ﷺ - والصواب أنه موقوف على ابن عباس .

وقال غير واحد من السلف : هو بين يدى العرش كالمرقاة إليه .

غناه سبحانه عن خلقه

* قال : « **وهومستغن عن العرش وما دونه ، محيط بكل شىء وفوقه ، وقد أعجز عن الإحاطة خلقه** » .

أما قوله : « **وهو مستغن عن العرش وما دونه** » فقال تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ (العنكبوت : ٦) .

وإنما قال الشيخ - رحمه الله - هذا الكلام هنا ، لأنه لما ذكر العرش والكرسى ذكر بعد ذلك غناه سبحانه عن العرش وما دون العرش ، ليبين أن خلقه للعرش لاستوائه عليه ، ليس لحاجته إليه ، بل له فى ذلك حكمةٌ اقتضته ، وكون العالى فوقاً للسافل لايلزم أن يكون السافل حاوياً للعالى ، محيطاً به ، حائلاً له ، ولا أن يكون الأعلى مفتقراً إليه فانظر إلى السماء كيف هى فوق الأرض وليست مفتقرة إليها ؟ فالرب تعالى أعظم شأناً وأجل أن يلزم من عُلوه ذلك ، بل لوازمُ عُلوه من

خصائصه ، وهى حَملُه بقدرته للسافل ، وفقر السافل وغناه هو سبحانه عن السافل ، وإحاطته ـ عز وجل به ـ فهو فوق العرش مع حمله بقدرته للعرش وحملته ، وغناه عن العرش وفقر العرش إليه وإحاطته بالعرش وعدم إحاطة العرش به ، وحصره العرش وعدمَ حصر العرش له ، وهذه اللوازمُ منتقية عن المخلوق .

ونُفاة العُلوّ ، أهلُ التعطيل ، لو فَصَّلوا بهذا التفصيل ، لُهدوا إلى سواء السبيل وعلموا مطابقة العقل للتنزيل ، ولسلكوا خلف الدليل ، ولكن فارقوا الدليل ، فضلّوا عن سواء السبيل ، والأمر فى ذلك كما قال الإمام مالك ـ رحمه الله ـ الاستواء معلوم ، والكيف مجهول .

إثبات إحاطة العظمة والفوقية

وأما قوله : «محيط بكل شئ وفوقه» فمعناه : أنه تعالى محيط بكل شئ وفوق كل شئ فقد قام الدليل على أن العرش فوق المخلوقات ، وليس فوقه شئ من المخلوقات .

أما كونه محيطاً بكل شئ فذلك قوله تعالى : ﴿ **وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطًا** ﴾ (النساء : ١٢٦) .

وليس المراد من إحاطته بخلقه أنه كالفلك ، وأن المخلوقات داخل ذاته المقدسة تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً ، وإنما المراد : إحاطة عظمته : وسعةُ علمه وقدرته ، وإنها بالنسبة إلى علمه كخردلة .

وأما كونه فوق المخلوقات فذلك ثابت ، وقد صرحت بالفوقية آياتٌ عديدة وأحاديث صحيحة

قال تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ (الأنعام : ١٨) .

وقال سبحانه : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ (النحل : ٥٠) .

وعن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **لما قضى الله**

الخلق كتبَ في كتاب فهو عنده فوق العرش : **إن رحمتي سبقت غضبي** » رواه البخاري وغيره .

وفي قصة سعد بن مُعاذ يوم بني قريظة ، لما حكم فيهم أن تقتل مقاتلتهم وتسبى ذراريهم ، قال النبي ـ ﷺ ـ : « **لقد حكمت فيهم بحكم الملك من فوق سبع سموات** » وهو حديث صحيح أخرجه الأموي في مغازيه ، وأصله في الصحيحين .

وروى البخاري عن زينب ـ رضي الله عنها ـ أنها كانت تفخر على أزواج النبي ـ ﷺ ـ وتقول : « زوجكن أهاليكن ، وزوجني الله من فوق سبع سموات » .

وعن عمر ـ رضي الله عنه ـ أنه مرّ بعجوز فاستوقفته ، فوقف معها يحدثها ، فقال رجل : يا أمير المؤمنين : حبستَ الناسَ بسبب هذه العجوز ! فقال : ويلك ! أتدري من هذه ؟ امرأة سمع الله شكواها من فوق سبع سموات ، هذه خولةُ التي أنزل الله فيها : ﴿ **قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ** ﴾ أخرجه الدارمي .

ثمانية عشر نوعاً من الأدلة لذلك

ومن سمع أحاديث الرسول ـ ﷺ ـ وكلام السَّلَف : وجد منه في إثبات الفوقية ما لا ينحصر ، والنصوصُ الواردة المتنوعة المحكمة على علو الله على خلقه وكونه فوق عباده : تقرب من عشرين نوعاً .

الأول : التصريحُ بالفوقية مقروناً بأداة « من » المعينة للفوقية بالذات ، كقوله تعالى : ﴿ **يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ** ﴾ .

الثاني : ذكرها مجردة عن الأداة ، كقوله تعالى : ﴿ **وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ** ﴾ .

الثالث : التصريح بالعُروج ، نحو : ﴿ **تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ** ﴾ (المعارج : ٤) .

الرابع : التصريح بالصعود إليه ، كقوله تعالى : ﴿ **إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ** ﴾ (فاطر : ١٠) .

الخامس : التصريحُ برفعه بعض المخلوقات إليه ، كقوله تعالى : ﴿ بَل رَّفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ ﴾ (النساء : ١٥٨) .

وقوله : ﴿ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ ﴾ (آل عمران : ٥٥) .

السادس : التصريح بالعلو المطلق ، الدالِّ على جميع مراتبِ العلو ، ذاتاً وقدراً وشرفاً ، كقوله تعالى : ﴿ وهو العلى العظيم ﴾ .

السابع : التصريح بتنزيل الكتاب منه ، كقوله تعالى : ﴿ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ (غافر : ٢) .

وقوله : ﴿ تَنزِيلٌ مِّنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ (فصلت : ٢) .

وقوله : ﴿ قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ ﴾ (النحل : ١٠٢) .

الثامن : التصريح باختصاص بعض المخلوقات بأنها عنده ، وأن بعضها أقرب إليه من بعض ، كقوله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ ﴾ (الأعراف : ٢٠٦) .

وقوله : ﴿ وَلَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَنْ عِندَهُ ﴾ (الأنبياء : ١٩) .

ففرق بين « من له » عموماً ، وبين « من عنده » من ملائكته وعبيده خصوصاً .

التاسع : التصريح بأنه تعالى فى السماء ، كقوله : ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً ﴾ (الملك : ١٧) .

العاشر : التصريح بالاستواء على العرش الذى هو أعلى المخلوقات .

الحادى عشر : التصريحُ برفع الأيدى إلى الله تعالى ، كقوله ـ ﷺ ـ : « إن الله يستحى من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً » .

الثانى عشر : التصريح بنزوله كلَّ ليلة إلى سماء الدنيا .

الثالث عشر : الإشارة إليه حساً إلى العلو ، كما أشار إليه من هو أعلم بربه ، محمد ـ ﷺ ـ لما كان بعرفة ، فرفع إصبعه الكريمة إلى السماء وقال : « اللهم اشهد » .

الرابع عشر : التصريح بلفظ « أين » فقد قال النبى ـ ﷺ ـ للفتاة : « أين الله ؟ »

الخامس عشر : شهادته - ﷺ - لمن قال : إن ربه فى السماء بالإيمان .

السادس عشر : إخبارُه تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى فيكذِّبه فيم أخبر من أنه سبحانه فوق السموات ، فقال : ﴿ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا ﴾ (غافر : ٣٦-٣٧) .

السابع عشر : إخبارُه - ﷺ - أنه تردد بين موسى - عليه السلام - وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة ، فيصعد إلى ربه ثم يعود إلى موسى عدةَ مرار .

الثامن عشر : النصوصُ الدالة على رؤية أهل الجنة له تعالى : من الكتاب والسنة ، فهم يرونه من فوقهم ، كما قال النبى - ﷺ - : « **بينا أهل الجنة فى نعيمهم إذ سطع لهم نور ، فرفعوا رؤوسهم فإذا الجبار جلَّ جلاله قد أشرف عليهم من فوقهم وقال : يا أهل الجنة : سلام عليكم** » رواه الإمام أحمد فى المسند وغيره .

ولا يتم إنكارُ الفوقية إلا بإنكار الرؤية ، ولهذا طَرَد الجهميةُ الشقين ، وصدَّق أهل السنة بالأمرين معاً .

وهذه الأنواع من الأدلة لو بُسطت أفرادها لبلغت نحوَ ألف دليل ، فعلى المتأول أن يجيب عن ذلك كله ، وهيهات له بجواب صحيح .

رد على المتأولين

ومن تأول « فوق » بأنه خير من عباده وأفضل منهم ، وأنه خير من العرش وأفضل منه ، كما يقال الأمير فوق الوزير ، والدينار فوق الدرهم ، فذلك مما تنفر عنه العقول السليمة ، فإن قول القائل ابتداء : الله خير من عباده : من جنس قوله : الثلج بارد ، والنار حارة ، ورسول الله أفضل من اليهود ، وليس فى ذلك تمجيد ولا تعظيم .

وإنما يثبت هذا المعنى من الفوقية فى ضمن ثبوت الفوقية المطلقة من كل وجه ، فله سبحانه وتعالى فوقيةُ القهر ، وفوقيةُ الذات ، ومن أثبت البعض ونفى البعض فقد تنقَّص ، وعلوه تعالى مطلق من كل الوجوه .

فإن قيل : المراد علوه فى القلوب ، قيل : وكذلك هو ، وهذا العلو مطابق لعلوه فى نفسه على كل شىء ، فإن لم يكن عالياً بنفسه على كل شىء : كان علوه فى القلوب غيرَ مطابق .

وعلوه سبحانه كما هو ثابت بالسمع تروية النصوص : ثابت بالفطرة ، كما ذكر محمد بن طاهر المقدسى أن الشيخ أبا جعفر الهمدانى حضر مجلس الأستاذ أبى المعالى الجوينى المعروف بإمام الحرمين ، وهو يتكلم فى نفى صفة العلو ، ويقول : كان الله ولا عرش وهو الآن على ما كان ، فقال الشيخ أبو جعفر أخبرنا يا أستاذ عن هذه الضرورة التى نجدها فى قلوبنا ، فإنه ما قال عارف قطّ : يا اللهَ ، إلا وجد فى قلبه ضرورة طلب العلو ، لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، فكيف ندفع هذه الضرورة عن أنفسنا ؟ قال : فلطم أبو المعالى على رأسه ونزل ، وأظنه قال : وبكى ، وقال : حيرنى الهمدانى ، حيرنى . أراد الشيخ ، أن هذا أمر فطر الله عليه عباده ، من غير أن يتلقَّوه من المرسلين ، يجدون فى قلوبهم طلباً ضرورياً يتوجه إلى الله ويطلبه فى العلو .

واعترض على الدليل الفطرى : أن ذلك إنما كان لكون السماء قبلةً للدعاء ، كما أن الكعبة قبلة للصلاة ، ثم هو منقوض بوضع الجبهة على الأرض مع أنه ليس فى جهة الأرض .

وأجيب عن هذا الاعتراض من وجوه :

أحدها : أن قولكم : إن السماء قبلة الدعاء : لم يقله أحد من سلف الأمة ، ولا أنزل الله به من سلطان ، وهذا من الأمور الشرعية الدينية ، فلا يجوز أن يخفى على جميع سلف الأمة وعلمائها .

الثانى : أن قبلة الدعاء هى قبلة الصلاة ، وكان النبى ـ ﷺ ـ يستقبل القبلة فى دعائه .

وأما النقض بوضع الجبهة فما أفسده من نقض ، فإن واضع الجبهة إنما قصده الخضوع لمن فوقه بالذل له ، لا بأن يميل إليه إذا هو تحته ، هذا لا يخطر فى قلب ساجد .

وقول الطحاوى : « **وقد أعجز عن الإحاطة خلقه** » . أى لا يحيطون به علماً ولا رؤية .

المحبة والتكليم كما يليق به سبحانه

• **قال الطحاوى : « ونقولُ : إن الله اتَّخذ إبراهيم خيلاً ، وكلَّم اللهُ موسى تكليماً ، إيماناً وتصديقاً وتسليماً »** .

وذلك لقول الله تعالى : ﴿ وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً ﴾ (النساء : ١٢٥) .

وقال سبحانه : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيماً ﴾ (النساء : ١٦٤) .

والخُلّة : كمال المحبة .

وأنكرت الجهمية حقيقةَ المحبة من الجانبين ، زعماً منهم أن المحبة لا تكون إلا لمناسبة بين المحب والمحبوب ، وأنه لا مناسبة بين القديم والمحدث توجب المحبة ! وكذلك أنكروا حقيقة التكليم ، كما تقدم ، وعندنا أن محبته وخلته كما يليق به تعالى ، كسائر صفاته .

ويشهد لما دلتّ عليه الآية الكريمة ما ثبت فى الصحيح عن أبى سعيد الخدرى ، عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **لو كنت متخذاً من أهل الأرض لا تخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله** » يعنى نفسه . وفى رواية : « **إن الله اتخذنى خليلا كما اتخذ إبراهيم خليلاً** » .

مع أنه ـ ﷺ ـ قد وصف نفسه بأنه يحب أشخاصاً كقوله لمعاذ بن جبل : « والله إنى لأحبك » وكذلك قوله للأنصار ، فعُلم أن الخلة أخصٌ من مطلق المحبةَ ، والمحبوب بها يكون محبوباً لذاته ، لا لشىء آخر ، إذ المحبوبُ لغيره هو مؤخر فى الحب عن ذلك الغير .

الإيمان بالملائكة والنبيين والكتب

* قال : « **ونؤمن بالملائكةِ والنبيين ، والكتبِ المنزلة على المرسَلين ، ونَشهدُ أنهم كانوا على الحقِّ المبينِ** » .

وهذه الأمور من أركان الإيمان .

قال تعالى : ﴿ **آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ** ﴾ (البقرة : ٢٨٥) .

وقال تعالى : ﴿ **لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ** ﴾ (البقرة : ١٧٧) .

فجعل الله ـ سبحانه وتعالى ـ الإيمان بهذه الجملة ، وسمى من آمن بهذه الجملة ، مؤمنين ، كما جعل الكافرين من كفر بهذه الجملة ، فقال : ﴿ **وَمَن يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً** ﴾ (النساء : ١٣٦) .

وقال ـ ﷺ ـ في الحديث المتفق على صحته ، حديث جبريل وسؤاله للنبي ـ ﷺ ـ عن الإيمان فقال : « **أن تؤمنَ بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وتؤمنَ بالقَدَر خيره وشره** » .

ولهذا كانت الآيتان من آخر سورة البقرة لهما شأن عظيم ليس لغيرهما ، ففي الصحيحين عن أبي مسعود عقبة بن عمرو ـ رضي الله عنه ـ عن النبي ـ ﷺ ـ قال : « **من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة في ليلة كَفَتَاه** » .

وقد دل الكتاب والسنة عن أصناف الملائكة وأنها موكلة بأصناف المخلوقات ، منهم ملائكةُ الرحمة ، ومنهم ملائكةُ العذاب ، وملائكة قد وكلوا بحَمْل العرش ، وملائكةٌ قد وكلوا بالتسبيح والتقديس إلى غير ذلك .

ولفظ « الَملكَ » يُشعر بأنه رسول منفِّذ لأمر مرسله ، فليس لهم من الأمر شيء ، بل الأمر كلُّه لله الواحد القهار ، وهم ينفذون أمره .

﴿ لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ ﴾ (الأنبياء : ٢٧) .

فهم عباد مكرمون ، منهم الصافّون من حول العرش ، ومنهم المسبحون ، ليس منهم إلا له مقامٌ معلوم ، ولا يتخطاه وهو على عملٍ قد أمر به ، لا يقصر عنه ولا يتعداه ، وأعلاهم : الذين عنده : ﴿ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُرُونَ ﴾ (الأنبياء : ١٩ ـ ٢٠) .

ومنهم الأملاك الثلاثة : جبرائيلُ وميكائيلُ وإسرافيلُ ، الموكلون بالحياة ، فجبرائيل موكل بالوحى الذى به حياة القلوب والأرواح ، وميكائيلُ موكلٌ بالقطر الذى به حياةُ الأرض والنبات والحيوان ، وإسرافيلُ موكل بالنفخ فى الصور الذى به حياةُ الخلق بعد مماتهم ، فَهم رسل الله فى خلقه وأمره ، وسفراؤه بينه وبين عباده .

والقرآن مملوء بذكر الملائكة وأصنافهم ومراتبهم ، فتارةً يقرن الله تعالى اسمَه باسمهم ، وصلاته بصلاتهم ، ويُضيفهم إليه فى مواضع التشريف ، وتارة يذكر حفّهم بالعرش وحملهم له ، ومراتبَهم من الدنو ، وتارة يصفهم بالإكرام والكرم ، والتقريب والعلو والطهارة والقوة والإخلاص .

قال تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ﴾ (الأحزاب : ٤٣) .

وقال سبحانه : ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا ﴾ (غافر : ٧) .

وقال عز وجل : ﴿ وَتَرَى الْمَلائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم ﴾ (الزُّمر : ٧٥) .

وقال تعالى : ﴿ فَإِنِ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لا يَسْأَمُونَ ﴾ (فصلت : ٣٨) .

وقال تعالى : ﴿ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴾ (الإنفطار : ١١) .

وقال سبحانه : ﴿ يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ ﴾ (المطففين : ٢١) .

وكذلك الأحاديثُ طافحةٌ بذكرهم ، ولهذا كان الإيمان بالملائكة أحد الأصول الخمسة التى هى أركان الإيمان .

أما الأنبياء والمرسلون فعلينا الإيمان بمن سمى الله تعالى فى كتابه من رسله ، والإيمان بأن الله تعالى أرسل رسلاً سواهم وأنبياء ، لا يعلم أسماءهم وعددَهم إلا اللهُ تعالى الذى أرسلهم فعلينا الإيمانُ بهم جملة ، لأنه لم يأت فى عددهم نص .

قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ ﴾ (غافر : ٧٨) .

وعلينا الإيمان بأنهم بلّغوا جميع ما أرسلوا به ، على ما أمرهم الله به ، وأنهم بينوه بياناً لا يسَع أحداً ممن أرسلوا إليه جهله ، ولا يحل خلافه .

وأما أولو العزم من الرسل فقد قيل فيهم أقوال ، أحسنها ما نقله البغوى وغيرُه عن ابن عباس وقتادة : إنهم : نوحُ ، وإبراهيم ، وموسى ، وعيسى ، ومحمدٌ ، - صلوات الله وسلامه عليهم - قال : وهم المذكورون فى قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﴾ (الأحزاب : ٧) .

ومن قوله تعالى : ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ﴾ (الشورى : ١٣) .

وأما الإيمان بمحمد - ﷺ - فتصديقه واتباع ما جاء به من الشرائع إجمالاً وتفصيلاً .

وأما الإيمان بالكتب المنزلة على المرسلين فنؤمن بما سمى الله تعالى منها فى كتابه ، من التوراة والإنجيل والزبور ، ونؤمن بأن الله تعالى سوى ذلك كتباً أنزلها على أنبيائه ، لا يعرف أسماءَها وعددَها إلا اللهُ تعالى .

وأمام الإيمان بالقرآن ، فالإقرار به ، واتباعُ ما فيه ، وذلك أمر زائد على الإيمان بغيره من الكتب ، فعلينا الإيمان بأن الكتب المنزلة على الرسل أتتهم من عند

الله ، وأنها حق وهدى ونورٌ وبيان وشفاء . قال تعالى : ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ (البقرة : ١٣٦) .

المسلم العاصى غير المكذب : مؤمن

* قال : « **ونُسَمِّى أهلَ قبلتنا مسلمين مؤمنين ، ما داموا بما جاء به النبىُّ - ﷺ - مُعترفين ، وله بكلِّ ما قاله وأخبرَ مصدِّقين** » .

فقد قال رسول الله - ﷺ - : « **مَن صلى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكلَ ذبيحتنا ، فهو المسلم ، له ما لنا وعليه ما علينا** » .

ويشير الشيخ - رحمه الله - بهذا الكلام إلى أن الإسلامَ والإيمانَ واحد ، وأن المسلم لا يخرج من الإسلام بارتكاب الذنب ، ما لم يستحلَّه ، والمراد بقوله : «أهل قبلتنا » من يدّعى الإسلام ويستقبلُ الكعبة وإن كان من أهل الأهواء أو من أهل المَعاصى ، ما لم يكذّب بشىء مما جاء به الرسول - ﷺ - .

* قال : « **ولا نخوضُ فى اللهِ ، ولا نُمارى فى دينِ الله** » .

ويشير الشيخ بهذا إلى الكف عن كلام المتكلمين الباطلِ ، وذمِّ علمهم ، فإنهم يتكلمون فى الإله بغير علم وغير سلطان أتاهم .

قال أبو حنيفةَ - رحمه الله - لا ينبغى لأحد أن ينطِقَ فى ذات الله بشىء ، بل يصفه بما وصف به نفسه .

وقوله : « ولا نمارى فى دين الله » معناه لا نخاصم أهل الحق بإلقاء شبهات أهل الأهواء عليهم ، لأنه فى معنى الدعاء إلى الباطل ، وتلبيسِ الحق ، وإفسادَ دين الإسلام .

اتباع السلف الصالح فى مسألة خلق القرآن

• قال : « **ولا نُجادلُ فى القرآن ، ونشهدُ أنه كلامُ ربِّ العالمين ، نَزَل به الروحُ الأمينُ ، فعلَّمَه سيِّد المرسلين محمداً - ﷺ - وهو كلامُ اللهِ تعالى ، لا يساويه**

شيءٌ من كلامِ المخلوقين ، ولا نقولُ بَخلْقِه ، ولا نُخالفُ جماعةَ المسلمين » .

وقوله : « نزل به الروح الأمين » : هو جبرائيل ـ عليه السلام ـ سُمَى روحاً لأنه حاملُ الوحى الذى به حياةُ القلوب إلى الرسل من البشر ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ وهو أمينٌ حَقٌّ أمين ـ صلوات الله عليه ـ .

قال تعالى : ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ (١٩٣) عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ (١٩٤) بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ** ﴾ (الشعراء : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥) .

وقال تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (١٩) ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى الْعَرْشِ مَكِينٍ (٢٠) مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ** ﴾ (التكوير : ١٩ ، ٢٠ ، ٢١) .

وهذا وصفُ جبرائيل ، بخلاف قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ (٤٠) وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ** ﴾ (الحاقة : ٤٠ ، ٤١) .

فإن الرسول هنا هو محمدٌ ـ ﷺ ـ .

وقوله : « ولا نقول بَخْلقه ، ولا نخالفُ جماعة المسلمين » . تنبيهٌ على أن من قال بخلق القرآن فقد خالف جماعة المسلمين ، فإن سلفَ الأمة كلهم متفقون على أنه كلام الله بالحقيقة غيرُ مخلوق .

رد على الخوارج والمرجئة والمعتزلة

• قال : « **ولا نُكفِّرُ أحداً من أهل القبلة بذنبٍ ، ما لم يَستحِلَّه ، ولا نقولُ : لا يُضرُّ مع الإيمان ذَنبٌ لمنَ عمله** » .

وأراد بأهلِ القبلة الذينَ تقدم ذكرهم فى قوله : « ونسمى أهل قبلتنا مسلمين »

ويشير الشيخ ـ رحمه الله ـ بهذا الكلام إلى الرد على الخوارج القائلين بالتكفير بكل ذنب .

المذنب غير المستحل : مسلم

واعلم ـ رحمك الله وإيانا ـ أن باب التكفير وعدم التكفير بابٌ عظُمت الفتنة

والمحنة فيه ، وكثُر فيه الافتراق ، وتشتتتْ فيه الأهواء والآراء ، وتعارضت فيه دلائلهم ، فالناس فيه - فى جنس تكفير أهل المقالات والعقائد الفاسدة المخالفة للحق الذى بعث الله به رسولَه فى نفس الأمر ، والمخالفة لذلك فى اعتقادهم - على طرفين ووسط ، من جنس الاختلاف فى تكفير أهل الكبائر العملية .

فطائفةٌ تقول : لا نكفر من أهل القبلة أحداً ، فتنفى التكفير نفياً عاماً ، مع العلم بأن فى أهل القبلة المنافقين ، الذين فيهم من هو أكفرُ من اليهود والنصارى ، وأيضاً : فلا خلافَ بين المسلمين أن الرجل لو أظهر إنكارَ الواجبات الظاهرة المتواترة ، والمحرمات الظاهرة المتواتراة ، نحوَ ذلك ، فإنه يُستتاب ، فإَن تاب ، وإلا قُتلَ كافراً .

ولهذا امتنع كثير من الأئمة عن إطلاق القول بأنّا لا نكفر أحداً بذنب . بل يقال : لا نكفرهم بكل ذنب ، ولهذا - والله أعلم - قيده الشيخ - رحمه الله - بقوله : « ما لم يستحله » وفى ذلك إشارة إلى أن مراده : الذنوب العملية ، لا العلمية .

الذنب منار للمؤمن

وقوله : « ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب » ردٌّ على المرجئة ، فإنهم يقولون : لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الكفر طاعة فهؤلاء فى طَرف ، والخوارج فى طَرَف ، فإنهم يقولون بكفر المسلم بكل ذنب ، أو بكل ذنب كبير ، وكذلك المعتزلة الذين يقولون : يحيط إيمانه كله بالكبيرة ، فلا يبقى معه شىء من الإيمان ، لكن الخوارج يقولون : يخرج من الإيمان ويدخل فى الكفر ، والمعتزلة يقولون : يخرج الإيمان ولا يدخل فى الكفر ، وهذه المنزلة بين المنزلتين ! وبقولهم بخروجه من الإيمان أوجبوا له الخلود فى النار .

الوعيد للقائل ببدعة محرمة ولا تكفير

وطوائفُ من أهل الكلام والفقه والحديث لايقولون ذلك فى الأعمال ، لكن فى الاعتقادات البدعية ، وإن كان صاحبُها متأولاً ، فيقولون : يكفر كل من قال

هذا القول ، لا يُفرقون بين المجتهد المخطىء وغيره . أو يقولون : يكفر كل مبتدع ، وهؤلاء يدخل عليهم فى الإثبات العام أمورٌ عظيمة ، فإن النصوص المتواترة قد دلت على أنه يخرج من النار من فى قلبه مثقالُ ذرة من إيمان ، ونصوص الوعد التى يحتج بها هؤلاء تعارض نصوص الوعيد التى يحتجّ بها أولئك .

والمقصود هنا : أن البدع هى من هذا الجنس . فإن الرجل يكون مؤمناً باطناً وظاهراً ، لكن تأوَّلَ تأويلاً أخطأ فيه ، إما مجتهداً وإما مفرطاً مذنباً ، فلا يقال : إن إيمانه حَبِط لمجرد ذلك ، إلا أن يدل على ذلك دليل شرعى ، بل هذا من جنس قول الخوارجَ والمعتزلة ، ولا نقول : لا يكفر ، بل العدلُ هو الوسَط ، وهو أن الأقوال الباطلة المبتدعة المحرمة المتضمنة نفيَ ما أثبته الرسول ، أو إثبات ما نفاه ، أو الأمرَ بما نهى عنه ، أو النهيَ عما أمر به : يقال فيها الحق ، ويُثبَت لها الوعيد الذى دلت عليه النصوص ، ويبين أنها كفر ، ويقال : من قالها فهو كافر ، ونحو ذلك ، وأما الشخصُ المعيّن ، إذا قيل : هل تشهدون أنه من أهل الوعيد وأنه كافر ؟ فهذا لا نشهد عليه إلا بأمر تجوز معه الشهادة ، فإن من أعظم البغى أن يشهد على معيَّن أن الله لا يغفر له ولا يرحمهُ بل يخلّده فى النار ، لأن الشخصَ المعين يمكن أن يكون مجتهدا مخطئاً مغفوراً له ، ويمكن أن يكون ممن لم يبلغه ما وراء ذلك من النصوصَ ، ويمكن أن يكون له إيمان عظيم وحسناتٌ أوجبت له رحمة الله ، كما غفر للذى قال : إذ متَ فأسحقونى ثم اذرونى ، ثم غفر اللهُ له لخشيته ، وكان يظن أن الله لا يقدر علىَ جمعه وإعادته ، أوشك فى ذلك لكن هذا التوقف فى أمر الآخرة لا يمنعنا أن نعاقبه فى الدنيا ، لمنع بدعته ، أو نستتيبَه فإن تاب ، وإلا قتلناه ، ثم إذا كان القول فى نفسه كفراً قيل : إنه كفَر ، والقائل له يكفر بشروط وانتفاء موانعَ ، ولا يكون ذلك إلا إذا صار منافقاً زنديق ، فلا يتصور أن يكفّر أحد من أهلَ القبلة المظهرين للإسلام إلا من يكون منافقاً زنديقاً ، وكتاب الله يبين ذلك ، فإن الله صنَّفَ الخلقَ فيه ثلاثة أصناف : كفار من المشركين ومن أهل الكتاب ، وهم الذين لايقرون بالشهادة وصنف : المؤمنون ظاهراً وباطناً وصنف : أقرّوا به ظاهراً لا باطناً . وهذه الأقسام الثلاثة مذكورة فى أول سورة البقرة ، وكل من ثبت أنه كافر فى نفس الأمر وكان مُقِراً بالشهادتين فإنه لا يكون إلا زِنديقاً ، والزِّنديق هو

المنافق .

وهنا يظهر غلطُ الطرفين ، فإنه مَن كفّر كلَّ من قال القول المبتدَع يلزمه أن يكَفّر أقواماً ليسوا فى الباطن منافقين ، بل هم فى الباطن يحبون الله ورسوله ، ويؤمنون بالله ورسوله وإن كانوا مذنبين ، كما ثبت فى صحيح البخارى : « أن رجلاً كان على عهد النبى ـ ﷺ ـ كان اسمه : عبدَ الله ، وكان يُلقب : حماراً ، وكان يُضحك رسولَ الله ـ ﷺ ـ وكان رسولُ الله ـ ﷺ ـ قد جلده فى الشراَب ، فأتىَ به يوماً ، فأمر به فجُلدَ ، فقال رجل من القوم : اللهم العنه ، ما أكثر ما يؤتى به ! فقال رسولُ الله ـ ﷺ ـ : لا تلعنوه ، فو الله ما علمتُ : إنه يُحب الله ورسولَه » .

وهذا أمر متيقَّن به فى طوائفَ كثيرة وأئمة فى العلم والدين ، وفيهم بعض مقالات الجهمية أو المرجئة أو القدرية أو الشيعة أو الخوارج ، ولكن الأئمة فى الدين لا يكونون قائمين بجملة تلك البدعة بل بفرع منها .

فمن عيوب أهل البدع تكفيرُ بعضِهم بعضاً ، ومن ممادح أهل العلم أنهم يُخَطِّئون ولا يُكفرون .

ولكن بقى هنا إشكال يَرد على كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ وهو أن الشارع قد سمى بعض الذنوب كفراً ، قَال الله تعالى : ﴿ **وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ** ﴾ وقال ـ ﷺ ـ : « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » متفق عليه وقال ـ ﷺ ـ : « **بين المسلم وبين الكفر : تركُ الصلاة** » رواه مسلم وقال ـ ﷺ ـ: « **اثنتان فى أمتى هما بهم كفر : الطعن فى الأنساب ، والنياحة على الميت** » ونظائر هذا كثيرة .

والجواب : أن أهل السنة متفقون كلهم على أن مرتكب الكبيرة لا يكفُر كفراً ينقل عن الملّة بالكلية ، كما قالت الخوارج ، إذ لو كفر كفراً ينقل عن الملة لكان مرتداً علىَ كل حال ، ولا يُقبل عفُو ولى القصاص ، ولا تجرى الحدود فى الزنا والسرقة وشرب الخمر ، وهذا القول معلوَم بطلانه وفساده بالضرورة من دين الإسلام ، ومتفقون على أنه لا يخرج من الإيمان والإسلام ، ولا يدخل فى الكفر ، ولا يستحق الخلودَ مع الكافرين ، فإن قول المعتزلة باطل ، إذ قد جعل الله

مرتكب الكبيرة من المؤمنين ، فقال : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى ﴾ (البقرة : ١٧٨) .

ثم قال : ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ ﴾ (البقرة : ١٧٨) .

فلم يخرج القاتل من الذين آمنوا ، وجعله أخاً لولى القصاص ، والمراد أخوة الدين بلا ريب .

إجراء الحدود وقبول العفو يمنع التكفير

ونصوص الكتاب والسنة والإجماع تدل على أن الزانى والسارقَ والقاذف لا يُقتل ، بل يقام عليه الحد ، فدل على أنه ليس بمرتد .

وقد ثبت فى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال : « **من كانت عنده لأخيه اليومَ مَظلمةٌ ، من عرض أو شىء ، فليَتحلله منه اليوم ، قبل أن لا يكون درهم ولا دينار ، إن كانَ له عمل صالح : أخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات : أُخذَ من سيئات صاحبه فطُرحت عليه ، ثم أُلقى فى النار** » أخرجاه فى الصَحيحين .

فثبت أن الظالم يكون له حسنات يستوفى المظلوم منها حقه .

وكذلك ثبت فى الصحيح عن النبى - ﷺ - أنه قال :

« **ما تعدّون المفلس فيكم ؟**

قالوا : المفلس فينا من لا درهم له ولا دينار .

قال : **المفلس من يأتى يوم القيامة وله حسنات أمثالُ الجبال ، فيأتى وقد شتم هذا ، وأخذ مال هذا ، وسفكَ دمَ هذا ، وقَذف هذا ، وضرب هذا ، فيقتصٌ هذا من حسناته ، وهذا من حسناته ، فإن فَنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه : أُخذَ من خطاياهم فطُرحت عليه ، ثم طُرح فىَ النار** » رواه مسلم .

والمعتزلة موافقون للخوارج هنا فى حكم الآخرة ، فإنهم وافقوهم على أن مرتكبَ الكبيرة مخلَّد فى النار ، قالت الخوارج : نسميه كافراً ، وقالت المعتزلة : نسميه فاسقاً ، فالخلاف بينهم لفظى فقط .

وأهل السنة أيضاً متفقون على أنه يستحق الوعيدَ المرتَّب على ذلك الذنب ، كما وردت به النصوص ، لا كما يقوله المرجئة من أنه لا يضر مع الإيمان ذنبٌ ، ولا ينفع مع الكفر طاعة ، وإذا اجتمعت نصوص الوعد التى استدلت بها المرجئة ونصوصُ الوعيد التى استدلت بها الخوارجُ والمعتزلة ، تبين لك فساد القولين ، ولا فائدةَ فى كلام هؤلاء سوى أنك تستفيد من كلام كل طائفة فسادَ مذهب الطائفة الأخرى .

اختلاف لفظى بين أهل السنة

ثم بعد هذا الاتفاق تبين أن أهل السنة اختلفوا خلافاً لفظياً ، لا يترتب عليه فساد وهو : أنه هل يكون الكفر على مراتبَ ، كفراً دون كفر ؟ كما اختلفوا : هل يكون الإيمان على مراتب ، إيماناً دون إيمان ؟

هل يكون الكفر على مراتب ؟ وكذلك الإيمان

وهذا الاختلاف نشأ من اختلافهم فى مسمى « الإيمان » : هل هو قول وعمل ، يزيد وينقص أم لا ؟ بعد اتفاقهم على أن من سماه الله تعالى ورسوله كافراً نسميه كافراً ، إذ من الممتنع أن يسمى اللهُ سبحانه الحاكم بغير ما أنزل الله كافراً ، ويسمى رسوله من تقدم ذكرهم كفاراً ، ولا نطلق عليهم اسم الكفر ، ولكن من قال : إن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص ، قال : هو كفر عملى لا اعتقادى ، والكفر عنده على مراتب ، كفرٌ دون كفر ، كالإيمان عنده . ومن قال : إن الإيمان هو التصديق ، ولا يدخل العمل فى مسمى الإيمان ، والكفر هو الجحود ، ولا يزيدان ولا ينقصان، قال : هو كفر مجازى غير حقيقى ، إذ الكفر الحقيقى هو الذى يَنقل عن الملة . وكذلك يقول فى تسمية بعض الأعمال بالإيمان ، كقوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ ﴾ أى صلاتكم إلى بيت المقدس ، أنها سميت إيمانا مجازاً ، لتوقف صحتها على الإيمان ، أو لدلالتها على الإيمان ، إذ هى دالةَ على كون مؤديها مؤمناً ولهذا يحكم بإسلام الكافر إذا صلى كصلاتنا ، فليس بين فقهاء الملة نزاعٌ فى أصحاب الذنوب إذا كانوا مقرين باطناً وظاهراً بما جاء به الرسول ـ ﷺ ـ وما تواتر عنه أنهم من أهل الوعيد ، ولكن الأقوالَ المنحرفة أقوالُ مَن يقول

بتخليدهم فى النار ، كالخوارج والمعتزلة ، ولكن أردأ ما فى ذلك : التعصبُ على من يُضادُّهم ، وإلزامُهم لمن يخالف قولهم بما لا يلزمه ، والتشنيعُ عليه ! وإذا كنا مأمورين بالعدل فى مجادلة الكافرين ، وأن يجادلوا بالتى هى أحسن ، فكيف لا يعدِل بعضنا على بعض فى مثل هذا الخلاف ؟

التفصيل فيمن حكم بغير ما أنزل الله

وهنا أمر يجب أن يُتفطن له ، وهو أن الحكم بغير ما أنزل الله قد يكون كفراً ينقل عن الملة ، وقد يكون معصية كبيرة أو صغيرة ، ويكون كفراً : إما مجازياً ، وإما كفراً أصغر ، على القولين المذكورين ، وذلك بحَسب حال الحاكم : فإنه إن اعتقد أن الحكم بما أنزل الله غيرُ واجب ، وأنه مخيّر فيه ، أو استهان به بعد تيقنه أنه حكم : فهذا كفر أكبر .

وإن اعتقد وجوبَ الحكم بما أنزل الله ، وعلمَه فى هذه الواقعة ، وعدل عنه مع اعترافه بأنه مستحق للعقوبة ، فهذا عَاصٍ ، ويسمى كافراً كفراً مجازياً ، أو كفراً أصغر .

وإن جهل حكم الله فيها مع بذل جهده واستفراغِ وسعه فى معرفة الحكم وأخطأ فهذا مخطىء ، له أجر على اجتهاده وخطؤه مغفورٌ .

قصة شرب قدامة الخمر متأولاً

وأراد الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله : « ولا نقول : لا يضر مع الإيمان ذنب » مخالفة المرجئة ، وشبهتهم كانت قد وقعت لبعض الأولين ، فاتفق الصحابة على قتلهم إن لم يتوبوا من ذلك ، فإن قُدامة بنَ عبد الله شرب الخمر بعد تحريمها ، هو وطائفة ، وتأولوا قوله تعالى : ﴿ **لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ** ﴾ (المائدة : ٩٣) .

فلما ذكروا ذلك لعمرَ بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ اتفق هو وعلىٌّ بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ ، وسائرُ الصحابة ، على أنهم إن اعترفوا بالتحريم : جُلدوا ، وإن أصروا على استحلالها : قُتلوا . وقال عمرُ لقُدامة : أما إنك لو

اتقيتَ وآمنتَ وعملت الصالحات لم تشرب الخمر ، وذلك أن هذه الآية نزلت بسبب أن الله سبحانه لما حرم الخمر ـ وكان تحريمها بعد وقعة أحد ـ قال بعض الصحابة : فكيف بأصحابنا الذين ماتوا وهم يشربون الخمر ؟ فأنزل الله هذه الآية ، بيّن فيها أن من طعمَ الشىء فى الحال التى لم يُحرَّم فيها فلا جناحَ عليه إذا كان من المؤمنين المتقين المصلحين ، كما كان من أمر استقبال بيت المقدس .

العاصى المتأول ينبغى ألا ييأس

ثم إن أولئك الذين فعلوا ذلك أيسوا من التوبة ، فكتب عمرُ إلى قدامةَ يقول له : ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ﴾ ما أدرى أىُّ ذنبك أعظم ؟ استحلالك المحرمَ أولاً ؟ أم يأسك من رحمة اللهِ ثانياً ؟

وهذا الذى اتفق عليه الصحابة هو متفق عليه بين أئمة الإسلام .

المحسنون فى رحمة الله ، بين الخوف والرجاء

• **قال الطحاوى:** « **ونرجو للمحسنين من المؤمنين أن يعفوَ عنهم ويُدخلَهم الجنةَ برحمته ، ولا نأمنَ عليهم ولا نشهدُ لهم بالجنةِ ، ونستغفرُ لمسيئِهم ، ونخافُ عليهمَ ، ولا نُقنِّطُهم** » .

وعلى المؤمن أن يعتقد هذا الذى قاله الشيخ ـ رحمه الله ـ فى حق نفسه وحق غيره .

قال تعالى : ﴿ **أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا** ﴾ (الإسراء : ٥٧) .

وفى مسند أحمد وجامع الترمذى عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت : قلت يا رسول الله : ﴿ **وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ** ﴾ : هو الذى يزنى ويشربُ الخمر ويسرق ؟ قال : « **لا يا ابنة الصديق ، ولكنه الرجل يصوم ويصلى ويتصدق ، ويخاف أن لا يقبل منه** » .

قال الحسن البصرى ـ رحمه الله ـ : عمِلوا ـ والله ـ بالطاعات واجتهدوا

فيها ، وخافوا أن تُرد عليهم أن المؤمن جمع إحساناً وخشية ، والمنافق جمع إساءة وأمنا .

وقد اختلف عبارات العلماء فى الفرق بين الكبائر والصغائر ، ولكن ثم أمرٌ ينبغى التفطنُ له ، وهو : أن الكبيرة قد يقترن بها من الحياء والخوف والاستعظام لها ما يُلحقُها بالصغائر ، وقد يقترن بالصغيرة من قلة الحياء وعدم المبالاة وترك الخوف والاستهانة بها ما يُلحقها بالكبائر ، وهذا أمر مَرجعه إلى ما يقوم بالقلب ، وهو قدر زائد على مجرد الفعل ، والإنسان يعرف ذلك من نفسه وغيره .

أسباب عشرة مستقرأة تسقط العقوبة

وأيضاً : فإنه قد يُعفَى لصاحب الإحسان العظيم ما لا يُعفى لغيره ، فإن فاعلَ السيئات يسقط عنه عقوبة جهنم بنحو عشرة أسباب ، عرفت بالاستقراء من الكتاب والسنة .

السبب الأول: التوبة . والتوبة النصوح ـ وهى الخالصة ـ لا يختص بها ذنب دون ذنب ، لكن هل تتوقف صحتها على أن تكون عامة ؟ حتى لو تاب من ذنب وأصر على آخرَ لا تُقبل ؟ الصحيح أنها تقبل .

السبب الثانى: الاستغفار ، قال تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾ (الأنفال : ٣٣) .

السبب الثالث: الحسنات ، فإن الحسنة بعشرة أمثالها ، والسيئة بمثلها ، فالويل لمن غلبت آحادُه عشراته .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ﴾ (هود : ١١٤) .

وقال النبى ـ ﷺ ـ : « **وأتبع السيئةَ الحسنة تَمْحُها** » .

السبب الرابع: المصائب الدنيوية ، قال ـ ﷺ ـ : « **ما يصيب المؤمنَ من وَصَب ولا نَصَب ، ولا غَمٌّ ولا هَمٌّ ولا حزن ـ حتى الشوكةُ يُشاكها ـ : إلا كُفِّر بها من خَطاياه** » .

فالمصائب نفسها مكفِّرة ، وبالصبر عليها : يثاب العبد ، وبالسخط يأثَم .

السبب السادس: دعاءُ المؤمنين واستغفارهم للمذنب ، فى حياته وبعد مماته .

السبب السابع: ما يُهدى إليه بعد الموت ، من ثواب صدقة أو قراءةٍ أو حج ، ونحوِ ذلك .

السبب الثامن: أهوال يوم القيامة وشدائدُه .

السبب التاسع: ما ثبت فى الصحيحين : أن المؤمنين إذا عبروا الصراط وقفوا على قنطرة بين الجنة والنار ، فيُقتصُّ لبعضهم من بعض ، فإذا هُذِّبوا ونُقُّوا : أذن لهم فى دخول الجنة .

السبب العاشر: شفاعة الشافعين .

السبب الحادى عشر: عفو أرحم الراحمين من غير شفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ (النساء : ٤٨) .

فإن كان ممن لم يشأ الله أن يغفر له ، لعظم جُرحه ، فلا بُدَّ من دخوله الكير ، ليخلُص طيبُ إيمانه من خبث معاصيه ، فلا يبقى فى النار من فى قلبه أدنى مثقال ذرة من إيمان ، بل من قال : لا إله إلا الله ، كما فى حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ وإذا كان الأمر كذلك : امتنع القطع لأحد معين من الأمة ، غير من شهد له الرسول ـ ﷺ ـ بالجنة ، ولكن نرجو للمحسنين ، ونخاف عليهم .

الخوف والرجاء سبيل الحق

• قال : « **والأمنُ واليأسُ ينقلانِ عن مِلّةِ الإسلامِ ، وسبيلُ الحق بينهما لأهلِ القِبلة** » .

أى يجب أن يكون العبد خائفاً راجياً ، فإن الخوف المحمودَ الصادقَ : ما حال بين صاحبه وبين محارم الله ، فإذا تجاوز ذلك : خيف منه اليأسُ والقنوط .

والرجاء المحمود : رجاءُ رجل عمل بطاعة الله على نور من الله ، فهو راجٍ لثوابه ، أو رجلٍ أذنب ذنباً ثم تاب منه إلى الله ، فهو راجٍ لمغفرته .

قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُوْلَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (البقرة : ٢١٨) .

أما إذا كان الرجل متمادياً فى التفريط والخطايا ، يرجو رحمة الله بلا عملٍ ، فهذا هو الغرور والتمنى والرجاءُ الكاذب .

قال أبو على الروذبارى - رحمه الله - الخوف والرجاء كجناحى الطائر : إذا استويا : استوى الطير وتم طيرانه ، وإذا نقص أحدهما : وقع فيه النقص ، وإذا ذهبا : صار الطائر فى حد الموت .

وقد مدح الله أهل الخوف والرجاء بقوله : ﴿ أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ ﴾ (الزمر : ٩) .

فالرجاء يستلزم الخوف ، ولولا ذلك لكان آمنا ، والخوف يستلزم الرجاء ولولا ذلك لكان قُنوطاً ويأساً .

ارتكاب الكبيرة لا يوجب التكفير

● **قال : « ولا يخرُجُ العبدُ من الإيمانِ إلا بجحودِ ما أدخلَه فيه »** .

ويشير الشيخ بهذا إلى الرد على الخوارج والمعتزلة فى قولهم بخروجه من الإيمان بارتكاب الكبيرة .

تعريف الإيمان ومراتبه تبعاً للعمل

● **قال : « والإيمانُ : هو الإقرارُ باللسان ، والتصديقُ بالجَنان ، وجميعُ ما صحّ عن رسول الله - ﷺ - من الشرع والبيان كلُّه حق ، والإيمانُ واحدٌ ، وأهلُه فى أصله سواءٌ ، والتفاضُلُ بينهم بالخَشيةِ والتُّقَى ، ومخالفةِ الهوى ، وملازمةِ الأولَى »** .

وقد اختلف الناس فيما يقع عليه اسم « الإيمان » مالكٌ والشافعى وأحمدُ والأوزاعى وإسحاق بن راهويه وسائرُ أهل الحديث وأهل المدينة وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين : إلى أنه تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان

وذهب كثير من أصحابنا إلى ما ذكره الطحاوى : أنه الإقرار باللسان ، والتصديق بالجنان .

وذهب الكرامية إلى أن الإيمان هو الإقرار باللسان فقط ، فالمنافقون عندهم مؤمنون كاملوا الإيمان ، لكن يقولون بأنهم يستحقون الوعيد الذى أوعدهم الله به وقولهم ظاهر الفساد .

وذهب الجهم بنُ صفوانَ إلى أن الإيمان هو المعرفة بالقلب، وهذا القول أظهر فساداً مما قبله ، فإن لازمَه أن فرعون وقومه كانوا مؤمنين ، فإنهم عَرفَوا صدق موسى وهارون ، ولم يؤمنوا بهما ، ولهذا قال موسى لفرعون : ﴿ **لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلَاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ** ﴾ (الإسراء : ١٠٢) .

وحاصل الكل يرجع إلى أن الإيمان إما أن يكون ما يقوم بالقلب واللسان وسائر الجوارح ، كما ذهب إليه جمهور السلف من الأئمة الثلاثة وغيرهم ، كما تقدمَ ، أو بالقلب واللسان دون الجوارح ، كما ذكره الطحاوى عن أبى حنيفة وأصحابه ـ رحمهم الله ـ .

اختلاف صورى بين الإمام أبى حنيفة وباقى أئمة أهل السنة

والاختلاف الذى بين أبى حنيفةَ والأئمة الباقين من أهل السنة : اختلافٌ صُورى ، فإن كون أعمال الجوارح لازمة لإيمانَ القلب ، أو جزءاً من الإيمان ، مع الاتفاق على أن مرتكب الكبيرة لا يخرج من الإيمان ، بل هو فى مشيئة الله ، إن شاء عذبه ، وإن شاء عفا عنه : نزاع لفظى ، لا يترتبُ عليه فساد اعتقاد .

والقائلون بتكفير تارك الصلاة ضموا إلى هذا الأصل أدلةً أخرى ، وإلا فقد نفى النبى ـ ﷺ ـ الإيمان عَن الزانى والسارق وشارب الخمر ، ولم يوجب زوال اسم الإيمان عنهم بالكلية ، اتفاقاً . ولا خلاف بين أهل السنة أن الله تعالى أراد من العباد القول والعمل والقول : التصديق بالقلب والإقرار باللسان ، وهذا الذى يعنى به عند إطلاق قولهم : « الإيمان قول وعمل » لكن هذا المطلوب من العباد : هل يشمله اسمُ الإيمان ؟ أم الإيمانُ أحدهما ، وهو القول وحدَه ، والعمل مغايرٌ له

لا يشمله اسم الإيمان عند إفراده بالذكر ، وإن أطلق عليهما كان مجازاً ؟ هذا محل النزاع .

وقد اجمعوا على أنه لو صدق بقلبه وأقر بلسانه وامتنع عن العمل بجوارحه : أنه عاصٍ لله ورسوله ، مستحقٌّ للوعيد .

ولهذا ـ والله أعلم ـ قال الشيخ ـ رحمه الله ـ « وأهلُه في أصله سواء » يشير إلى أن التساوى إنما هو فى أصله ، ولا يلزم منه التساوى من كل وجه ، بل تفاوتُ درجات نور « لاإله إلا الله » فى قلوب أهلها لا يُحصيها إلا اللهُ تعالى ، فمن الناس مَن نورُ « لا إله إلا الله » فى قلبه كالشمس ، ومنهم مَن نورُها فى قلبه كالكوكب الدُّرّى ، وآخر كالمشعل العظيم ، وآخر كالسراج المضئ ، وآخر كالسراج الضعيف ، ولهذا تظهر الأنوار يوم القيامة بأيمانهم وبين أيديهم على هذا المقدار ، بحسَب ما فى قلوبهم من نور الإيمان والتوحيد ، علماً وعملاً ، وكلما اشتد نور هذه الكلمة وعظم : أحرق من الشبهات والشهوات بحسَب قوته .

أدلة على تفاضل الإيمان

والأدلة على زيادة الإيمان ونقصانه من الكتاب والسنة والآثار السلفية كثيرة جداً .

منها قوله تعالى : ﴿ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا ﴾ (الأنفال : ٢) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَيَزْدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا ﴾ (المدثر : ٣١) .

وقوله عز وجل : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ﴾ (الفتح : ٤) .

وقد أخبر النبى ـ ﷺ ـ أنه يخرج من النار من فى قلبه أدنى أدنى مثقال ذرة من إيمان .

فكيف يقال بعد هذا : إن إيمان أهل السموات والأرض سواء وإنما التفاضل بينهم بمعانٍ أُخرَ غير الإيمان ؟

وكلام الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ فى هـذا المعنى كثيراً أيضاً ، و كـان عمـر ـ رضى الله عنه ـ يقول لأصحابه : هلموا نـزداد إيمانـاً . وكان عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ يقول فى دعائه : اللهم زدنا إيماناً ويقينا وفقها . وكـان مُعـاذُ بن جبل ـ رضى الله عنه ـ يقول للرجل من أصحابه : إجلس بنا نؤمن ساعة .

أدلة على دخول العمل فى الإيمان

وأما كـون الأعمـال داخلةً فى الإيمان فـذلك مـدلول نصـوص كثيـرة ، فـفى الصحيح قولُ النبى ـ ﷺ ـ لوفد عبد القيس : « **آمركم بالإيمان بالله وحدَه أتدرون ما الإيمان بالله ؟ شهادةُ أن لا إله إلا الله وحدَه لا شريك له ، وإقامُ الصلاة ، وإيتاءُ الزكاة ، وأن تؤدوا الخُمس من المغنم** » . ومعلوم أنه لم يُرد أن هذه الأعمـال تكون إيمانا بالله بدون إيمان القلب ، لما قد أخبر فى مواضعَ أنَه لا بد من إيمان القلب ، فعُلم أن هذه مع إيمان القلب هو الإيمان ، وأى دليل على أن الأعـمـال داخلة فى مسمى « الإيمان » فوق هذا الدليل ؟.للعلم بأنه فسر الإيمان بالأعمال ، ولم يـذكر التصديق ، للعلم بأن هذه الأعمالَ لا تفيد مع الجحود .

وقوله : « وجميع ما صح عن رسول الله ـ ﷺ ـ من الشرع والبيان كله حق » . يشير إلى الرد على الجهمية والمعتزلة القائلين بأن الأخبار قسمان : متواتر وآحاد ، فالمتواتر ـ وإن كان قطعى السند ـ لكنه غير قطعى الدلالة ، فإن الأدلة اللفظية لا تفيد اليقين ! ولهذا قدحوا فى دلالة القرآن على الصفات . قالوا : والآحاد لا تفيد العلم ، ولا يحتج بها ، لا من جهة سندها ولا من جهة متنها ، فسَدّوا على القلوب معرفة الرب تعالى وأسمائه وصفاته وأفعاله من جهة الرسول ، وأحالوا الناس على قضايا وهمية ومقدمات خيالية .

وطريق أهل السنة : أن لا يعدلوا عن النص الصحيح ولا يعارضوه بمعقول ، ولا قول فلان ، كما أشار الشيخ ـ رحمه الله ـ

قال البخارى ـ رحمه الله ـ سمعت الحُمَيدى يقول : كنا عند الشافعى ـ رحمه الله ـ فأتاه رجل فسأله عن مسألة ، فقال : قضى فيها رسول الله ـ ﷺ ـ كذا وكذا. فقال رجل للشافعى : ما تقول أنت ؟ فقال : سبحان الله ! ترانى فى كنيسة

ترانى فى بيعة ، ترانى على وسطى زنار ؟ أقول لك : قضى رسول الله ـ ﷺ ـ وأنت تقول : ما تقول أنت ؟

خبر الآحاد والتفصيل فيه

وخبر الواحد إذا تلقته الأمة بالقبول : عملاً به وتصديقاً له : يفيد العلم اليقينى عند جماهير الأمة ، وهو أحد قسمى المتواتر ، ولم يكن بين سلف الأمة فى ذلك نزاع ، كخبر عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ : « إنما الأعمال بالنيات » وخبر أبى هريرة : « لا تنكح المرأة على عمتها ولا خالتها » . وخبر : « يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب » وأمثال ذلك وهو نظير خبر الذى أتى مسجد قُباء وأخبر أن القبلة تحولت إلى الكعبة ، فاستداروا إليها .

وكان رسول الله ـ ﷺ ـ يرسل رسله آحاداً ، ويرسل كتبه مع الآحاد ، ولم يكن المرسَل إليهم يقولون : لا نقبله لأنه خبر واحد .

ولهذا فضح الله مَن كذب على رسوله فى حياته وبعد وفاته ، وبيّن حالَه للناس ، قال سفيان بن عُيينة : ما ستر الله أحداً يكذب فى الحديث : وقال عبد الله ابن المبارك : لو هَمَّ رجل فى البحر أن يكذب فى الحديث لأصبح والناس يقولون : فلانَ كذاب .

وخبر الواحد ـ وإن كان يحتمل الصدق والكذب ـ ولكن التفريق بين صحيح الأخبار وسقيمها لا يناله أحد إلا بعد أن يكون معظمَ أوقاته مشتغلاً بالحديث ، والبحث عن سير الرواة ، ليقف على أحوالهم وأقوالهم ، وشدة حذرهم من الطغيانَ والزلل ، وكانوا بحيث لو قُتلوا لم يسامحوا أحداً فى كلمة يتقولها على رسول الله ـ ﷺ ـ ولا فعلوا هم بأنفسهم ذلك ، وقد نقلوا هذا الدين إلينا كما نُقل إليهم ، فهم عصابة الإيمان ، وهم نقاد الأخبار ، وصيارفة الحديث .

ولكن النُّفاة قد جعلوا قوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ مستنداً لهم فى رد الأحاديث الصحيحة ، فكلما جاءهم حديث يخالف قواعدهم وآراءهم ؛ وما وضعته خواطرُهم وأفكارهم : ردّوه بـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ تلبيساً على من هو

أعمى منهم قلباً ، وتحريفاً لمعنى الآى عن مواضعه ، ففهموا من أخبار الصفات ، ما لم يُرده الله ولا رسوله ، ولا فهمَه أحد من أئمة الإسلام ، أنه يقتضي إثباتها التمثيل بما للمخلوقين ، ثم استدلوا على بطلان ذلك بـ ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾ تحريفاً للنصين .

معنى « الشرع والبيان »

ويشير الشيخ ـ رحمه الله ـ بقوله : « من الشرع والبيان » إلى أن ما صح عن النبى ـ ﷺ ـ نوعان : شرع ابتدائى وبيان لما شرعه الله فى كتابه العزيز ، وجميع ذلك حق واجب الاتباع .

ولاية الله للمؤمنين

* قال : « والمؤمنون كلُّهم أولياءُ الرحمن » .

وذلك قول الله تعالى : ﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ (يونس : ٦٢ ، ٦٣) .

والولى : من « الوَلاية » بفتح الواو ، التى هى ضدُّ العداوة ، وقد قرأ حمزة : ﴿ مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ بكسر الواو ، والباقون بفتحها . وقيل : هما لغتان وقيل بالفَتح : النصرة ، وبالكسر : الإمارة . قال الزَّجّاج : وجاز الكسر ، لأن فى تولّى بعض القوم بعضاً جنساً من الصناعة والعمل ، وكل ما كان كذلك : مكسور ، مَثل : « الخياطة » ونحوها .

فالمؤمنون أولياء الله ، والله تعالى وليهم .

قال تعالى : ﴿ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴾ (محمد : ١١) .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ (٥٥) وَمَن يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ

الْغَالِبُونَ ﴾ (المائدة : ٥٥ ، ٥٦) .

فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض ، وإنهم أولياء الله ، وأن الله وليهم ومولاهم ، ومن عادى له ولياً فقد بارزه بالمحاربة ، وهذه الولايةُ من رحمته وإحسانه ، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجته إليه قال تعالى : ﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِى لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِى الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا ﴾ (الإسراء : ١١١) .

فالله تعالى ليس له ولى من الذل ، بل لله العزة جميعاً ، خلاف الملوك وغيرهم ممن يتولى الأولياءَ لذله وحاجته إلى من ينصره والولاية أيضاً نظير الإيمان فيكون مراد الشيخ : أن أهلها فى أصلها سواء ، وتكون كاملةً وناقصة ، فالكاملة تكون للمؤمنين المتقين ، كما قال تعالى :
﴿ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (يونس : ٦٢ ، ٦٤) .

وتجتمع فى المؤمن ولاية من وجه ، وعداوة من وجه ، كما قد يكون فيه كفر وإيمان ، وشرك وتوحيد ، وتقوى وفجور ، ونفاق وإيمان .

قال ـ ﷺ ـ : « ثلاث مَن كنّ فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يَدَعَها : إذا حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا خاصم فجر » .

فالطاعات من شُعَب الإيمان ، والمعاصى من شعب الكفر ، وإن كان رأس شعب الكفر الجحود ، ورأس شعب الإيمان التصديق .

الإكرام بالتقوى

* قال : « وأكرمُهم عندَ الله : أطوعهُم وأتبعُهم للقرآن » .

أراد : أكرمُ المؤمنين هو الأطوعُ لله ، والأتبعُ للقرآن ، وهو الأتقى ، والأتقى

هو الأكرم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (الحجرات : ١٣) .

وفي السنن عن النبي - ﷺ - : « **لا فضلَ لعربي على عجمي ، ولا لعجمي على عربي ، ولا لأبيضَ على أسود ، ولا لأسودَ على أبيض ، إلا بالتقوى . الناس من آدمَ ، وآدمُ من تراب** » .

وبهذا الدليل يظهر ضَعف تنازعهم في مسألة الفقير الصابر والغني الشاكر ، وترجيح أحدهما على الآخر ، وإن التحقيق : أن التفضيل لا يرجع إلى ذات الفقر والغنى ، وإنما يرجع إلى الأعمال والأحوال ، فإن التفضيل عند الله بالتقوى وحقائق الإيمان ، لا بفقر ولا غنى ، ولهذا - والله أعلم - قال : عمر - رضي الله عنه - الفقر والغنى مطيتان ، لا أبالي أيّهما ركبت .

أركان الإيمان

* قال : « **والإيمانُ : هو الإيمانُ بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليومِ الآخِرِ ، وبالقدر ، خيره وشرّه ، وحُلوِه وَمُرّه ، من الله تعالى** » .

وقد تقدم أن هذه الخصال هي أصول الدين ، وبها أجاب النبي - ﷺ - في حديث جبريلَ المشهور المتفَق على صحته ، حين جاء إلى النبي - ﷺ - على صورةِ رجل أعرابي وسأله عنَ الإسلام والإيمان والإحسان .

والكتاب والسنة مملوءان بما يدل على أن المرء لا يثبت له حكم الإيمان إلا بالعمل مع التصديق ، وهذا أكثر من معنى الصلاة والزكاة ، فإن تلك إنما فسرتها السنة ، والإيمان بين معناه الكتاب والسنة .

فمن الكتاب قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ﴾ (الأنفال : ٢) .

وقوله تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (النساء : ٦٥) .

فنفى الإيمان حتى توجد هذه الغاية : دلَّ على أن هذه الغايةَ فرض على الناس فمن تركها كان من أهل الوعيد ولم يكن قد أتى بالإيمان الواجب .

ومما يُسأل عنه : أنه إذا كان أوجبه الله من الأعمال الظاهرة أكثرَ من الخصال الخمس التى أجاب بها النبى ـ ﷺ ـ فى حديث جبربلَ المذكور ، فلم قالَ : أن الإسلام هذه الخصالُ الخمس ؟

وقد أجاب بعض الناس بأن هذه أظهر شعائر الإسلام وأعظمُها ، وبقيامه بها يتم استسلامه ، وتركه لها يُشعر بانحلال قياده .

والتحقيق : أن النبى ـ ﷺ ـ ذكر الدين الذى هو استسلامُ العبد لربه مطلقاً ، الذى يجب لله على عباده ، على كل من كان قادراً عليه ، وهذه هى الخمسُ ، وما سوى ذلك فإنما يجب بأسباب ومصالحَ ، فلا يعم وجوبُها جميعَ الناس ، بل إما أن يكون فرضاً على الكفاية ، كالجهاد ، والأمر بالمعروف ، وما يتبع ذلك من أمارة وحكم ، وفُتيا ، وإقراء ، وتحديث وغير ذلك ، وإما ما يجب بسبب حقٍّ الآدميين ، فيختص به من وجب له وعليه ، وقد يسقط بإسقاطه ، من قضاء الديون ، ورد الأمانات ، والإنصاف من المظالم ، من الدماء والأموال والأعراض ، وحقوق الزوجة والأولاد ، وصلة الأرحام ، ونحو ذلك ، فإن الواجب من ذلك على زيد غير الواجب على عمرو ، بخلاف صوم رمضانَ وحجِّ البيت والصلوات الخمس والزكاة .

وقوله : « وبالقدر خيره وشره وحلوه ومره من الله تعالى » موافق لقوله تعالى : ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا ﴾ (التوبة : ٥١) .

وقال تعالى : ﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَـٰذِهِ مِنْ عِندِكَ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ فَمَالِ هَـٰؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴾ (النساء : ٧٨) .

وقال سبحانه : ﴿ مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ (النساء : ٧٩) .

وجه الجمع بين ﴿ فمن الله ﴾ و ﴿ فمن نفسك ﴾

فإن قيل : كيف وجه الجمع بين قوله : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ وبين قوله : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ .

قيل : قوله : ﴿ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾ الخصب والجدب ، والنصر والهزيمة ، كلها من عند الله ، وقوله : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ : أى ما أصابك من سيئة من الله فبذنب نفسك عقوبة لك ، كما قال تعالى : ﴿ وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ ﴾ (الشورى : ٣٠) .

يدل على ذلك ما روى عن ابن عباس - رضى الله عنهما - أنه قرأ : « وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ » وأنا كتبتها عليك .

والمراد بالحسنة هنا : النعمة ، وبالسيئة : البلية ، فى أصح الأقوال ، وقد قيل : الحسنة : الطاعة ، والسيئة : المعصية .

وفى قوله : ﴿ فَمِن نَّفْسِكَ ﴾ من الفوائد : أن العبد لا يطمئن إلى نفسه ولا يسكن إليها ، فإن الشر كامن فيها ، لا يجئ إلا منها ، ولا يشتغل بملام الناس ولا ذمّهم إذا أساءوا إليه ، فإن ذلك من السيئات التى أصابته ، وهى إنما أصابته بذنوبه ، فيرجع إلى الذنوب ، ويستعيذ بالله من شر نفسه وسيئات عمله ، ويسأل الله أن يعينه على طاعته ، فبذلك يحل له كل خير ويندفع عنه كل شر .

معنى طلب الهداية من الله تعالى

ولهذا كان أنفع الدعاء وأعظمُه وأحكمُه دعاءَ الفاتحة : ﴿ إهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة : ٥ ، ٧) .

فإنه إذا هداه هذا الصراط : أعانه على طاعته وترك معصيته ، فلم يُصبه شر ، لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، لكن الذنوب هى لوازم نفس الإنسان ، وهو محتاج إلى الهدى كلَّ لحظة ، وهو إلى الهدى أحوجُ منه إلى الطعَام والشراب ، ليس كما

يقوله بعض المفسرين : إنه قد هداه ، فلماذا يسأل الهدى ؟ وإن المراد التثبيت أو مزيد الهداية ! بل العبد محتاج إلى أن يعلمه الله ما يفعله من تفاصيل أحواله ، وإلى ما يتركه من تفاصيل الأمور فى كل يوم ، وإلى أن يُلهمَه أن يعمل ذلك ، فإنه لا يكفى مجردُ علمه أن لم يجعله مريداً للعمل بما يعلمه ، وإلاّ كان حُجَّةً عليه ، ولم يكن مهتدياً ، ومحتاجٌ إلى أن يجعله قادراً على العمل بتلك الإرادة الصالحة ، فإن المجهول لنا من الحق أضعاف المعلوم ، وما لا نريد فعلَه تهاوناً وكسلاً مثلُ ما نريده أو أكثرُ منه أو دونه ، وما لا نقدر عليه مما نريده كذلك ، وما نعرف جملته ولا نهتدى لتفاصيله فأمرٌ يفوت الحصر ، ونحن محتاجون إلى الهداية التامة ، فمن كملت له هذه الأمور ، كان سؤاله سؤال تثبيت ، وهى آخر الرتب ، وبعد ذلك كله هدايةٌ أخرى ، وهى الهداية إلى طريق الجنة فى الآخرة ، ولهذا كان الناس مأمورين بهذا الدعاء فى كل صلاة .

وهذا الأمور كان النبى - ﷺ - يجمعها فى الصلاة كما ثبت عنه فى الصحيح ، أنه إذا كان رفع رأسه من الركوع يقول : « ربنا لك الحمد ، حمداً كثيراً طيباً مباركاً فيه ، ملءَ الأرض ، وملءَ ما شئت من شيء بعد ، أهل الثناء والمجد ، أحقُّ ما قالَ العبد ، وكلنا لك عبد » . فهذا حمد ، وهو شكر لله تعالى ، وبيان أن حمده أحق ما قاله العبد ، ثم يقول بعد ذلك : « لا مانعَ لما أعطيت ، ولا معطىَ لما منعت ، ولا ينفع ذا الجد منك الجد » . وهذا تحقيق لوحدانيته : لتوحيد الربوبية ، خلقاً وقدراً ، وبداية ونهاية ، وهو المعطى المانع ، لا مانع لما أعطى ، ولا معطى لما منع ، وتوحيد الإلهية ، شرعاً وأمراً ونهياً ، وأن العباد وإن كانوا يُعطون جَدا : مُلكاً وعظمة ورياسة ، فلا ينفع ذا الجد منك ، أى لا ينجيه ولا يخلصه ، ولهذا قال : لا ينفعه منك ، ولم يقل : لا ينفعه عندك .

ومن عَرف هذا حقّ المعرفة ، انفتح له بابُ توحيد الله ، وعلم أنه لا يستحق أن يسأل غيره فضلاً عن أن يعبد غيره ، ولا يتوكل على غَيره ولا يرجى غيره .

الإيمان برسل الله كافة

* قال : « ونحنُ مؤمنونَ بذلك كلّه ، لا نُفَرِّق بينَ أحدٍ من رُسلِه ، ونصدِّقُهم

كلّهم على ما جاءوا بهِ » .

أى لا نفرق بينهم بأن نؤمن ببعض ونكفر ببعض ، بل نؤمن بهم ونصدقهم كلّهم ، فإن من آمن ببعض وكفر ببعض كافرٌ بالكل ، قال تعالى : ﴿ **وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلاً (١٥٠) أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا** ﴾ (النساء : ١٥٠ ، ١٥١) .

فإن المعنى الذى لأجله آمن بمن آمن به منهم موجود فى الذى لم يؤمنوا به ، وذلك الرسول ـ ﷺ ـ الذى آمن به قد جاء بتصديق بقية المرسلين ، فإذا لم يؤمن ببعض المرسلين ، كان كافراً بمن فى زعمه أنه يؤمن به ، لأن ذلك الرسولَ جاء بتصديق المرسلين كلهم .

أهل الكبائر من أمة محمد ﷺ فى الآخرة

• قال الطحاوى : « وأهلُ الكبائر من أمة محمد ـ ﷺ ـ فى النار لا يَخلُدون ، إذا مَاتوا وهم موحِّدون ، وإن لم يكوَنوا تائبيَن ، بعد أن لَقُوا اللهَ عارفَين ، وهم فى مشيئته وحُكمه إن شاءَ غَفَرَ لهم وعفا عنهُم بفضله ، كما ذكر عزَّ وجلَّ فى كتابه ﴿ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ﴾ وإن شاء عذَّبَهم فى النار بعدله ، ثم يُخْرِجُهم منَها برحمته ، وشفاعة الشافعين من أهل طاعته ، ثم يبعثُهَم إلىَ جنته ، ذلكَ بأنَ الله تعالىَ مولى أهل مَعرفته ، ولم يجعلهم فى الدارَين كأهل نكرته َ، الذين خابوا من هدايته ، ولم يَنالوا من وَلايتِه ، اللهم يا ولىَّ الإسلامِ وأهلَه ، ثبّتْنا على الإسلامِ حتىَ نلقاكَ به » .

تعريف : الكبيرة والصغيرة والوعيد

وأصحُّ تعريفٍ للكبائر : إنها ما يترتب عليها حدٌّ أو تُوعِّد عليها بالنار أو اللعنة أو الغضب .

وأمثلُ الأقوال فى الصغائر : إنها ما ليس فيها حدٌّ فى الدنيا ولا وعيد فى الآخرة .

والمراد بالوعيد : الوعيدُ الخاص بالنار أو اللعنة أو الغضب ، فإن الوعيد الخاص فى الآخرة كالعقوبة الخاصة فى الدنيا ، أى المقدرة ، فالتعزيزُ فى الدنيا نظيرُ الوعيد بغير النار أو اللعنة أو الغضب .

وهذه الضوابط يدخل فيها كل ما يثبت بالنص أنه كبيرة ، كالشرك ، والقتل ، والزنا ، والسحر ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، ونحو ذلك ، كالفرار من الزحف ، وأكلِ مال اليَتيم ، وأكلِ الربا ، وعقوق الوالدين ، واليمينِ الغموسَ وشهادةِ الزور ، وأمَثالِ ذلك .

وجوه ترجيح التعريف

وترجيح هذا التعريف من وجوه :

أحدها : أنه هو المأثور عن السلف ، كابن عباس ، وابن عيينة ، وأحمدَ بن حنبل وغيرهم .

الثانى : أن الله تعالى قال : ﴿ **إن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيماً** ﴾ (النساء : ٣١) .

فلا يستحق هذا الوعد الكريم من أوعد بغضب الله ولعنته وناره .

الثالث : أن ممن لم يقل بهذا الضابط مَن قال : إن الكبائر هى ما اتفقت الشرائع على تحريمه دون ما اختلف فيه ، وليس هذا القول بصواب ، إذ أن ذلك يقتضى أن شرب الخمر ، والتزويج ببعض المحارم ، والمحرم بالرضاعة والصهرية ، ونحو ذلك ، ليس من الكبائر ، وكذلك من قال : إن الكبائر هى ما سد باب المعرفة بالله أو كان فيه ذهاب الأموال والأبدان ، إذ أن هذا يقتضى أن شرب الخمر وأكل الخنزير والميتة ليس من الكبائر ، وهذا قول فاسد .

• قال : « **ونرى الصلاةَ خلفَ كلِّ برٍّ وفاجرٍ من أهلِ القبلةِ ، وعلى مَن ماتَ منهم** » .

وذلك لقول النبى ـ ﷺ ـ: « **صلوا خلف كل بَرّ وفاجر** » ، رواه مكحول عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ وأخرجه الدارقطنى وقال : مكحول لم يلق أبا

هريرة ، وفى إسناده معاوية بن صالح : مُتكلَّم فيه ، وقد احتج به مسلم فى صحيحه (١) .

وخرَّج الدراقُطْنىُّ أيضاً وأبو داودَ عن مكحول عن أبى هريرةَ ـ رضى الله عنه ـ قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ « **الصلاة واجبة عليكم مع كل مسلم ، بَرّاً كان أو فاجراً ، وإن عمل بالكبائر ، والجهادُ واجبٌ عليكم مع كل أمير ، بَرّاً كان أو فاجراً وإن عمل بالكبائر** » .

وفى صحيح البخارى أن عبد الله بنَ عمرَ ـ رضى الله عنه ـ كان يصلى خلف الحجاجِ بن يوسفَ الثقفى وكذا أنسُ بن مالك ، وكان الحجاج فاسقاً ظالماً .

وفى صحيح البخارى أيضاً أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **يُصلون لكم ، فإن أصابوا فلكم ولهم ، وإن أخطأوا فلكم وعليهم** » .

حكم الصلاة خلف مستور الحال والمبتدع المخفى بدعته

واعلم ـ رحمك الله وإيانا ـ أنه يجوز للرجل أن يصلى خلف من لم يعلم منه بدعةً ولا فسقاً ، باتفاق الأئمة ، وليس من شرط الائتمام أن يعلم المأموم اعتقادَ إمامه ، ولا أن يمتحنه ، فيقول : ماذا تعتقد ؟ بل يصلى خلف مستور الحال ، ولو صلى خلف مبتدع يدعو إلى بدعته ، أو فاسق ظاهر الفسق ، وهو الإمام الراتب الذى لا يمكنه الصلاة إلا خلفه ، كإمام الجمعةً والعيدين ، والإمام فى صلاة الحج بعرفة ، ونحو ذلك ، فإن المأموم يصلى خلفه عند عامة السلف والخلف ، ومن ترك الجمعة والجماعةَ خلف الإمام الفاجر ، فهو مبَتدع عند أكثر العلماء ، والصحيح أنه يصليها ولا يعيدها ، فإن الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ كانوا يصلون

---

(١) الحديث رواه الدارقطنى ص ١٨٥ مطولاً ، ورواه البيهقى فى السنن الكبرى ٤ / ١٩ من طريق الدارقطنى ، من رواية ابن وهب : حدثنى معاوية بن صالح عن العلاء بن الحرث عن مكحول عن أبى هريرة ، قال الدارقطنى : مكحول لم يسمع من أبى هريرة ، ومن دونه ثقات ، وقال البيهقى بعد كلام الدارقطنى : قد روى فى الصلاة على كل بر وفاجر والصلاة على من قال لا إله إلا الله أحاديث كلها فى غاية الضعف ، وأصح ما روى فى هذا الباب ، حديث مكحول عن أبى هريرة ، وقد أخرجه أبو داود فى كتاب السنن : أى الحديث الذى سيذكره الشارح ابن أبى العز هذا ، إلا أن فيه إرسالاً كما ذكر الدارقطنى ، وقد حققنا فى شرح مسند أحمد فى الحديث رقم ٥٧٢٤ أن الكلام فى معاوية بن صالح فيه تعسف من غير حجة وعلة هذا الحديث والذى بعده هى الانقطاع بين مكحول وأبى هريرة كما قال الدارقطنى والبيهقى كتبه أحمد محمد شاكر .

الجمعة والجماعة خلف الأئمة الفجار ولا يعيدون ، كما كان عبد الله بن عمر يصلى خلف الحجاج ، وكذلك أنس ، كما تقدم ، وكذلك عبد الله بنُ مسعود ـ رضى الله عنه ـ وغيره كانوا يصلون خلف الوليدِ بن عُقبةَ بنِ أبى مُعَيط ، وكان يشرب الخمر .

والفاسقُ والمبتدعُ صلاتُه فى نفسها صحيحةٌ ، فإذا صلى المأموم خلفه ، لم تبطل صلاته ، لكن إنما كرِه من كره الصلاة خلفه لأن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر واجب .

حكم الصلاة خلف مظهر البدعة أو الفسق

ومن ذلك : أن من أظهر بدعة وفجوراً ، لا يُرَتَّب إماماً للمسلمين ، فإنه يستحق التعزير حتى يتوب ، فإذا أمكن هجرُه حتى يتوبَ ، كان حسناً ، وإذا كان بعض الناس إذا ترك الصلاة خلفه وصلى خلف غيره أثر ذلك فى إنكار المنكر حتى يتوب أو يُعزَل أو ينتهى الناس عن مثل ذنبه ، كان في ذلك مصلحةٌ شرعية إذا لم يَفُت المأموم الجمعة ولا الجماعة ، وأما إذا كان تركُ الصلاة خلفه يفوِّت المأموم الجمعة والجماعة : فهنا لا يترك الصلاةَ خلفه إلا مبتدعٌ مخالف للصحابة ـ رضى الله عنهم ـ وكذلك إذا كان الإمام قد رتبه ولاة الأمور ، ليس فى ترك الصلاة خلفه مصلحة شرعية .

والخلاصة فى ذلك

والخلاصة : أن الصلاة خلف الأفضل : أفضل ، فإذا أمكن الإنسان أن لا يقدم مظهراً للمنكر فى الإمامة : وجب عليه ذلك ، لكن إذا ولاه غيرُه ، ولم يمكنه صرفهُ عن الإمامة ، أو كان لا يتمكن من صرفه عن الإمامة إلا بشَرّ أعظمَ ضرراً من ضرر ما أظهر من المنكر ، فلا يجوز دفعُ الفساد القليل بالفساد الكثير ، ولا دفعُ أخف الضررين بحصول أعظمهما ، فإن الشرائع جاءت بتحصيل المصالح وتكميلها ، وتعطيل المفاسدَ وتقليلها ، بَحَسب الإمكان ، وتفويتُ الجُمَع والجماعات أعظمُ فساداً من الاقتداء فيهما بالإمام الفاجر ، لا سيما إذا كان

التخلف عنها لا يدفع فجوراً ، فيبقى تعطيل المصلحة الشرعية بدون دفع تلك المفسدة .

وأما إذا أمكن فعل الجمعة والجماعة خلف البر ، فهذا أولى من فعلها خلف الفاجر ، وحينئذ ، فإذا صلى خلف الفاجر من غير عذر ، فهو موضع اجتهاد للعلماء ، منهم من قال : يُعيد ، ومنهم من قال : لا يعيد .

وأما الإمام إذا نسى أو أخطأ ، ولم يعلم المأموم بحاله ، فلا إعادة على المأموم ، للحديث المتقدم ، وقد صلى عمر ـ رضى الله عنه ـ وغيره وهو جُنُب ناسياً ، فأعاد الصلاة ، ولم يأمر المأمومين بالإعادة ، ولو علم أن إمامه بعد فراغه كان على غير طهارة ، أعاد عند أبى حنيفة ، خلافاً لمالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه وكذلك لو فعل الإمام ما لا يسوغ عن المأموم ، وفيه تفاصيلُ موضعُها كتب الفروع ولو علم أن إمامه يصلى على غير وضوء فليس له أن يصلى خلفه ، لأنه لاعِبٌ ، وليس بمُصَلٍّ .

وقد دلّت نصوص الكتاب والسُّنَّة وإجماع سلف الأمة أن ولى الأمر ، وإمام الصلاة ، والحاكم ، وأميرَ الحرب ، وعامل الصدَقَة : يُطاع فى مواضع الاجتهاد ، وليس عليه أن يطيع أتباعه فى موارد الاجتهاد ، بل عليهم طاعته فى ذلك ، وتركُ رأيهم لرأيه ، فإن مصلحة الجماعة والائتلاف ، ومفسدةَ الفرقة والاختلاف : أعظُم من أمر المسائل الجزئية ، ولهذا لم يَجزْ للحكام أن ينقض بعضهم حكم بعض ، والصواب المقطوع به : صحه صلاة بعض هؤلاء خلف بعض .

والحديث الذى رواه البخارى ، أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « يُصلّون لكم ، فإن أصابوا فلكم ولهم ، وإن أخطأوا فلكم وعليهم » ، نص صحيح صريح فى أن الإمام إذا أخطأ فخطؤه عليه ، لا على المأموم ، والمجتهد غايتُه أنه أخطأ بترك واجب اعتقد أنه ليس واجباً ، أو فَعَل محظوراً اعتقد أنه ليس محظوراً ، ولا يحل لمن يؤمن بالله واليوم الآخر أن يخالف هذا الحديث الصريحَ الصحيح بعد أن يبلغه ، وهو حجة على من يُطلق من الحنفية والشافعية والحنبلية أن الإمام إذا ترك ما يعتقد المأموم وجوبه : لم يصح الاقتداء به ! ! فإن الاجتماع والائتلاف مما يجب

رعايتُه وترك الخلاف المفضى إلى الفساد .

وقوله : « وعلى من مات منهم » : أى : ونرى الصلاة على من مات من الأبرار والفجار ، وإن كان يستثنى من هذا العموم : البُغاة وقطاع الطريق ، وكذا قاتل نفسه ، خلافاً لأبى يوسف ، لا الشهيد ، خلافاً لمالك والشافعى - رحمهما الله - على ما عرف فى موضعه ، لكن الشيخ إنما ساق هذا لبيان أنَّا لا نترك الصلاة على من مات من أهل البدع والفجور ، لا للعموم الكلى ، ولكن الكلام لأهل الإسلام قسمان : إما مؤمن ، وإما منافق ، فمن علم نفاقه : لم تجز الصلاة عليه والاستغفار له ، ومن لم يعلم ذلك منه : صُلى عليه ، فإذا علم شخصٌ نفاقَ شخص : لم يصل هو عليه ، وصلى عليه من لم يَعلم نفاقَه . وكان عمر - رضى الله عنه - لا يصلى على من لم يصل عليه حذيفة ، لأنه كان فى غزوة تبوك قد عرف المنافقين ، وقد نهى الله - سبحانه وتعالى - رسوله - ﷺ - عن الصلاة على المنافقين ، وأخبر أنه لا يغفر لهم باستغفاره ، وعلَّل ذلك بكفرهم بالله ورسوله ، فمن كان مؤمناً بالله ورسوله : لم ينه عن الصلاة عليه ، ولو كان له من الذنوب الاعتقادية البدعية أو العملية الفجورية ما له ، بل قد أمره الله تعالى بالاستغفار للمؤمنين ، فقال تعالى : ﴿ فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ﴾ (محمد : ١٩) .

فالتوحيد أصل الدين والاستغفار عام وخاص : أما العام فظاهر ، كما فى هذه الآية ، وأما الخاص : فالصلاة على الميت ، فما من مؤمن يموت إلا وقد أمر المؤمنون أن يصلوا عليه صلاة الجنازة ، وهم مأمورون فى صلاتهم عليه أن يدعَو له ، كما روى أبو داود وابن ماجة عن أبى هريرة - رضى الله عنه - قال : سمعت رسول الله - ﷺ - يقول : « **إذا صليتم على الميت فأخلصوا له الدعاء** » .

هل ننزل معيناً من أهل القبلة جنة أو ناراً

• قال : « **ولا ننزِّل أحداً منهم جنةً ولا ناراً** » .

ويريد بذلك : أنا لا نقول عن أحد معيَّن من أهل القبلة إنه من أهل الجنة أو من أهل النار ، إلا من أخبر الصادق - ﷺ - أنهَ من أهل الجنة ، كالعَشرة - رضى الله

عنهم ـ ، وإن كنا نقول : إنه لابد أن يدخل النارَ من أهل الكبائر من يشاء الله إدخالَه النار ، ثم يخرج منها بشفاعة الشافعين ، ولكنا نقف فى الشخص المعيَّن ، فلا نشهد له بجنة ولا نار ، إلا عن علم ، لأن الحقيقة باطنة ، والحال التى يموت عليها كلُّ شخص لا نحيط بها ، لكن نرجو للمحسنين ، ونخاف على المسىء .

وقد يشهد بالجنة لمن شهد له المؤمنون ، كما فى الصحيحين أنه : « **مرَّ بجنازة ، فأثنوا عليها بخير ، فقال النبى ـ ﷺ ـ : وَجَبَتْ . ومرّ بأخرى ، فأثنى عليها بشرٍّ ، فقال : وَجَبَتْ** » وفى رواية أنه كرر « **وجبَت** » ثلاث مرات ، فقال عمر : يا رَسول الله : ما وَجَبت ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **هذا أثنيتم عليه خيراً وجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شراً وجبت له النار ، أنتم شهداء الله فى الأرض** » .

وقال ـ ﷺ ـ : « **توشكون أن تعلموا أهلَ الجنة من أهل النار ، قالوا : بمَ يا رسول الله ؟ قال : بالثناء الحسَن والثناء السىء** » فأخبر أن ذلك مما يُعلم به أهلُ الجنة وأهل النار .

* قال : « **ولا نَشهدُ عليهم بكفر ولا شركٍ ولا بنفاقٍ ، ما لم يَظهَرْ منهم شىءٌ من ذلك ، ونَذَرُ سرائرهم إلى الله تعالى** » .

لأنا قد أمرنا بالحكم بالظاهر ، ونُهينا عن الظن واتباع ما ليس لنا به علم .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ﴾ (الحجرات : ١٢) .

متى يحل دم المسلم ؟

* قال : « **ولا نَرَى القتلَ على أحدٍ من أمةِ محمدٍ ـ ﷺ ـ إلا مَن وَجَبَ عليهِ السيف** » .

ففى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **لا يحل دم امرئ مسلم يشهد أن لا إله إلا اللهُ وأنى رسولُ الله إلا بإحدى ثلاثٍ : الثيِّب الزانى ، والنفس بالنفس ، والتارك لدينه المفارق للجماعة** » .

وجوب طاعة ولى الأمر ما لم يأمر بمعصية

* قال : « **ولا نَرَى الخروجَ على أئمتنا ووُلاة أمورنا ، وإن جارُوا ، ولا ندعوا عليهم ، ولا ننزع يداً من طاعتهم ، ونرى طاعَتَهم من طاعة الله ـ عز وجل ـ فريضةً ، ما لم يأمروا بمَعصية وندعوا لهم بالصلاحِ والمعافاة** » .

وذلك لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء : ٥٩) .

وفى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **من أطاعنى فقد أطاع الله ، ومن عصانى فقد عصى الله ، ومن يُطع الأميرَ فقد أطاعنى ، ومن عصى الأمير فقد عصانى** » .

وعن أبى ذر ـ رضى الله عنه ـ : « **أن خليلى أوصانى أن أسمع وأطيع وإن كان عبداً حبشياً مجدَّعَ الأطراف** » .

وفى الصحيحين : « **على المرء المسلم السمعُ والطاعةُ فيما أحب وكره ، إلا أن يؤمر بمعصية ، فإن أمر بمعصية فلا سمعَ ولا طاعة** » .

وعن عوف بن مالك ـ رضى الله عنه ـ عن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **خيارُ أئمتكم الذين تحبونهم ويُحبونكم ، وتصلّون عليهم ويصلون عليكم وشرارُ أئمتكم الذين تُبغضونهم ويُبغضونكم ، وتلعنونهم ، ويلعنونكم ، فقلنا : يا رسول الله ، أفلا ننابذهم بالسيفَ عند ذلك ؟ قال : لا ، ما أقاموا فيكم الصلاة ، إلا من ولى عليه وال : فرآه يأتى شيئاً من معصية الله ، فليكره ما يأتى من معصية الله ، ولا ينزع يداً من طاعة** » .

فقد دلَ الكتاب والسنة على وجوب طاعة أولى الأمر ، ما لم يُأمَروا بمعصية .

وتأمّل قوله تعالى : ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ ، كيف قال : وأطيعوا الرسول ، ولم يقل : وأطيعوا أولى الأمر منكم ! ! لأن أولى الأمر لا يفردون بالطاعة ، بل يُطاعون فيما هو طاعة لله ورسوله .

وأما لزوم طاعتهم وإن جاروا فلأنه يترتب على الخروج من طاعتهم من المفاسد

أضعافُ ما يحصل من جَورهم ، بل فى الصبر على جورهم تكفيرُ السيئات ومضاعفةُ الأجور ، فإن الله تعالى ما سلطهم علينا إلا لفساد أعمالنا ، والجزاء من جنس العمل ، فعلينا الاجتهاد بالاستغفار والتوبة وإصلاح العمل (١) .

التمسك بالسنة والجماعة سبيل النجاة

* قال : « **ونتّبعُ السنَّةَ والجماعةَ ، ونجتنبُ الشذوذَ والخلافَ والفُرقة** » .

والسنة : طريقةُ الرسول ـ ﷺ ـ والجماعة : المسلمون ، وهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان إلى يوم الدين ، فاتّباعهم هدى ، وخلافُهم ضلال .

وثبت فى السنن الحديث الذى صححه الترمذى ، عن العرباض بن ساريَة قال : وعظنا رسول الله ـ ﷺ ـ موعظة بليغة ذَرفت منها العيونَ ، ووَجلت منها القلوب ، فقال قائل : يا رسول الله ، كأن هذه موعظة مُودِّع ؟ فماذا تعهَد إلينا ؟ قال : « **أوصيكم بالسمع والطاعة ، فإنه من يعش منكم بعدى فسَيَرى اختلافاً كثيراً ، فعليكم بسنتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها ، وعضُّوا عليها بالنواجِذ ، وإياكم ومُحْدَثات الأمور ، فإن كلَّ بدعة ضلالة** » .

وقال ـ ﷺ ـ : « **إن أهل الكتابَين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملّة ، وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ، يعنى : الأهواء ، كلُّها فىَ النار إلا واحدة ، وهى الجماعة** » وفى رواية : قالوا : من هى يا رسول الله ؟ قال : « **ما أنا عليه وأصحابى** » ، فبين ـ ﷺ ـ أن عامة المختلفين هالكون من الجانبين ، إلا أهلَ السنة والجماعة .

وما أحسنَ قولَ عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ حيث قال : « مَنْ كان منكم مُسْتَنّاً فليستن بمن قَد مات ، فإن الحي لا تُؤمن عليه الفتنة ، أولئك أصحابُ محمد ـ ﷺ ـ كانوا أفضلَ هذه الأمة ، أبرَّها قلوباً ، وأعمقَها علماً ، وأقلها تكلّفاً قوم اختارهم الله لصحبة نبيه وإقامة دينه ، فاعرفوا لهم فضلَهم ، واتبعوهم فى

(١) هذا فى الحاكم المسلم الذى يحكم بالشريعة ولكن فيه نوع ظلم ، إذا جاء إلى الحكم ببيعة شرعية من أهل الحل والعقد ، وأما الذى تحل قوانينه الحرام وتحرم الحلال فإن هذه النصوص لا تشمله ، بل يشمله ما قاله الطحاوى والشارح آنفا فيمن لا يحكم بما أنزل الله . قاله عبد المنعم .

آثارهم ، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم ودينهم ، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم .

الحب والبغض فى الله

• **قال الطحاوى : « ونُحبُّ أهلَ العدلِ والأمانةِ ، ونُبغضُ أهلَ الجَوْرِ والخيانة »** .

وهذا من كمال الإيمان وتمام العبودية ، فإن العبادة تتضمن كمالَ المحبة ونهايتَها ، وكمالَ الذل ونهايته ، فمحبةُ رسُلِ الله وأنبيائه وعباده المؤمنين من محبة الله ، وإن كانت المحبة لا يستحقها غيرُه فغيرُ الله يُحَبُّ فى اللهَ ، لا مع الله ، فإن المحب يحب ما يحب محبُوبه ، ويُبغض ما يبغض ، ويوالى من يواليه ، ويعادى من يعاديه ، ويرضى لرضائه ، ويغضب لغضبه ، ويأمر بما يأمر به ، وينهى عما ينهى عنه ، فهو موافق لمحبوبه فى كل حال ، والله تعالى يحب المحسنين ، ويُحب المتقين ، ويُحب التوابين ، ويحب المتطهرين ، ونحن نحب من يحبه الله ، والله لا يحب الخائنين ، ولا يحب المفسدين ، ولا يحب المستكبرين ، ونحن لا نحبهم أيضاً ، ونبغضهم ، موافقة له سبحانه وتعالى :

رد علم المتشابة إلى عالمه

* قال رحمه الله : **« ونقول : (اللهُ أعلَمُ) فيما اشتَبَه علينا علمُه »** .

وقد تقدم فى كلام الشيخ ـ رحمه الله ـ أنه ما سلم فى دينه إلا مَن سلَّم لله ـ عز وجل ـ ولرسوله ـ ﷺ ـ وردَّ علم ما اشتبه عليه إلى عالمه .

وقال تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ** ﴾ (الأعراف : ٣٣) .

وقد أمر اللهُ نبيه ـ ﷺ ـ أن يرُدَ علمَ ما لم يعلم إليه ، فقال تعالى : ﴿ **قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ** ﴾ (الكهف : ٢٦) .

وقد قال النبى ـ ﷺ ـ لما سئل عن أطفال المشركين : « **الله أعلم بما كانوا عاملين** » .

مخالفة الرافضة فى أمور فقهية

* قال : « **ونرى الْمَسْحَ على الخُفَّيْنِ ، فى السَفَر والحَضَرِ ، كما جاء فى الأثرِ** » .

فقد تواترت السنة عن رسول الله ـ ﷺ ـ بالمسحِ على الخفين ، وبغسل الرجلين ، والرافضةُ تخالف هذه السنةَ المتواترة .

وفى آية الوضوء قراءتان مشهورتان : النصبُ والخفض ، وتوجيهُ إعرابهما مبسوطٌ فى موضعه ، وقراءةُ النصب نصٌّ فى وجود الغسل ، لأن العطف على المحل إنما يكون إذا كان المعنى واحداً .

* قال : « **والحَجُّ والجهادُ ماضيان مع أولى الأمر من المسلمين ، بَرِّهم وفاجرِهم ، إلى قِيام الساعةِ ، لا يُبطِلها شىءٌ ولا يَنْقُضُها** » .

لأن الحج والجهاد فرضان يتعلقان بالسفر ، فلابد من سائس يسوس فيهما ، ويقاوم فيها هذا العدو ، وهذا المعنى كما يحصل بالإمام البَر : يحصل بالإمام الفاجر .

الإيمان بكتابة الملائكة وحفظهم لنا

* قال : « **ونؤمنُ بالكرامِ الكاتبين ، فإن الله قد جعَلَهم علينا حافظين** » .

فقد قال تعالى : ﴿ **وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ (الإنفطار : ١٠ ، ١١ ، ١٢) .

وقال سبحانه : ﴿ **إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ** ﴾ (ق : ١٧ ، ١٨) .

وقال ـ عز وجل ـ : ﴿ **أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ** ﴾ (الزخرف : ٨٠) .

وفى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار ، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر ، فيصعد إليه الذين كانوا فيكم ، فيسألم ـ والله أعلم بهم ـ كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون : أتيناهم وهم يصلون ، و فارقناهم وهم يصلون** » .

وقد ثبت بالنصوص المذكورة أن الملائكة تكتب القولَ والفعل ، وكذلك النية ، لأنها فعل القلب ، فدخلت فى عموم ﴿ **يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ** ﴾ ويشهد لذلك قول النبى ـ ﷺ ـ ، « **قال الله عز وجل : إذا هَمَّ عَبْدى بسيئة فلا تكتبوها عليه ، فإن عملَها فاكتبوها عليه سيئة ، وإذا هَمَّ عبدى بحسنَة فلم يعملها فاكتبوها له حسنة ، فإنَ عملها فاكتبوها عشراً** » .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **قالت الملائكة : ذاك عبد يريد أن يعمل سيئة ، وهو أبصَرُ به ، فقال : ارقُبوه ، فان عملها فاكتبوها بمثلها ، وإن تركَها فاكتبوها له حسنة ، إنما تركها من جرّائى** » . خرجاهما فى الصحيحَين ، واللفظ لمسلم .

الإيمان بملك الموت

* قال : « **ونؤمن بمَلَك الموت ، الموكَّل بقَبْض أرواحِ العالَمين** » .

فقد قال تعالى : ﴿ **قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ** ﴾ (السجدة : ١١) .

ولا تعارض هذه الآية قوله تعالى : ﴿ **حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لا يُفَرِّطُونَ** ﴾ (الأنعام : ٦١) .

ولا قوله تعالى : ﴿ **اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى** ﴾ (الزمر : ٤٢) .

لأن ملك الموت يتولى قبضَها واستخراجها ، ثم تأخذُها منه ملائكة الرحمة أو ملائكة العذاب ويتولَّوْنها بعده ، كل ذلك بإذن الله وقضائه وقدره ، وحكمه وأمره ، فصحت إضافة التَوَفّى إلى كل بحَسبه .

الإيمان بعذاب القبر لمستحقه

* قال أبو جعفر : « **ويعذاب القبر لمن كان له أهلاً ، وسؤال مُنكر ونكير فى قبره عن ربّه ودينه ونبيه ، على ما جاءت به الأخبارُ عن رسول الله - ﷺ - وعن الصحابة - رضوانُ اللّهِ عليهم - والقبرُ روضةٌ من رياضِ الجنة ، أو حفرةٌ من حُفَرِ النيرانِ** » .

ومصداق ذلك ما رواه البخارى - رحمه الله - عن أنس - رضى الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال : « **العبد إذا وُضع فى قبره وتُولّى وذهب أصحابه حتى إنه ليسمع قَرع نعالهم : أتاه مَلكان فأقعداه فيقولان له : ما كنت تقول فى هذا الرجل ، محمَد - ﷺ - ؟ فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسولُه ، فيقال : انظر إلى مقعدك من النار أبدلك الله به مقعداً من الجنة . قال النبى - ﷺ - فيراهما جميعا ، وأما الكافر - أو المنافق - فيقول : لا أدرى ، كنت أقول ما يقول الناس فيقال : لا دريتَ ولا تليتَ ، ثم يضرب بمطرقة من حديد ضربةً بين أذنيه ، فيصيحُ صيحة يسمعها من يليه ، إلا الثقلين** » .

وقال قتادة : روى لنا أنه يفسح له فى قبره .

وفى الصحيحين عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن النبى - ﷺ - : « **أنه مرَّ بقبرين يعذبان ، فقال : إنهما ليعذَّبان ، وما يعذبان فى كبير ، أما أحدهما فكان لايستتر من البول ، وأما الآخر فكان يمشى بالنميمة ، ثم أخذ جريدةً رَطبة ، فشقّها بنصفين ، ثم غرز فى كل قبر واحده، فقالوا : يا رسول الله ، لم صنعت هذا ؟ فقال : لعله أن يخفف عنهما ما لم ييبسا** » .

وقد تواترت الأخبار عن رسُول الله - ﷺ - فى ثبوت عذاب القبر ونعيمه لمن كان لذلك أهلاً ، وسؤال الملكين ، فيجب اعتقادُ ثبوت ذلك والإيمان به ، ولا يتكلم عن كيفيته ، إذ ليس للعقل وقوف على كيفيته ، لكونه لا عهد له به فى هذه الدار ، والشرع لا يأتى بما تُحيله العقول ، ولكنه قد يأتى بما تَحار فيه العقول ، فإن عَوْد الروح إلى الجسد ليس على الوجه المعهود فى الدنيا ، بل تعاد الروح إليه إعادةً غيرَ الإعادة المألوفة فى الدنيا .

وليس السؤال فى القبر للروح وحدَها ، كما قال ابن حزم وغيره ، وأفسد منه قول من قال : إنه للبدن بلا روح والأحاديث الصحيحة ترد القولين ، وكذلك عذاب القبر يكون للنفس والبدن جميعاً ، باتفاق أهل السنة والجماعة ، تنعم النفس وتعذب مفردة عن البدن ومتصلة به .

واعلم أن عذاب القبر هو عذاب البرزخ ، فكلُّ من مات وهو مستحق للعذاب : ناله نصيبٌ منه ، قُبِرَ أو لم يُقبر ، أكلته السباع أو احترق حتى صار رماداً ونسف فى الهواء ، أو صُلبَ أو غَرق فى البحر ، وصل إلى روحه وبدنه من العذاب ما يصل إلى المقبورَ ، وما ورَد من إجلاسه واختلاف أضلاعه ونحو ذلك فيجب أن يفهم عن الرسول ـ ﷺ ـ مرادُه عن غير غلوّ ولا تقصير ، فلا يُحَمَّل كلامه ما لا يحتمله ، ولا يقصر به عن مراد ما قصده من الهدى والبيان ، فكم حصل بإهمال ذلك والعدول عنه من الضلال والعدول عن الصواب ما لا يعلمه إلا الله ، بل سوءُ الفهمِ عن الله ورسوله أصلُ كل بدعة وضلالة نشأت فى الإسلام ، وهو أصل كلِّ خطأ فى الفروع والأصول ، ولا سيَّما إن أضيف إليه سوءُ القصد ، والله المستعان .

الدور ثلاث : الدنيا ، البرزخ ، القرار

فالحاصل : أن الدُور ثلاث : دارُ الدنيا ، ودارُ البرزخ ، ودار القرار ، وقد جعل الله لكل دار أحكاماً تخصها ، وركب هذا الإنسان من بدن ونفس ، وجعل أحكام الدنيا على الأبدان ، وأرواح تبعٌ لها وجعل أحكام البرزخ على الأرواح ، والأبدان تَبَعٌ لها فإذا جاء يوم حشر الأجساد جميعاً فإذا تأملت هذا المعنى حق التأمل : ظهر لك أن كون القبر روضة من رياض الجنة أو حفرةً من حفر النار : مطابقٌ للعقل ، وأنه حق لا مرية فيه ، وبذلك يتميز المؤمنون بالغيب من غيرهم .

ويجب أن يُعلم أن النار التى فى القبر والنَعيم ليست من جنس نار الدنيا ولا نعيمها ، وإن كان الله تعالى يحمى عليه الترابَ والحجارة التى فوقه وتحته حتى تكون أعظمَ حراً من جمر الدنيا ، ولو مسها أهل الَدنيا : لم يحسوا بها ، بل أعجب من هذا أن الرجلين يُدفن أحدهما إلى جنب صاحبه ، وهذا فى حفرة من

النار ، وهذا فى روضة من رياض الجنة ، لا يصل من هذا إلى جاره شيء من حر ناره ، ولا من هذا إلى جاره شيء من نعيمه ، وقدرة الله أوسعُ من ذلك وأعجب ، ولكن النفوس مولعة بالتكذيب بما لم تحط به علماً ، وقد أرانا الله فى هذه الدار من عجائب قدرته ما هو أبلغ من هذا بكثير وإذا شاء الله أن يُطْلع على ذلك بعضَ عباده : أَطلعه وغيّبه عن غيره ، ولو أطلع الله على ذلك العبادَ كلهم لزالت حكمة التكليف والإيمان بالغيب ، ولما تدافن الناس ، كما فى صحيح مسلم عن النبى - ﷺ -: « **لولا أن لا تدافنوا لدعوتُ الله أن يسمعكم من عذاب القبر** » .

هل يدوم عذاب القبر

وهل يدوم عذاب القبر أو ينقطع ؟

جوابه : أنه نوعان : منه ما هو دائم ، كما قال تعالى : ﴿ **النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** ﴾ (غافر : ٤٦) .

وكذا فى حديث البراء بن عازب فى قصة الكافر : « ثم يفتح له باب إلى النار فينظر إلى مقعده فيها حتى تقوم الساعة » . رواه الإمام أحمد .

والنوع الثانى : أنه مدة ثم ينقطع ، وهو عذاب بعض العصاة الذين خفت جرائمهم .

منازل الأرواح

وقد اختلف فى مُستقرّ الأرواح ما بين الموت إلى قيام الساعة ، ويتلخص من مجموع الأدلة أن الأرواح فى البرزخ متفاوتة أعظمَ تفاوت ، فمنها : أرواح فى أعلى عليين ، فى الملأ الأعلى ، وهى أرواح الأنبياء - صلوات الله عليه وسلامه - وهم متفاوتون فى منازلهم ، ومنها أرواح فى حواصل طير خُضر ، تسرح فى الجنة حيث شاءت ، وهى أرواح بعض الشهداء لا كلهم ، بل من الشهداء من تُحبس روحه عن دخول الجنة ، لدَين عليه ، كما فى مسند أحمد عن عبد الله بن جحش : « **أن رجلاً جاء إلى النبى - ﷺ - فقال : يا رسول الله : ما لى إن قُتلت فى سبيل الله ؟ قال : الجنة ، فلما ولّى قال : إلا الدَين سارّنى به جبريلُ آنفاً** » .

ومن الأرواح من يكون محبوساً على باب الجنة ، كما فى الحديث الذى قال فيه رسول الله ـ ﷺ ـ : « **رأيت صاحبكم محبوساً على باب الجنة** » ، ومنهم من يكون محبوساً فى قبره ، ومنهم من يكون فى الأرض ، ومنها أرواح تكون فى تَنّور الزُناة والزوانى ، وأرواح فى نهر الدم تسبح فيه وتلقم الحجارة كل ذلك تشهد له السنة ، والله أعلم .

حياة خاصة للشهداء

وأما الشهداء فقد قال الله تعالى فيهم : ﴿ **وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ** ﴾ (آل عمران : ١٦٩) .

وهى حياة اختصوا بها ، فإن الله تعالى جعل أرواحهم فى جواف طير خضر ، كما فى حديث ابن عباس أنه قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **لما أصيب إخوانكم ـ يعنى يوم أحد ـ جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ، ترد أنهارَ الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتأوى إلى قناديلَ من ذهب مظللة فى ظل العرش** » ، رواه الإمام أحمد وأبو داود ، وبمعناه حديث آخر عن عبد اللهً بن مسعود فى صحيح مسلم .

الإيمان بالبعث وما يتبعه

● **قال الطحاوى : « ونؤمنُ بالبعث وجزاء الأعمال يومَ القيامة ، والعَرْضِ والحساب ، وقراءة الكتابِ ، والثوابِ والعقابِّ ، والصِّراط والميزان »** .

لأن الإيمان بالمَعاد مما دلّ عليه الكتاب والسنة ، والعقلُ والفطَرُ السليمة ، فأخبر الله سبحانه فى كتابه العزيز عنه ، وأقام الدليل عليه ، وردَ على المنكرين ، فى غالب سور القرآن ، وذلك أن الإيمان بالرب عام فى بنى آدم ، وهو فطرى ، بخلاف الإيمان باليوم الآخر ، فإن منكريه كثيرون ، ومحمد ـ ﷺ ـ لما كان خاتمَ الأنبياء ، وكان قد بُعث عند اقتراب الساعة ، بيّن تفصيلَ الآخرة بياناً لا يوجد فى شىء من كتب الأنبياء .

والقرآن بيّن مَعادَ النفس عند الموت ، ومعادَ البدن عند القيامة الكبرى ، وزعم الفلاسفة أن الأنبياء قبل محمد ـ ﷺ ـ لم يُخبِروا بالآخرة ، وقد كذبوا ، فإن

القرآن ذكر معرفة الأنبياء بالآخرة ، وأولهم آدم ـ عليه السلام ـ إذ قال له ربه : ﴿ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾ (الأعراف : ٢٤) .

وقال : إبراهيم ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ (الشعراء : ٨٢) .

وقال : موسى ـ عليه السلام ـ : ﴿ وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ ﴾ (الأعراف : ١٥٦) .

وقول الطحاوي : « وجزاء الأعمال » هو من قوله تعالى : ﴿ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (السجدة : ١٧) .

وقوله تعالى : ﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِّنْهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (القصص : ٨٤) .

وقوله : « والعرض والحساب ، وقراءة الكتاب ، والثواب والعقاب » هو من قوله تعالى : ﴿ فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتِ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَىٰ أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ (١٧) يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَىٰ مِنكُمْ خَافِيَةٌ (١٨) فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ (١٩) إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ ﴾ (الحاقة : ١٥ ، ٢٠) .

وروى البخاري ـ رحمه الله ـ في صحيحه عن عائشة ، أن النبي ـ ﷺ ـ قال : « ليس أحد يُحَاسبَ يوم القيامة إلا هلك ، فقلت : يا رسول الله : أليس قد قال الله تعالى : فأما من أوتيَ كتابهَ بيمينه فسوف يحاسَب حساباً يسيراً ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ : إنما ذلك العرض ، وليس أحد يُناقش الحساب يوم القيام إلا عُذِّب » يعني أنه لو ناقش في حسابه لعبيده لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولكنه تعالى يعفو ويصفح .

وقوله : « والصراط » أي ونومن بالصراط ، وهو جسر على جهنَّم ، إذا انتهى

الناس بعد مفارقتهم مكانَ الموقف إلى الظُلمة التى دون الصراط ، كما قالت عائشة - رضى الله عنها - : أن رسول الله - ﷺ - سئل : « أين الناس يوم تُبدّل الأرض غيرَ الأرض والسموات ؟ فقال : هم فى الظلمة دون الجسر » .

وفى هذا الموضع يفترق المنافقون عن المؤمنين ، ويتخلفون عنهم ، ويسبقهم المؤمنون ، ويحال بينهم بسور يمنعهم من الوصول إليهم .

واختلف المفسرون فى المراد بالورود المذكور فى قوله تعالى : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلاَّ وَارِدُهَا ﴾ ما هو ؟

والأظهر والأقوى أنه المرور على الصراط . قال تعالى : ﴿ ثُمَّ نُنَجِّي الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّنَذَرُ الظَّالِمِينَ فِيهَا جِثِيًّا ﴾ (مريم : ٧٢) .

وفى الصحيح أنه - ﷺ - قال : « **والذى نفسى بيده : لا يَلج النارَ أحدٌ بايعَ تحت الشجرة ، قالت حفصة : فقلت يا رسول الله : أليس الله يقول : وإن منكم إلا واردها ؟ فقال ألم تسمعيه قال : ثم نُنَجِّى الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جِثِياً ؟** » .

أشار - ﷺ - إلى أن ورود النار لا يستلزم دخولها ، وأن النجاة من الشر لا تستلزم حصوله ، بل تستلزم انعقاد سببه ، فمن طلبه أعداؤه ليهلكوه ولم يتمكنوا منه يقال : نجاه الله منهم ، ولهذا قال تعالى : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا ﴾ وقال : ﴿ فَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا صَالِحًا ﴾ وقال : ﴿ وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا ﴾ ولم يكن العذاب أصابهم ، ولكن أصاب غيرهم ، ولولا ما خصهم الله به من أسباب النجاة لأصابهم ما أصاب أولئك وكذلك حال الوارد فى النار ، يمرون فوقها على الصراط ، ثم ينجى الله الذين اتقوا ويذر الظالمين فيها جثيا .

وقوله : « والميزان » أى ونؤمن بالميزان . قال تعالى : ﴿ وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَىٰ بِنَا حَاسِبِينَ ﴾ (الأنبياء : ٤٧) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ ﴾ (المؤمنون : ١٠٢ ، ١٠٣) .

قال القرطبى : قال العلماء : إذا انقضى الحساب كان بعده وزن الأعمال ، لأن الوزن للجزاء ، فينبغى أن يكون بعد المحاسبة ، فإن المحاسبة لتقرير الأعمال والوزن لاظهار مقاديرها ، ليكون الجزاء بحسبها .

والذى دلّت عليه السُنّة : أن ميزان الأعمال له كفتان حسيّتان مشاهدتان ، وأن العامل يوزن مع عمله ، ويشهد له ما روى البخارى عن أبىَ هريرة عن النبى - ﷺ - قال : « **إنه ليأتى الرجل العظيم السمين يوم القيامة لا يزنُ عند الله جناحَ بعوضة . قال : اقرأوا إن شئتم : فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً** » .

وروى الإمام أحمد عن ابن مسعود أنه كان يجنى سواكاً من الأراك ، وكان دقيق الساقين ، فجعلت الريح تكفؤه ، فضحك القوم منه ، فقال رسول الله - ﷺ - : « **ممّ تضحكون ؟ قالوا : يا نبى الله : من دقِة ساقيه ، فقال : والذى نفسى بيده لَهما أثقل فى الميزان من أُحُد** » .

وقد وردت الأحاديث أيضاً بوزن الأعمال أنفسها ، كما فى صحيح مسلم عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله - ﷺ - : « **الطَّهور شطرُ الإيمان ، والحمد لله تملأ الميزان** » .

وفى الصحيح - وهو خاتمة كتاب البخارى قوله - ﷺ - : « **كلمتان خفيفتان على اللسان ، حبيبتان إلى الرحمن ، ثقيلتان فى الميزان : سبحانَ الله وبحمده ، سبحانَ الله العظيم** » .

فلا يُلتفت إلى ملحد معاند يقول : الأعمال أعراضٌ لا تقبل الوزن ، وإنما يقبل الوزنَ الأجسام ! ! فإن الله يقلب الأعراض أجساماً ، كما تقدم .

فعلينا الإيمانُ بالغيب ، كما أخبرنا الصادق - ﷺ - من غير زيادة ولا نقصان .

الجنة والنار لا تبيدان ، أهل كلٍّ بين الفضل والعدل ، عاملون بما قدر لهم

• **قال الإمام أبو جعفر الطحاوى : « والجنةُ والنارُ مخلوقتان ، لا تَفْنَيان أبداً ولا تبيدان ، فإن الله تعالى خَلَق الجنةَ والنارَ قبلَ الخلق ، وخَلَقَ لهما أهلاً ، فمن شاءَ**

منهم إلى الجنة فضلاً منه ، مَن شاءَ منهم إلى النار عدلاً منه ، وكلٌّ يَعمل لما قد فرغ له ، وصائرٌ إلَى ما خُلِقَ له ، والخيرُ والشرُ مُقَدّرانَ على العباد » .

أما قوله : « والجنة والنار مخلوقتان » فاتفق أهل السنة على أن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان الآن ، ولم يَزَل على ذلك أهل السنة ، حتى نبغتْ نابغة من المعتزلة والقدرية ، فأنكرت ذلك ، وقالت : بل يُنشئهما الله يوم القيامة ! ! وَحَملهم على ذلك أصلُهم الفاسد الذى وضعوا به شريعةً لما يفعله الله ، وأنه ينبغى أن يفعل كذا ، ولا ينبغى أن يفعل كذا ! ! وقاسُوه على خلقه فى أفعالهم ، فهم مشبِّهة فى الأفعال ، ودخل التجهم فيهم ، فصاروا مع ذلك مُعَطلة ، وقالوا : خلقُ الجنة قبل الجزاء : عَبَث ! لأنها تصيرُ مُعَطَلة مُدداً مُتطاولةَ ! ! فردوا من النصوص َما خالف هذه الشريعة الباطلة التى وضعوها للرب تعالى ، وحرفوا النصوص عن مواضعها ، وضللوا من خالف شريعتهم .

فمن نصوص الكتاب : قوله تعالى عن الجنة : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ** ﴾ وعن النار : ﴿ **أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ** ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ **وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ (١٣) عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ (١٤) عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ** ﴾ (النجم : ١٣ ، ١٥) .

وقد رأى النبى ـ ﷺ ـ سدرة المنتهى ، ورأى عندها جنة المأوى ، كما فى الصحيحين ، وفى حديث أنس ـ رضى الله عنه ـ فى قصة الإسراء ، وفى آخره : « **ثم انطلق بى جبرائيل حتى أتى سدَرةَ المنتهى ، فغشيها ألوان لا أدرى ما هى . قال : ثم دخلت الجنة ، فإذا هى جنَابذُ اللؤلؤ ، وإذا ترابُها المسك** » .

وأما شُبهةُ من قال : إنها لم تُخْلق بعد ، وهى : إنها لو كانت مخلوقة الآن لوجب اضطراراً أن تفنَى يوم القيامة وأن يهلك كل من فيها ويموت ، لقوله تعالى : ﴿ **كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ** ﴾ وقد قال تعالى عن امرأة فرعون إنها قالت : ﴿ **رَبِّ ابْنِ لِي عِندَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ** ﴾ فالجواب : أنكم إن أردتم بقولكم إنها الآن معدومة بمنزلة النفخ فى الصور وقيام الناس من القبور ، فهذا باطل ، يرده ما تقدم من الأدلة وأمثالها مما لم يذكر ، وإن أردتم أنها لم يكمل خلق جميع ما أعدّ الله فيها لأهلها ، وأنها لا يزال الله يُحدث فيها شيئاً بعد شىء ، وإذا دخلها المؤمنون أحدث الله فيها

عند دخولهم أموراً أخرى : فهذا حق لا يمكن ردّه ، وأدلتكم هذه إنما تدل على هذا القدر ، وأما احتجابكم بقوله تعالى : ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ﴾ فأثبتُّم سوءُ فهمكم معنى الآية ، واحتجاجُكم بها على عدم وجود الجنة والنار الآن ، نظيرُ احتجاج إخوانكم بها على فنائهما وخرابهما وموتُ أهلهما ! ! فلم تُوَفّقوا أنتم ولاإخوانكم لفْهم معنى الآية ، وإنما وُفق لذلك أئمة الإسلام ، فِمن كلامهم : أن المراد : « كل شيء » مما كتب الله عليه الفناء والهلاك « هالك » والجنة والنار خلقتا للبقاء لا للفناء ، وكذا العرش ، فإنه سقف الجنة ، والنصوص مُحْكَمة دالة على بقاء الجنة وعلى بقاء النار أيضاً .

وقوله : « لا تفنَيان أبداً ولا تبيدان » هذا قول جمهورِ الأئمة من السَلفَ والخَلَف .

فأما أبَدَية الجنة ، وأنها لا تفنَى ولا تبيد ، فهذا مما يُعلم بالضرورة أن رسول الله ـ ﷺ ـ أخبر به .

قال تعالى : ﴿إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ﴾ (ص : ٥٤) .

وقال سبحانه : ﴿أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ (الرعد : ٣٥) .

والأدلة من السنة على أبَدية الجنة ودوامها كثيرة ، كقوله ـ ﷺ ـ: « ينادى مناد يا أهلَ الجنة : إنّ لكم أن تصحّوا فلا تسقموا ، وأن تشبّوا فلا تهَرموا أبداً ، وأنَّ تحَيْوا فلا تموتوا أبداً » .

وأما أبديه النار فمفهوم من مثل قوله تعالى : ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ ومن قوله : ﴿خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾ ، وقد دلت السنة أنه يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وأحاديث الشفاعة صريحة فى خروج عصاة الموحدين من النار ، وأن هذا حكم مختص بهم ، فلو خرج الكفار منها لكانوا بمنزلهم .

وقول الطحاوى : « وخلق لهما أهلاً » هو من قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ﴾ (الأعراف : ١٧٩) .

وقال النبى ـ ﷺ ـ: « **إن الله خلق للجنة أهلاً ، خلقهم لها وهم فى أصلاب**

آبائهم ، وخلق للنار أهلاً ، خلقهم لها وهم فى أصلاب آبائهم » . رواه مسلم وأبو داود .

وأما قوله : « فمَن شاء منهم إلى الجنة فضلاً منه ، ومن شاء منهم إلى النار عدلاً منه » فإن مما يجب أن يعلم : أن الله تعالى لا يمنع الثواب إلا إذا منع سببه ، وهو العمل الصالح ، فإنه : ﴿ **وَمَن يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْمًا وَلا هَضْمًا** ﴾ (طه : ١١٢) .

وكذلك لا يعاقب أحداً إلا بعد حصول سبب العقاب ، فإن الله تعالى يقول : ﴿ **وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ** ﴾ (الشورى : ٣٠) .

وهو سبحانه المعطى المانع ، لا مانعَ لما أعطى ، ولا معطىَ لما منعَ ، لكن إذا مَنّ على الإنسان بالإيمان والعمل الصالح فلا يمنعه موجب ذلك أصلاً ، بل يعطيه من الثواب والقُرَب ما لا عَينٌ رأت ولا أذن سمعت ، وحيث منعه ذلك فلا نتفاء سببه ، وهو العمل الصالح ، ولا ريب أنه يهدى من يشاء ، ويضل من يشاء ، لكن ذلك كله حكمةٌ منه وعدل ، فمنعه للأسباب التى هى الأعمال الصالحة من حكمته وعدله ، وأما المسببات بعد وجود أسبابها فلا يمنعها بحال إذا لم تكن أسباباً غير صالحة ، إما لفساد فى العمل ، وإما لسبب يعارض موجبه ومقتضاه ، فيكون ذلك لعدم المقتضى ، أو لوجود المانع ، وإذا كان منعه وعقوبته من عدم الإيمان والعمل الصالح ، وهو لم يعط ذلك ابتلاء وابتداء إلا حكمة منه وعدلاً ، فله الحمد فى الحالين ، وهو المحمود على كل حال ، كلَّ عطاء منه فضلُ ، وكل عقوبة منه عَدل ، فإن الله تعالي حكيم يضع الأشياء في مواضعها التي تصلح لها ، كما قال تعالى : ﴿ **وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾ (الأنعام : ١٢٤) .

معنى قوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾

● **قال الطحاوى : « الاستطاعةُ التى يجبُ بها الفعلُ من نحو التوفيق الذين لا يجوزُ أن يوصَفَ المخلوقُ به تكونُ مع الفعلِ ، وأما الاستطاعة من جهةِ الصحة**

والوُسْع ، والتمكن وسلامة الآلات ، فهى قبلَ الفعلِ ، وبها يتعلقُ الخطاب ، وهو كما قالَ تعالى : ﴿لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إلاَّ وُسْعَهَا﴾ .

الاستطاعة والطاقة والقدرة والوسع : ألفاظ متقاربة ، وتنقسم الاستطاعة إلى قسمين ، وقالت القدَرية والمعتزلة ، لا تكون القدرة إلا قبل الفعل ، وقابلهم طائفة من أهل السنة فقالوا : لا تكون إلا مع الفعل .

والذى قاله عامةُ أهل السنة : إن للعبد قدرةً هى مناط الأمر والنهى ، وهذه قد تكون قبله ، لا يجب أن تكون معه ، والقدرة التى بها الفعل لابد أن تكون مع الفعل ، لا يجوز أن يوجد الفعلُ بقدرة معدومة .

وأما القدرة التى من جهة الصحة والوسع والتمكن وسلامة الآلات : فقد تتقدم الأفعال ، وهذه القدرة المذكورة فى قوله تعالى : ﴿ولِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ (آل عمران : ٩٧) .

فأوجبَ الحجَ على المستطيع ، فلو لم يستطع إلا من حج : لم يكن الحجُ قد وجب إلا على من حجَ ، ولم يعاقب أحداً على ترك الحج ، وهذا خلاف المعلوم بالضرورة من دين الإسلام .

وكذا قولهُ تعالى : ﴿فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ والمراد منه استطاعةُ الأسباب والآلات .

وأما ثبوتُ الاستطاعة التى هى حقيقة القدرة ، فقد ذكروا فيها قوله تعالى : ﴿مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ﴾ (هود : ٢٠) .

والمراد فى هذه الآية : نفيُ حقيقة القدرة ، لا نفى الأسباب والآلات ، لأنها كانت ثابتة .

وكذلك قول صاحب موسى : ﴿إنكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِى صَبْراً﴾ (الكهف : ٦٧) .

إذ المراد حقيقةُ قدرة الصبر ، لا أسبابُ الصبر وآلاته فإن تلك كانت ثابتة له .

والقدرية يقولون : إن أقدار الله للمؤمن والكافر سواءُ ولا يقولون : إن الله خص المؤمن المطيعَ بإعانة حصل بها الإيمان ، بل هذا بنفسه رجَّح الطاعة ، وهذا

بنفسه رجح المعصية ، كالوالد الذى أعطى كلَّ واحد من بنيه سيفاً ، فهذا جاهد به فى سبيل الله ، وهذا قطع به الطريق .

وهذا القول فاسد باتفاق أهل السنة والجماعة المثبتين للقَدرَ ، فإنهم متفقون على أن لله على عبده المطيع نعمةً دينية ، خصه بها دون الكافر ، وأنه أعانه على الطاعة إعانةً لم يعن بها الكافر ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ أُوْلَئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴾ (الحجرات : ٧) .

وقال تعالى : ﴿ فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام : ١٢٥) .

أفعال العباد بين الخلق والكسب ، وفيه رد على الجبرية والقدرية

* قال أبو جعفر رحمه الله : « **وأفعالُ العبادِ هى خَلْقُ اللهِ وكسبٌ من العباد** »

وقال الشارح القاضى ابنُ أبى العز الأذرْعى : اختلف الناس فى أفعال العباد الاختيارية ، فزعمت الجبرية ـ ورئيسُهم الجهمُ بن صفوان ـ أن التدبير فى أفعال الخلق كلِّها لله تعالى ، وهى كلُّها اضطرارية ، كحركات المرتعش ، والعروق النابضة ، وحركات الأشجار ، وإضافتها إلى الخلق مجاز ، وهى على حسَب ما يضاف الشىء إلى محله دون ما يضاف إلى محصله ! وقابلتهم المعتزلة ، فقالوا : إن جميع الأفعال الاختيارية من جميع الحيوانات بخَلْقها ، لا تعلقَ لها بخلق الله لها ، واختلفوا فيما بينهم : أن الله يقدر على أفعال العبادَ أم لا ؟

وقال أهل الحق : أفعال العباد بها صاروا مطيعين وعصاة ، وهى مخلوقة لله تعالى ، والحقُ سبحانه وتعالى منفرد بخلق المخلوقات ، لا خالق لها سواه فالجبرية غلوا فى إثبات القدر ، فنَفوا صنع العبد أصلاً ، كما عملت المشبهةُ فى إثبات الصفات ، فشبهوا ، والقَدَرية نُفاة القَدَر جعلوا العباد خالقين مع الله تعالى ، ولهذا كانوا : « مجوس هذه الأمة » بل أردأ من المجوس ، من حيثُ إن المجوس

أثبتوا خالقَين ، وهم أثبتوا خالقين ! ! وهدى الله المؤمنين أهل السنة لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ، فكلُّ دليل صحيح تقيمه الجَبْرية فإنما يدل على أن الله خالق كل شيء ، وإنه على كل شيء قدير ، وأن أفعال العباد من جملة مخلوقاته ، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن ولا يدل على أن العبد ليس بفاعل فى الحقيقة ولا مريد ولا مختار ، وأن حركاته الإختيارية بمنزلة حركة المرتعش وهبوب الرياح وكل دليلٍ يقيمه القَدرى فإنما يدل علَى أن العبد فاعل لفعله حقيقة ، وإنه مريدٌ له مختارٌ له حقيقةً ، وأن إضافته ونسبته إليه إضافة حق ، ولا يدل على أنه غير مقدور لله تعالى وأنه واقع بغير مشيئته وقدرته ، فإذا ضممت ما مع كل طائفة منهما من الحق إلى حق الأخرى : فإنما يدل ذلك على ما دلّ عليه القرآنُ وسائر كتب اللَه المنزلة ، من عموم قدرة الله ومشيئته لجميع ما فى الكون من الأعيان والأفعال ، وأن العباد فاعلون لأفعالهم حقيقة ، وأنهم يتسوجبون عليها المدح والذم .

وهذا هو الواقع فى نفس الأمر ، فإن أدلة الحقِّ لاتتعارض ، والحق يُصدّق بعضُهُ بعضا ، ويَضيق هذا المختصر عن ذكر أدلة الفريقين ، ولكنها تتكافأ ، وتتساقط ، ويُستفاد من دليل كل فريق بطلانُ قول الآخرين ، ولكن أذكُرُ شيئاً مما استَدَلّ به كلٌّ من الفريقين ، ثم أبيَن أنه لا يدل على ما استدل عليه من الباطل .

فمما استدلت به الجبرية قوله تعالى : ﴿ **وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ** ﴾ (الأنفال : ١٧) .

فنفى الله عن نبيه الرمى ، وأثبته لنفسه سبحانه ، فدل على أنه لا صنع للعبد . قالوا : والجزاء غير مُرتَّب على الأعمال ، بدليل قوله ـ ﷺ ـ : « **لن يدخل أحدٌ الجنةَ بعمله ، قالوا : ولا أنت يا رسول الله ؟ قال : ولا أنا ، إلا أن يتغمدنى الله برحمة منه وفضل** » .

ومما استدل به القدرية قوله تعالى : ﴿ **فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ** ﴾

(المؤمنين : ١٤)

قالوا : والجزاء مرتب على الأعمال ترتب العوض ، كما قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ**

الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الزخرف : ٧٢).

فأما ما استدلت به الجبرية من قوله تعالى : ﴿ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ فهو دليل عليهم ، لأنه تعالى أثبت لرسوله - ﷺ - رمياً ، بقوله : ﴿ إِذْ رَمَيْتَ ﴾ فعُلم أن المُثْبَتَ غير المنفى ، وذلك أن الرمى له ابتداءٌ وانتهاء ، فابتداؤه : الحذَف ، وانتهاؤه : الإصابة ، وكل منهما يسمى رمياً ، فالمعنى حينئذ - والله تعالى أعلم - وما أصبت إذ حذفت ولكن الله أصاب ، وإلاَّ فَطرْدُ قولهم : وما صليتَ إذ صليت ولكن الله صلى ، وما صمت إذ صمت ، وفسادُ هذا ظاهر .

وأما ترتيب الجزاء على الأعمال فقد ضلت فيه الجبريةُ والقدرية ، وهدى الله أهلَ السنة ، وله الحمد والمنّة ، فإن الباء التى فى النفى غير الباء التى فى الإثبات ، فالمنفى فى قوله - ﷺ - : « لن يدخل الجنةَ أحد بعمله » باء العوَض ، وهو أن يكون العمل كالثمن لدخول الرجل الجنة ، كما زعمت المعتزلة أنَ العامل يستحق دخول الجنة على ربه بعمله ! بلَ ذلَك برحمة الله وفضله . والباء التى فى قوله تعالى : ﴿بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ : باء السبب : أى بسبب عملكم ، والله تعالى خالق الأسباب والمسببات ، فرجع الكل إلى محض فضل الله ورحمته .

وأما استدلال المعتزلة بقوله تعالى : ﴿ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ ﴾ فمعنى الآية : أحسن المصورين المقدرينَ ، و« الخلق » يذكر ويراد به التقدير ، وهو المراد هنا ، بدليل قوله تعالى : ﴿ واللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ﴾ أى : الله خالق كل شىء مخلوق ، قد خلق أفعال العباد فى عموم « كل » .

واعلم أنه لا منافاةَ بين كون العبد مُحْدثاً لفعله ، وكون هذا الإحداث وَجَب وجوده بمشيئة الله تعالى ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا ۝ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا ﴾ (الشمس : ٧-٨) .

ففيها إثبات للقدر بقوله : « فألهمها » ، وإثبات لفعل العبد بإضافة الفجور والتقوى إلى نفسه ، ليعلم أنها هى الفاجرة والمتقية .

وهذه شُبهة أخرى من شُبه القوم التى فرّقتهم ، بل مزّقتهم كلَّ مُمَزَّق ، وهى : أنهم قالوا : كيف يستقيم الحَكم على قولكم بأن الله يعذب المكلّفين على ذنوبهم

وهو خلقها فيهم ؟ فأين العدل فى تعذيبهم على ما هو خالقه وفاعله فيهم ؟

وهذا السؤال لم يزل مطروقاً على ألسنة الناس ، و كل منهم يتكلم فى جوابه بحَسب علمه ومعرفته ، وعنه تفرقت بهمَ الطرق ، فطائفة أخرجت أفَعالَهم عن قدرة الله تعالى ، وطائفةٌ أنكرت التعليلَ وسدّت بابَ السؤال ، وطائفةٌ التزمت الجبرَ وأن الله يعذبهم على ما لا يقدرون عليه .

والجواب الصحيح أن يُقال : إن ما يُبتلَى به العبد من الذنوب الوجودية ـ وإن كانت خَلقاً لله تعالى ـ فهى عقوبة له على ذنوب قبلها ، فالذنب يكسب الذنب ، ومن عقوبة السيئة : السيئة بَعدَها ، فالذنوبُ كالأمراض يورث بعضُها بعضاً . يبقى أن يقال : فالكلام فى الذنب الأول الجالب لما بعده من الذنوب ؟

يقال : هو عقوبة أيضاً على عدم فعل ما خُلق له وفُطر عليه ، فإن الله سبحانه خلقه لعبادته وحدَه لا شريكَ له ، وفطره على محبته وتأليهه والإنابة إليه ، كما قال تعالى : ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (الروم : ٣٠) .

فلما لم يفعل ما خُلق له وفُطر عليه ، من محبة الله وعبوديته : عوقب على ذلك بأن زيّن له الشيطان ما يفعلُه من الشرك والمعاصى فإنه صادف قلباً خالياً قابلاً للخير والشر ، ولو كان فيه الخير الذى يمنع ضده : لم يتمكن منه الشر ، كما قال الله على لسان إبليس : ﴿ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴾ (ص : ٨٢ ـ ٨٣) .

والإخلاص : خلوصُ القلب من تأليه ما سوى الله تعالى ، فخلص لله ، فلم يتمكن منه الشيطان ، وأما إذا صادفه فارغاً من ذلك ، تمكن منه بحَسب فراغه ، فيكون جعله مذنباً مسيئاً فى هذه الحال : عقوبةً له على عدم الإخلاص ، وهى محض العدل .

عدل الله فى التكليف، وإجراء الأمور بمشيئة

* قال الإمام : « ولم يكلِّفهم اللهُ تعالى إلا ما يُطيقون ، ولا يُطيقون إلا ما كلَّفهم ، وهو تفسيرُ : لا حولَ ولا قوةَ إلا باللهِ نقول : لا حِيلةَ لأحدٍ ، ولا تَحوّلَ

لأحد ، ولا حركةَ لأحد عن معصية الله ، إلا بمعونة الله ، وكلُّ شيء يجرى بمشيئة الله تعالى وعلمه وقضائه وقدرته ، غَلَبَتْ مشيئتُه المَشيئات كلَّها ، وعَكَسَتْ إرادتُه الإردات كلَّها ، وغَلَب قضاؤُه الحِيَلَ كلَّها ، يفعلُ ما يشاءُ ، وهو غيرُ ظَالمٍ أبداً ، ﴿ لا يُسأَلُ عمَّا يَفْعَلُ وَهُم يُسأَلُونَ ﴾ .

وذلك لقوله تعالى : ﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ ولا يلزم قوله تعالى للملائكة : ﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ ﴾ مع عدم علمهم بذلك ، لأنه ليس بتكليف ، بل هو خطابُ تعجيز .

وكذا لا يلزم دعاء المؤمنين فى قوله تعالى : ﴿رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ قال ابن الأنبارى : أى لا تحملنا ما يثقُل علينا أداؤه وإن كنا مطيقين له على تَجَشّم وتَحَمّل مكروه . قال : فخاطب العرب على حسَب ما تعقل ، فإن الرجل منهم يقول للرجل يُبغضه : ما أطيق النظر إليك ، وهو مطيق لذلكَ ، لكنه يثقل عليه .

وقوله : « ولا يطيقوا إلا ما كلفهم به » إلى آخر كلامه ، أى : ولا يطيقون إلا ما أقدَرهم عليه ، وهذه الطاقة هى التى من نحو التوفيق ، لا التى من جهة الصحة والوُسْع والتمكن وسلامة الآلات . و « لا حول ولا قوة إلا بالله » دليلٌ على إثبات القدر ، وقد فسرها الشيخ بعدها ، ولكن فى كلام الشيخ أشكالٌ : فإن التكليف لا يستعمل بمعنى الإقدار ، وإنما يُستعمل بمعنى الأمر والنهى ، وهو قال : « لا يكلفهم إلا ما يطيقون ولا يطيقون إلا ما كلفهم » وظاهره أنه يرجع إلى معنى واحد ، ولا يصح ذلك ، لأنهم يطيقون فوق ما كلفهم به ، لكنه سبحانه يريد بعباده اليُسر والتخفيف ، كما قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (البقرة : ١٨٥) .

وقال تعالى : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ﴾ (النساء : ٢٨) .

فلو زاد فيما كلفنا به لأطقناه ، ولكنه تَفضَّل علينا ورحمنا وخفف عنا .

ويجاب عن هذا الإشكال بما تقدم : أن المراد : الطاقةُ التى من نحو التوفيق ، لا من جهة التمكن وسلامة الآلات ، لكن فى العبارة قَلَق ، فتأمله .

وقوله : « وكل شيء يجرى بمشيئة الله وعلمه وقضائه » يريد بقضائه : القضاء الكونى ، لا الشرعى ، فإن القضاء يكون كونياً وشرعياً ، وكذلك الإرادة والأمر ، والإذن والكتاب ، والحكم والتحريم والكلمات ، ونحو ذلك . أما القضاءُ الكونى ففى قوله تعالى : ﴿ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ ﴾ (فصلت : ١٢) .

والقضاءُ الدينى الشرعى فى قوله تعالى : ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ (الإسراء : ٢٣) .

وأما الإذنُ الكونى ففى قوله تعالى : ﴿ وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾ (البقرة : ١٠٢) .

والإذنُ الشرعى فى قوله تعالى : ﴿ مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الحشر : ٥) .

وأما الكتاب الكونى ففى قوله تعالى : ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلاَّ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ (فاطر : ١١) .

والكتاب الشرعى الدينى فى قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ﴾ (البقرة : ١٨٣) .

وأما الحكم الكونى ففى قوله تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴾ (الأنبياء : ١١٢) .

والحكمُ الشرعى فى قوله تعالى : ﴿ ذَلِكُمْ حُكْمُ اللَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ ﴾ (الممتحنة : ١٠) .

وأما التحريمُ الكونى ففى قوله تعالى : ﴿ قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ ﴾ (المائدة : ٢٦) .

والتحريمُ الشرعى فى قوله سبحانه : ﴿ حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخِنزِيرِ ﴾ (المائدة : ٣) .

أمران ينفعان الأموات

* قال أبو جعفر رحمه الله : « **وفى دعاءِ الأحياءِ وصَدَقاتِهم منفعةٌ للأموات** »

إذ قد اتفق أهل السنة أن الأمواتَ ينتفعونَ من سعى الأحياء بأمرين : أحدُهما ما تسبب إليه الميت فى حياته . والثانى : دعاءُ المسلمين واستغفارُهم له ، والصدقة والحج على نزاع فيما يصل من ثواب الحج ، فعن محمد بن الحسن الشيبانى صاحب أبى حنيفة : أنه إنما يصل إلى الميت ثوابُ النفقة ، والحج للحاج ، وعند عامة العلماء : ثواب الحج للمحجوج عنه ، وهو الصحيح .

واختُلف فى العبادات البدنية ، كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر ، فذهب أبو حنيفة وأحمد وجُمهورُ السلف إلى وصولها ، والمشهورُ من مذهب الشافعى ومالك : عدمُ وصولها .

والدليل على انتفاع الميت بغير ما تسببَ فيه : الكتاب والسنة والإجماع والقياس الصحيح أما الكتاب فقال تعالى : ﴿ **وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ** ﴾ (الحشر : ١٠) .

فأثنى عليهم باستغفارهم للمؤمنين قبلهم ، فدل على انتفاعهم باستغفار الأحياء .

وقد دل على انتفاع الميت بالدعاء : إجماعُ الأمة على الدعاء فى صلاة الجنازة وكذلك الدعاءُ لهم عند زيارة قبورهم ، كما فى صحيح مسلم من حديث بريدةَ بن الحصيب قال : « **كان رسول ـ ﷺ ـ يعلمهم إذا خرجوا إلى المقابر أن يقولوا : السلام عليكم أهلَ الديار من المؤمنين والمسلمين ، وإنَّا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية** » .

وأما وصولُ ثواب الصدقة : ففى صحيح البخارى أن رجلاً أتى النبى ـ ﷺ ـ « **يا رسول الله : إنَّ أمى توفيت وأنا غائب عنها ، فهل ينفعها إن تصدقتُ عنها ؟ قال : نعم . قال : فإنى أشهدك أن حائطى : المخرافَ : صدقةٌ عنها** » .

وأما وصول ثوابِ الصوم ، ففى الصحيحين أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « **من**

مات وعليه صيام : صام عنه وليّه » .

وأما وصول ثواب الحج ، ففى صحيح البخارى : « **أن امرأة من جُهينةَ جاءت إلى النبى ـ ﷺ ـ فقالت : إن أمى نذرت أن تحج حتى ماتت فلم تُحجً ، أفأحُجّ عنها ؟ قال : حجى عنها ، أرأيت لو كان على أمك دين ، أكنتِ قاضيَتَه ؟ اقضُوا الله ، فالله أحق بالوفاء »** .

واجمع المسلمون على أن قضاء الَدْين يُسقطه من ذمّة الميت ولو كان من أجنبى ومن غير تركته ، وقد دل على ذلك حديثُ أبى قتادة ، حيث ضمن الدينارين عن الميت ، فلما قضاهما قال النبى ـ ﷺ ـ « **الآن بردت عليه جلدته** » وكل ذلك جار على قواعد الشرع ، وهو محض القياس ، فإن الثواب حق العامل ، فإذا وهبهَ لأخيه المسلم لم يمنع من ذلك .

وقد نبه الشارع بوصول ثواب الصوم على وصول ثواب القراءة ونحوها من العبادات البدنية يوضحه : أن الصوم كف النفس عن المفطرات بالنية ، وقد نص الشارع على وصول ثوابه إلى الميت ، فكيف بالقراءة التى هى عمل ونية ؟

وقد استشكل البعض وصولَ هذه الأنواع من الثواب ، و ذلك بسبب قوله تعالى : ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ ﴾ وقد أجاب العلماء بأجوبة ، أصحها جوابان :

أحدهما : أن الإنسان بسعيه وحُسْن عشرته اكتسب الأصدقاء ، فترحموا عليه و أهْدَوْا له ثواب الطاعات ، فكان ذلك أثرَ سعيه .

الثانى : أن القرآن لم ينف انتفاعَ الرجل بسعى غيره ، وإنما نفى ملكه لغير سعيه ، وسَعْىُ غيرِه ملكٌ لساعيه ، فإن شاء أن يبذله لغيره ، وإن شاء أن يبقيه لنفسه .

هل ينفع استئجار قوم لقراءة القرآن وهداية ذلك للميت

وأما استئجار قوم يقرأون القرآن ويُهدُونه للميت فهذا لم يفعله أحد من السلف ولا أمر به أحد من أئمة الدين ، ولا رخص فيه ، والاستئجار عن نفس

التلاوة غيرُ جائز بلا خلاف ، وإنما اختلفوا فى جواز الاستئجار لتعليم ونحوه ، فإذا أعطى لمن يقرأ القرآن ويَّتعلمه ويعلمه معونةً لأهل القرآن على ذلك ، كان هذا من جنس الصدقة عنه ، فيجوز ، وفى كتاب الاختيار : لو أوصى بأن يُعطَى شىء من ماله لمن يقرأ القرآن على قبره ، فالوصيةُ باطلة ، لأنه فى معنى الأجرة ، وذكر الزاهدى فى الغنية : أنه لو أوقف وقفاً على من يقرأ القرآن عند قبره ، فالتعيينُ باطل .

وأما قراءة القرآن وإهداؤها له طوعاً بغير أجرة فهذا يصل إليه ، كما يصل ثوابُ الحَج والصوم ، فإن قيل : هذا لم يكن معروفًا فى السلف ، ولا أرشدهم النبى ـ ﷺ ـ فالجواب : إن كان مُورد هذا السؤال معترفاً بوصول ثواب الحج والصيام والدعاء ، قيل له : ما الفرق بين ذلك وبين وصول ثواب قراءة القرآن ؟ وليس كون السلف لم يفعلوه حجةً فى عدم الوصول ومن أين لنا هذا النفىُ العام ؟ فإن قيل : فرسولُ ـ ﷺ ـ أرشدَهم إلى الصوم والحج والصدقة ، دون القراءة : قيل هو ـ ﷺ ـ لم يبتدئهم بذلك ، بل خرج ذلك منه مخرجَ الجواب لهم ، فهذا سأله عن الحج عن ميته فأذن له فيه ، وهذا سأله عن الصوم عنه فأذن له فيه ، ولم يمنعهم مما سوى ذلك .

ومن قال : إن الميت ينتفع بقراءة القرآن عنده ـ باعتبار سَماعه كلامَ الله ـ فهذا لم يصحَّ عن أحد من الأئمة المشهورين . واختلف العلماء فى قراءة القرآن عند القبور على ثلاثة أقوال : هل تُكرَه ، أم لا بأسَ بها وقتَ الدفن فقط ، وتُكره بعده؟

فمن قال بكراهتها ـ كأبى حنيفة ومالك وأحمد فى رواية ـ قالوا : لأنه مُحدَث لم تَرِدْ به السنة ، والقراءة تُشبه الصلاة ، والصلاة عند القبور منهى عنها ، فكذلك القَراءة ، ومن قال لا بأسَ بها ـ كمحمد بن الحسن الشيبانى وأحمد فى رواية ـ استدلوا بما نقل عن عمر ـ رضى الله عنه ـ أنه أوصى أن يُقرأ على قبره وقت الدفن بفواتح سورة البقرة وخواتمها ، ونُقل أيضاً عن بعض المهاجرين قراءةُ سورة البقرةِ ، ومنَ قال : لا بأسَ بها وقت الدفن فقط ـ وهو رواية عن أحمد ـ أخذ بما نقل عن ابن عمر وبعض المهاجرين وأما بعد ذلك ، كالذين يتناوبون القبر للقراءة ، عنده ، فهذا مكروه ، فإنه لم تأت به السنة ، ولمُ ينقَل عن أحد من السلف مثلُ

ذلك أصلاً ؛ وهذا القول لعله أقوى من غيره ، لما فيه من التوفيق بين الدليلين .

الإيمان بإجابة الدعاء وقضاء الحاجات

* قال : « **والله تعالى يستجيبُ الدعوات ، ويَقْضى الحاجات** » .

وذلك فى قوله الله تعالى : ﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ ﴾ (غافر : ٦٠) .

وقوله سبحانه : ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ﴾ (البقرة : ١٨٦) .

والذى عليه أكثرُ الخَلْق من المسلمين وسائر أهل الملل : أن الدعاء من أقوى الأسباب فى جلب المنافع ودفع المضارّ ، ، وقد أخبر تعالى عن الكفار أنهم إذا مَسّهم الضر فى البحر دَعَوا الله مخلصين له الدين .

وإجابةُ الله لدعاء العبد ، مسلماً كان أو كافراً : من جنس رزقه لهم ، وهو مما توجبه الربوبيةُ للعبد مطلقاً ، ثم يكون ذلك فتنةً فى حقه ومضرة علَيه ،إذ كان كفره وفسوقه يقتضى ذلك .

قال ابن عقيل : قد ندب الله تعالى إلى الدعاء وفى ذلك معانٍ :

أولها : الوجود : فإن من ليس بموجود لا يدعى .

الثانى : الغنى ، فإن الفقير لا يُدعى .

الثالث : السمع ، فإن الأصم لا يُدعى .

الرابع : الكرم ، فإن البخيل لا يُدعى .

الخامس : الرحمة ، فإن القاسى لا يُدعى .

السادس : القدرة ، فإن العاجز لا يُدعى .

والرب سبحانه هو الذى حرّك العبدَ إلى دعائه ، فهذا الخير منه ، وتمامه عليه كما قال ـ عمر رضى الله عنه ـ : « إنى لا أحمل هَمّ الإجابة ، وإنما أحمل هَمّ الدعاء ، ولكن إذا أُلهمتُ الدعاءَ فإن الإجابة معه » .

وعلى هذا قول الله تعالى : ﴿ يُدَبِّرُ الأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴾ (السجدة : ٥) .

فأخبر سبحانه أنه يبتدئ بتدبير الأمر ، ثم يصعد إليه الأمر الذى دبّره ، فالله سبحانه هو الذى يقذف فى قلب العبد حركة الدعاء ، ويجعلها سبباً للخير الذى يعطيه إيّاه ، كما فى العمل والثواب ، فهو الذى وفّق العبد للتوبة ثم قبلها ، وهو الذى وفقه للعمل ثم أثابه ، وهو الذى وفقه للدعاء ثم أجابه .

معنى مشروعية الدعاء فى علم التوحيد

وهنا سؤال معروف ، وهو : إن من الناس من قد يسأل الله فلا يُعطى ، أو يُعطى غيرَ ما سأل ؟

وقد أجيبَ عنه بأجوبة ، فيها أجوبة مُحَقَّقة :

منها : أن إجابة دعاء السؤال أعمُّ من إعطاء المسؤول ، كما فسره النبى - ﷺ - « ما من رجل يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعةُ رَحم إلا أعطاه بها إحدى ثلاث خصال : إما أن يُعَجّلَ دعوته ، أو يَدّخرَ له من الخيرَ مثلَها ، أو يصرفَ عنه من الشر مثلها . قالوا : يا رسول الله ، إذن نُكثِر . قال : اللهُ أكثَر » . رواه أحمد بنحو هذا اللفظ وأصله فى صحيح مسلم .

ومنها : ان الدعاء سبب مقتضٍ لنيل المطلوب ، والسبب له شروطٌ وموانعُ ، فإذا حصلت شروطُه وانتفت موانعَه ، حصل المطلوب ، وإلا فلا يحصل ذلك المطلوب ، بل قد يحصل غيره ، وهكذا سائرُ الكلمات الطيبات من الأذكار المأثورة المعلّق عليها جلبُ منافعَ أو دفع مضارّ ، فإن الكلماتَ بمنزلة الآلة فى يد الفاعل ، تختلف باختلاف قوته وما يُعينها ، وقد يعارضها مانعٌ مَن الموانع ، ونصوصُ الوعد والوعيد المتعارضةُ فى الظاهر من هذا الباب ، وكثيراً ما نجد أدعيةً دعا بها قومٌ فاستجيب لهم ، ويكون قد اقترن بالدعاء ضرورةُ صاحبه وإقبالهُ على الله ، أو حَسَنة تقدمت منه ، جعل الله سبحانه إجابةَ دعوته شكرَ الحسنة ، أو صادف وقت إجابة ، ونحو ذلك ، فأجيبت دعوتُه ، فيظن أن السر فى ذلك الدعاء ، فيأخذه

مجرداً عن تلك الأمور التى قارنته من ذلك الداعى .

الإيمان بالملكية التامة ووجوب الافتقار وإثبات صفات معلومة

• قال الطحاوى : « ويملكُ كلَّ شىء ، ولا يملكُه شىءٌ ، ولا غنى عن الله تعالى طَرْفَةَ عَين ، ومَن استغنَى عن الله طرفَةَ عينٍ فقَدَ كفَر وصار من أهلِ الحَيْنِ . والله يَغضَبُ ويَرضَى ، لا كأحدٍ من الوَرَى » .

والحَين : الهلاك .

ومذهبُ السلف وسائر الأئمة : إثباتُ صفة الغضب ، والرضا ، والعداوة والولاية ، والحب ، والبغض ، ونحو ذلك من الصفات التى ورد بها الكتاب والسنة ، ومنْع التأويل الذى يصرفها عن حقائقها اللائقة بالله تعالى .

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ ﴾ (الفتح : ١٨) .

وقال سبحانه : ﴿ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ ﴾ (النساء : ٩٣) .

وفى وقول الشيخ ـ رحمه الله ـ : « لا كأحد من الورى » نفيُ التشبيه .

ولا يقال : إنَّ الرضا : إرادةُ الإحسان ، والغضب إرادة الانتقام ، فإن هذا نفيٌ للصفة .

ويقال لمن تأول الغضب والرضا بإرادة الإحسان : لمَ تأولتَ ذلك ؟ فلابد أن يقول : لأن الغضب : غليان دم القلب ، والرضا : الميلَ والشهوة ، وذلك لا يليق بالله تعالى ، فيقال له : غليان دم القلب فى الآدمى أمر ينشأ عن صفة الغضب ، ويقال له أيضاً : وكذلك الإرادة والمشيئة فينا ، وهى ميل الحى إلى الشىء أو إلى ما يلائمه ويناسبه ، فإن الحى منا لا يريد إلا ما يجلب له منفعةً أو يدفع عنه مضرة ، وهو محتاج إلى ما يريده ومفتقر إليه ، يزداد بوجوده ، وينقص بعدمه ، فالمعنى الذى صرفت إليه اللفظ كالمعنى الذى صرفته عنه ، سواء ، فإن جاز هذا : جاز ذاك ، وإن امتنع هذا : امتنع ذاك .

فإن قالوا : الإرادةُ التى يوصف الله بها مخالفةٌ للإرادة التى يوصف بها العبد ، وإن كان كلٌ منهما حقيقة ، قيل له : فقل : إن الغضب والرضا الذى يوصف الله به مخالف لما يوصَف به العبد ، وإن كان كل منهما حقيقة ، فإذا كان ما يقوله فى الإرادة يمكنُ أن يقال فى هذه الصفات ، لم يتعين التأويل ، بل يجب تركُه ، لأنك تَسلم من التناقض ، وتَسلم أيضاً من تعطيل معنى أسماء الله تعالى وصفاته بلا موجب ، فإنَّ صَرْف القرآن عن ظاهره وحقيقته بغير موجب : حرامٌ ، ولا يكون الموجب للصرف ما دلّ عليه عقله ، إذ العقول مَختلفة ، فكلٌ يقول : إن عقله دلّه على خلاف ما يقوله الآخر .

وهذا الكلام يقال لكل من نفى صفةً من صفات الله تعالى ، لا متناع مسمى ذلك فى المخلوق ، فإنه لابد أن يثبت شيئاً لله تعالى على خلاف ما يعهده ، حتى فى صفة الوجود ، فإن وجود العبد كما يليق به ، ووجود البارى تعالى كما يليق به ، فوجودُه تعالى يستحيل عليه العدم ، ووجود المخلوق لا يستحيل عليه العدم، وما سمى به الرب نفسه وسمى به مخلوقاته ، مثل الحى ، والعليم ، والقدير ، أو سمى به بعضَ صفاته ، كالغضب والرضاَ ، وسمى به بعض صفات عباده : فنحن نعقل بقلوبنا معانَى هذه الأسماء فى حق الله تعالى ، وأنه حق ثابت موجود ، ونعقل أن بين المعنيين قَدْراً مشتركاً ، لكن هذا المعنى لا يوجد فى الخارج مشتركاً ، إذ المعنى المشتركُ الكلىّ لا يوجد مشتركاً إلا فى الأذهان ، ولا يوجد فى الخارج إلا مُعَيّنا مختصاً ، فيثبت فى كل منهما كما يليق به .

حب الصحابة إيمان وبغضهم طغيان

* قال أبو جعفر : « **ونُحبُّ أصحابَ رسول الله - ﷺ - ولا نُفَرِّطُ فى حبِّ أحد منهم ، ولا نتبرأ من أحدٍ مَنهم ، ونُبغضُ مَن يُبغضُهم ، وبغير الخير يذكُرهم ، ولانَذكُرُهم إلا بخيرٍ ، وحُبُّهم : دِينٌ وإيمانٌ وإحسَانٌ ، ويُغضُهَم : كُفرٌ ونفاقٌ وطُغيان** » .

وذلك لأن الله تعالى أثنى على الصحابة هو ورسوله ورضى عنهم ووعَدهم الحسنى كما قال تعالى : ﴿ وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهم

بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾ (التوبة : ١٠٠) .

وقال تعالى : ﴿ مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا ﴾ (الفتح : ٢٩) .

وفي الصحيحين عن أبي سعيد الخدري - رضي الله عنه - قال : كان بين خالد ابن الوليد وبين عبد الرحمن بن عوف شيء ، فسبَّه خالد ، فقال رسول الله - ﷺ - « **لا تسبُّوا أحداً من أصحابيَ ، فإن أحدكم لو أنفقَ مثل أُحد ذهباً ما أدرك مُدَّ أحدهم ولا نَصيفَه** » . فنهى مَن له صحبةٌ أخرى أن يَسُب من له صحبة أَولى ، وهذا حال خالد الذى أسلم قبل فتحِ مكة فكيف حالُ مَن ليس من الصحابة مع الصحابة ؟

وأما ما يُروى عن النبي - ﷺ - أنه قال : « **أصحابي كالنجوم ، بأيِّهم اقتديتم اهتديتم** » فهو حديث ضعيف لا يصحّ ، وليس هو في كتب الحديث المعتمدة .

وقد ثَبت في صحيح مسلم عن جابر ، أن النبي - ﷺ - قال : « **لا يدخلُ النارَ أحدٌ بايَعَ تحت الشجرة** » .

ولقد صَدَق عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - في وصفهم ، حيث قال : « إن الله نظر في قلوب العباد ، فوجد قلبَ محمد خيرَ قلوب العباد ، فاصطفاه لنفسه ، وابتعثه برسالته ، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد - ﷺ - فوجد قلوبَ أصحابه خيرَ قلوب العباد ، فجعلهم وزراءَ نبيه » .

إثبات تقديم الخلفاء تبعاً لفضلهم وعلو شأنهم

وقول الطحاوي : « وبغضهم كفر ونفاق » تقدم الكلام في تكفير أهل البدع ، وهذا الكفر نظير الكفر المذكور في قوله تعالى : ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ .

• **قال الطحاوي : « ونُثبتُ الخلافةَ بعدَ رسولِ اللهِ - ﷺ - أولاً لأبي بكرٍ الصدِّيق**

ـ رضى اللهُ عنه ـ تفضيلاً له وتقديماً على جميع الأمة » .

لكن اختلف أهلُ السنة فى خلافة الصديق ـ رضى الله عنه ـ هل كانت بالنص أو بالاختيار ؟ فذهب الحسن البصرى وجماعة من أهل الحديث إلى أنها ثبتت بالنص الخفىِّ والإشارة ، ومنهم من قال بالنص الجَلى وذهب جماعة من أهل الحديث والمعتزلة والأشعرية إلى أنها ثبتت بالاختيار .

والدليل على إثباتها بالنص أخبار :

من ذلك : ما أسنده البخارى عن جُبير بن مُطعم قال : أتت امرأةٌ النبىَ ـ ﷺ ـ **«فأمرها أن ترجع إليه ، قالت : أرأيتَ إن جئتُ فلم أجدْك ؟ ـ كأنها تريد الموت ـ قال : إن لم تجدينى فأتى أبا بكر »** . وذُكر له سياق آخر ، وأحاديث أخر ، وذلك نص على إمامته .

وحديث حذيفةَ بن اليمان ، قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : **« اقتدوا باللذين مِن بعدى : أبى بكر وعمر »** رواه أهل السنن .

وفى الصحيحين عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ وعن أبيها ، قالت : **« دخل علىَّ رسول الله ـ ﷺ ـ فى اليوم الذى بُدىء فيه ، فقال : ادعى لى أباك وأخاك ، حتى أكتبَ لأبى بكر كتاباً ، ثم قال : يأبَى اللهُ والمسلمون إلا أبا بكر»** .

وأحاديثُ تقديمه فى الصلاة مشهورةٌ معروفة ، وهو يقول : **« مُروا أبا بكر فليُصَل بالناس »** .

وفى الصحيح أنه ـ ﷺ ـ قال على منبره : **« لو كنتُ مُتَّخذاً من أهل الأرض خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ، لايَبْقَينّ فى المسجد خوخةٌ إلا سُدَّت ، إلا خوخة أبى بكر»** .

واحتج من قال : لم يستخلف ، بالخبر المأثور عن عبد الله بن عمر ، عن عمر ـ رضى الله عنهما ـ أنه قال : **« إن أستخلفْ فقد استخلفَ من هو خير منى ، يعنى أبا بكر ، وإن لا أستخلفُ فلم يستخلف من هو خير منى ، يعنى رسول الله ـ ﷺ ـ قال عبد الله : فعرفت أنه حين ذكر رسول الله ـ ﷺ ـ غيرُ مستخلف »** .

والظاهر ـ والله أعلم ـ أن المراد أنه لم يستخلف بعهد مكتوب ، ولو كتب عهداً

لكتبه لأبى بكر ، بل قد أراد كتابته ثم تركه وقال : « **يأبى اللهُ والمسلمون إلا أبا بكر** » فكان هذا أبلغَ من مجرد العهد ، فإن النبى - ﷺ - دل المسلمين على استخلاف أبى بكر ، وأرشدَهم إليه بأمور متعددة من أقواله وأفعاله ، وأخبر بخلافته إخبارَ راضٍ بذلك ، حامدٍ له ، فلو كان التعيين مما يشتبه على الأمة لبيّنه بياناً قاطعاً للعذر .

وفى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قال : « **إن الله بعثنى إليكم ، فقلتم : كذبتَ ، وقال أبو بكر : صدَق ، وواسانى بنفسه وماله** » .

● **قال الطحاوى : « ثم لعُمرَ بنِ الخطاب - رضى اللهُ عنه - »** .

أى وثبتت الخلافة بعد أبى بكر - رضى الله عنه - لعمر - رضى الله عنه - وذلك بتفويض أبى بكر الخلافة إليه ، واتفاق الأمة بعده عليه ، وفضائلُه - رضى الله عنه - أشهَر من أن تنكر ، وأكثر من أن تذكَر ، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه قال لأبيه علىٍّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - : « يا أبت : مَن خيرُ الناس بعد رسول الله - ﷺ - ؟ فقال : يا بنى ، أو ما تعرف ؟ فقلت : لا ، قال : أبو بكر . قلت : ثم مَن ؟ قال : عمر وخشيتُ أن يقول ثم عثمان ، فقلت : ثم أنت فقال : ما أنا إلا رجل من المسلمين » .

وفى صحيح مسلم عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : وُضِع عمرُ على سريره ، فتكنّفه الناسُ يَدعون ويُثنون ويصلون عليه ، قبل أن يُرفع ، وأنا فيهم ، فلم يَرُعْنى إلا برجل قد أخذ بمنكبى من ورائى ، فالتفت إليه ، فإذا هو على ، فترحّم على عمر ، وقال : ما خلّفتَ أحداً أحبَّ إلىّ أن ألقى الله بمثل عمله منكَ . وأيمُ الله إن كنتُ لأظنُ أن يجعلك اللهُ مع صاحبَيك ، وذلك أنى كنتُ أكثر ما أسمعُ رسول الله - ﷺ - يقول : « **جئت أنا وأبو بكر وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجتُ أنا وأبو بكر وعمر** » فإن كنت لأرجو - أو لأظنَ - أن يجعلكَ الله معهما .

وفى الصحيحين عن النبى - ﷺ - أنه قال : « **إيه يا ابن الخطاب ، والذى نفسى بيده ، ما لقيك الشيطان سالكاً فَجاً إلا سلك فجاً غيرَ فجك** » .

* قال : « ثُم لعثمانَ ـ رضى الله عنه ـ » .

أى : ونُثبت الخلافة بعد عمرَ لعثمان ـ رضى الله عنهما ـ وقد ساق البخارى ـ رحمه الله ـ قصةَ قتلَ عمر ـ رضى الله عنه ـ وأمرَ الشورى والمبياعة لعثمان فى صحيحه ، فأحببت أن أسردها كما رواها بسنده عن عمرو بن ميمون قال : رأيتُ عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ قبل أن يصابَ بأيام بالمدينة وقف على حذَيفةَ بن اليمان وعثمانَ بن حُنيف ، فقال : كيف فعلتما ؟ أتخافان أن تكونا قد حَملتما الأرضَ ما لا تُطيقَ ؟

قالا : حملناها أمراً هى له مطيقة ، ما فيها كبيرُ فضْل .

قال : انظرا أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيق .

قال : لا

فقال عمر : لئن سلمنى الله لأدَعنَّ أرامل أهل العراق لا يَحْتَجْنَ إلى رجل بعدى أبداً .

قال عمرو بن ميمون : فما أتت عليه إلا أربعةٌ حتى أصيب .

قال : إنى لقائم ما بينى وبينه إلا عبدُ الله بنُ عباس غَداةَ أصيب ، وكان إذا مرّ بين الصفين قال : استووا ، حتى إذا لم يَرَ فيهنّ خللاً تقدم فكبّر ، وربما قرأ سورة يوسف ، أو النحل ، أو نحو ذلك فى الركعة الأولى ، حتى يجتمع الناس ، فما هو إلا أن كبرّ فسمعته يقول : قتلنى ـ أو أكلنى ـ الكلب ، حين طَعَنه ، حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً ، مات منهم سبعةٌ ، فلما رأى ذلك رجل من المسلمين ، طرحَ عليه بُرْنُساً ، فلما ظن العلجُ أنه مأخوذ : نَخَر نفسه ، وتناول عمرُ يدَ عبد الرحمن ابن عوف ، فقدّمه ، فمن يلى عمر فقد رأى الذى أرى ، وأما نواحى المسجد فإنهم لا يدرون غير أنهم قد فقدوا صوتَ عمر ، وهم يقولون : سبحان الله ، سبحان الله ، فصلى بهم عبد الرحمن صلاةً خفيفة ، فلما انصرفوا قال : يا ابن عباس : أنظر من قتلنى ؟

فجالَ ساعةً ثم جاء فقال : غلام المغيرة .

قال : الصنَع ؟

قال : نعم .

قال : قاتله الله ، لقد أمرتُ به معروفاً ! الحمد لله الذى لم يجعل منيّتى بيد رجل يدّعى الإسلام ، قد كنتَ أنت وأبوكَ تحبان أن تكثر العُلوج بالمدينة ـ وكان العباس أكثرَهم رقيقاً ـ فقال : ان شئت فعلتُ ؟ أى : إن شئت قتلنا ، قال : كذبت ، بعدما تكلموا بلسانكم ، وصلّوا قبلتكم ، وحجّوا حجكم ؟

فاحُتملَ إلى بيته ، فانطلقنا معه ، وكأنّ الناسَ لم تُصبهم مصيبة قبل يؤمئذ ، فقائل يقولَ : لا بأس ، وقائل يقول : أخاف عليه ، فأتىَ بنبيذ فشربه ، فخرج من جوفه ، ثم أتى بلبن فشربه ، فخرج من جوفه ، فعرفوا أنه ميت ، فدخلنا عليه ، وجاءالناس يُثنون عليه وجاء رجل شاب فقال : أبشر يا أمير المؤمنين ببشرى الله لك ، ومن صحبة رسول الله ـ ﷺ ـ وقدَمٍ فى الإسلام ما قد علمت ، ثم وليت فعدلت ، ثم شهادة .

قال : وددت أن ذلك كفاف ، لا علَىَّ ولا لى .

فلما أدبَر إذا إزاره يمسّ الأرض ، قال : ردوا علىّ الغلام ، قال : يا ابن أخى إرفع ثوبك ، فإنه أبقى لثوبك ، وأتقى لربك ، يا عبدَ الله بنَ عمر : انظر ماعلىَّ من الدَين ؟

فحسَبوه ، فوجدوه ستة وثمانين ألفا أو نحوه .

قال : إنْ وفى له مالُ آل عمر فأدّه من أموالهم ، وإلا فَسَلْ فى بنى عدى بن كعب ، فإن لم تف أموالُهم فَسَل فى قريَش ، ولا تَعْدُهم إلى غيرهم ، فأدِّعنّى هذا المال انطلق إلى عائشة أم المؤمنين ، فقل : يقرأ عليك عمرُ السلام ، ولا تقل : أمير المؤمنين ، فإنى لست اليوم للمؤمنين أميراً ، وقل : يستأذن عمرُ بن الخطاب أن يُدفن مع صاحبيه .

فسلّم واستأذن ، ثم دخل عليها ، فوجدها قاعدة تبكى ، فقال : يقرأ عليك عمرُ بن الخطاب السلام ، ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه .

فقالت : كنتُ أريده لنفسى ، ولأوثرنَّ به اليوم على نفسى .

فلما أقبل ، قيلَ : هذا عبد الله بن عمر قد جاء .

قال : ارفعونى .

فأسنده رجل إليه .

قال : ما لديك ؟

قال : الذى تحب يا أمير المؤمنين ، أذنَتْ .

قال : الحمد لله ، ما كان شىءٌ أهمَّ إلىّ من ذلك ، فإذا أنا قضيتُ فاحملونى ، ثم سلّم فقل : يستأذن عمر بن الخطاب ، فإن أذنَتْ لى فأدخلونى ، وإن ردّتنى : ردونى إلى مقابر المسلمين .

وجاءت أم المؤمنين حفصةُ ـ والنساءُ يسترنها ـ فلما رأيناها : قمنا ، فولجت عليه ، فبكت عنده ساعة واستأذنَ الرجال ، فولجت داخلاً لهم ، فسمعنا بكاءها من الداخل ، فقالوا : أوص يا أمير المؤمنين ، استخلف ؟

قال : ما أجد أحقَّ بهذا الأمر من هؤلاء النَفر ـ أو الرهط ـ الذين تُوفى رسول الله ـ ﷺ ـ وهو عنهم راض ، فسمّى علياً ، وعثمان ، والزبير ، وطلحة ، وسعداً ، وعبد الرحمن ، وقال : يشهدكم عبد الله بن عمر ، وليس له من الأمر شىء ، كهيئة التعزية له ، فإن أصابت الإمارة سعداً فهو ذاك ، وإلا فليستعن به أيكم ما أمّر ، فإنى لم أعزله من عجز ولا خيانة ، وقال أوصى الخليفة من بعَدى بالمهاجرين الأولين ، أن يعرفَ لهم حقهم ، ويحفظ لهم حُرمتهم ، وأوصيه بالأنصار خيراً ، الذين تبوؤا الدار والإيمان من قبلهم ، أن يُقبل من محسنهم ، وأن يُعفى عن مسيئهم ، وأوصيه بأهل الأمصار خيراً ، فإنهم ردْء الإسلام ، وجباة الأموال ، وغيظُ العدو ، وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم ، عنَ رضاهم ، وأوصيه بالأعراب خيراً ، فإنهم أصل العرب ، ومادة الإسلام ، أن يأخذ من حواشى أموالهم ، وتُردَّ على فقرائهم ، وأوصيه بذمة الله وذمة رسوله ، أن يوفى لهم بعدهم ، وأن يقاتل من ورائهم ، ولا يُكلّفوا إلا طاقتهم .

فلما قُبض : خرجنا به ، فانطلقنا نمشى ، فسلم عبد الله بن عمر ، قال : يستأذن عمر بن الخطاب .

قالت : أدخلوه .

فأدخل ، فوضع هنا لك مع صاحبيه ، فلما فُرِغَ من دفنه ، اجتمع هؤلاء الرهط ، فقال عبد الرحمن : اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم .

قال الزبير : قد جعلت أمرى إلى على .

فقال طلحة : قد جعلت أمرى إلى عثمان .

وقال سعد : قد جعلت أمرى إلى عبد الرحمن بن عوف .

فقال عبد الرحمن : أيكما تَبَرَّأ من هذا الأمر فنجعله إليه ؟ واللهُ عليه والإسلامُ لينظرنّ أفضلهم فى نفسه .

فاسكت الشيخان .

فقال عبد الرحمن : أفتجعلونه إلىّ ؟ والله علىَّ أن لا آلو عن أفضلكم .

قالا : نعم .

فأخذ بيده أحدهما ، فقال : لك قرابة من رسول الله ـ ﷺ ـ والقَدَم فى الإسلام ما قد علمت ، فالله عليك لئن أمَّرتك لتعدلن ، لئن أمّرت عثمانَ لتسمعنَ ولتطيعن .

ثم خلا بالآخر فقال له مثل ذلك .

فلما أخذ الميثاق قال : ارفع يديك يا عثمان ، فبايعه ، فبايع له على ، وولج أهل الدار فبايعوه .

وروى البخارى أيضاً عن حُميد بن عبد الرحمن بن عوف : أن المسْورَ بن مَخرمة أخبره : أن الرهط الذين ولّاهم عمر اجتمعوا فتشاوروا ، فقال لهم عبد الرحمن : لست بالذى أنافسكم عن هذا الأمر ، ولكنكم إن شئتم اخترت لكم منكم ؟

فجعلوا ذلك إلى عبد الرحمن ، فلما ولّوا عبد الرحمن أمرهم ، فمال الناس على عبد الرحمن ، حتى ما أرى أحداً من الناس يتبع أولئك الرهط ولا يطأ عقبه ومال الناس على عبد الرحمن يشاورونه تلك الليالى ، حتى إذا كانت تلك الليلة التى أصبحنا فيها فبايعنا عثمان .

قال المسورَ بن مخرَمة : طرقني عبد الرحمن بعد هَجْع من الليل ، فضرب الباب حتىَ استيقظت ، فقال : أراك نائماً ! فوالله ما اكتحلتُ هذه الثلاث بكبير نوم ، انطلق فادع الزبيرَ وسعداً .

فدعوتهما له ، فشاورهما ، ثم دعانى ، فقال : ادع لى عليا ، فدعوته ، فناجاه حتى أبهارّ الليل ، ثم قام على من عنده وهو على طمع ، وقد كان عبد الرحمن يخشى من على شيئاً ثم قال : ادع لى عثمان ، فدعوته ، فناجاه حتى فرّق بينهما المؤذن بالصبح ، فلما صلى الناس الصبح ، واجتمع أولئك الرهط عند المنبر فأرسل إلى من كان حاضراً من المهاجرين والأنصار ، وأرسل إلى أمراء الأجناد ، وكانوا وافوا تلك الحجّة مع عمر ، فلما اجتمعوا : تشهّد عبد الرحمن ثم قال : أما بعد ، يا على : إنى قد نظرت فى أمر الناس ، فلم أرهم يعدلون بعثمان ، فلا تجعلن على نفسك سبيلاً فقال لعثمان : أبايعك على سنة الله ورسوله والخليفتين من بعده ، فبايعه عبد الرحمن ، وبايعه الناس ، والمهاجرون والأنصار ، وأمراء الأجناد ، والمسلمون ومن فضائل عثمان ـ رضى الله عنه ـ الخاصة : كونُه خَتَنَ رسول الله ـ ﷺ ـ على ابنتيه .

وفى صحيح مسلم : عن عائشة قالت : « **كان رسول الله ـ ﷺ ـ مضطجعاً فى بيته ، كاشفاً عن فخذيه ـ أو ساقيه ـ فاستأذن أبو بكر ، فأذن له وهو على تلك الحال ، فتحدث ، ثم استأذن عمر ، فأذن له وهو كذلك ، فتحدث ، ثم استأذن عثمان ، فجلس رسول الله ـ ﷺ ـ وسوّى ثيابه ، فدخل فتحدث ، فلما خرج قالت عائشة : دخل أبو بكر فلم تهتش له ولم تباله ، ثم دخل عمر فلم تهتش ولم تُباله ، ثم دخل عثمان فجلستَ وسويت ثيابك ؟ فقال : ألا استحى من رجل تستحى منه الملائكة ؟** » .

* قال : « **ثم لعلىٍّ بنِ أبى طالبٍ ـ رضى اللهُ عنه ـ** » .

أى : وتُثبت الخلافة بعد عثمانَ لعلىٍّ ـ رضى الله عنه ـ لما قُتل وبايع الناس علياً : صار إماما حقاً واجب الطاعة ، وهو الخليفة فى زمانه خلافة نبوة ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : « **خلافة النبوة ثلاثون سنة ، ثم يؤتى الله مُلكه من يشاء** » .

وكانت خلافة أبى بكر الصديق سنتين وثلاثة أشهر ، وخلافةُ عمر عشر

سنين ونصفاً ، وخلافة عثمان اثنتى عشرة سنة ، وخلافة على أربع سنين وتسعة أشهر وأولُ ملوك المسلمين : معاوية ، لكنه إنما صار إماماً حقاً لما فوّض إليه الحسن بنُ على ــ رضى الله عنه ــ الخلافة ، فإن الحسن ــ رضى الله عنه ــ بايعه أهل العراق بعد موت أبيه ، ثم بعد ستة أشهر فوّض الأمر إلى معاوية وظهر صدق قول النبى ـ ﷺ ـ « **إن ابنى هذا سيد ، وسيصلح الله به بين فئتين عظيمتين من المسلمين** » .

فالخلافة تثبت لأمير المؤمنين على بن أبى طالب ـ رضى الله عنه ـ بعد عثمان ــ رضى الله عنه ـ ، بمبعاية الصحابة ، سوى معاويةَ مع أهل الشام ، والحق مع على ـ رضى الله عنه ــ فإن عثمان ـ رضى الله عنه ـ لما قُتل : كثر الكذب والافتراء على عثمان وعلى ، وعظمت الشبهة عند من لم يعرف الحال ، وقويت الشهوة فى نفوس ذوى الأهواء والأغراض ، ممن بعدت داره من أهل الشام ، وكان فى عسكر على ـ رضى الله عنه ـ من أولئك الطغاة الخوارج ، الذين قتلوا عثمان ، مَن لم يُعرف بعينه ، ومن تنتصر له قبيلته ، ومن لم يقم عليه حُجَّة بما فعله ، ومن فى قلبه نفاق لم يتمكن من إظهاره كله ، ورأى طلحةُ بن عبيد الله والزبيرُ بن العوام ـ رضى الله عنهما ـ أنه إن لم يُنتصَر للشهيد المظلوم ويقمع أهل الفساد والعدوان وإلا استوجبوا عضبَ الله وعقابه ، فجرت فتنة الجَمَل على غير اختيار من على ، ولا من طلحة والزبير ، وإنما أثارها المفسدون بغير اختيار السابقين ، ثم جرت فتنة صفَّين ، لرأى وهو أن أهل الشام لم يُعدل عليهم ، أو لا يمكن من العدل عليهم ــ وهَم كافّون ـ حتى تجتمع الأمة ، وأنهم يخافون طغيان من فى العسكر ، كما طغَوا على الشهيد المظلوم ، وعلى ـ رضى الله عنه ـ هو الخليفة الراشد المهدى الذى تجب طاعته ، ويجب أن يكونوا مجتمعين عليه ، فاعتقدَ أن الطاعة والجماعة الواجبتين عليهم تحصل بقتالهم ، ولم يعتقد أن التأليف لهم كتأليف المؤلفة قلوبُهم على عهد النبى ـ ﷺ ـ والخليفتين من بعده مما يُسوغ ، فحمله ما رآه ــ من أن الدين : إقامة الحدّ عليهم ومنعُهم من الإثارة دون تأليفهم ـ على القتال ، وقعد عن القتال أكثر الأكابر لما سمعوه من النصوص فى الأمر بالقعود فى الفتنة ، ولما رأوه من الفتنة التى تربو مفسدتها على مصلحتها .

ونقول فى الجميع بالحسنى : ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالإِيمَانِ وَلَا

تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر : ١٠) .

والفتن التى كانت فى أيام على - رضى الله عنه - قد صان الله عنها أيدينا ، فنسأل الله أن يصون عنها ألسنتنا ، بمنه وكرمه .

ومن فضائل أمير المؤمنين علىٍّ بن أبى طالب - رضى الله عنه - ما فى الصحيحين عن سعد بن أبى وقاص - رضى الله عنه - قال : قال النبى - ﷺ - لعلى : « **أما ترضى أن تكون مِنّى بِمنزلة هارونَ من موسى** » .

وفى صحيح البخارى أن رسول الله - ﷺ - قال : « **لأُعْطِينّ الراية غداً رجلاً يفتح الله على يديه** » قال سهل بن سعد الساعدى - رضى الله عنه - : « فبات الناس يدركون ليلَتَهم ، أيّهم يُعطاها ؟ فلما أصبح الناس غَدَوا على رسول الله - ﷺ - كلهم يرجو أن يُعطاها ، فقال : أين على بن أبى طالب ؟ فقالوا : يشتكى عينيه يا رسول الله ، قال : فأرسلوا إليه فأتونى به ، فلما جاء : بَصَق فى عينيه ودعا له ، فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع ، فأعطاه الراية ، فقال على : يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟ فقال : انفُذ على رسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم ادعهم إلى الإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله فيه ، فو الله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمر النَعَم » « ففتح الله عليه » .

* قال : « **وهُم الخلفاءُ الرَّاشدون ، والأئمةُ المهديّون** » .

لقول النبى - ﷺ - : « **عليكم بسُنّتى وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدى ، تمسكوا بها ، وعضوا عليها بالنواجِذِ ، وَإياكم ومُحْدَثاتِ الأمور ، فإن كل بِدعةٍ ضلالة** » .

رواه أصحاب السنن الأربعة ، وصحّحه الترمذى .

وترتيب الخلفاء الراشدين - رضى الله عنهم - أجمعين فى الفضل كترتيبهم فى الخلافة ، وعلى هذا عامةُ أهل السنة ، وفى صحيح البخارى عن ابن عمر قال : كنا

نقول ورسول الله ـ ﷺ ـ حى : أفضل أمة النبى ـ ﷺ ـ بعده أبو بكر ، ثم عمر ، ثم عثمان .

العشرة المبشرون بالجنة وبعض مناقبهم

• قال الطحاوى : « وأن العشرَة الذين سمَّاهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وبشَّرَهم بالجنة : نشهدُ لهم بالجنة ، على ما شَهد لهم رسولُ الله ـ ﷺ ـ وقوله الحقُّ ، وهم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلىّ ، وطلحة ، والزبير ، وسعد ، وسعيد ، وعبد الرحمن بنِ عوفٍ ، وأبو عبيدةَ بن الجراحِ ، وهو أمينُ هذه الأمةِ ـ رضى اللهُ عنهم ـ أجمَعين » .

وقد تقدم ذكر بعض فضائل الخلفاء الأربعة ، ومن فضائل الستة الباقين ما رواه مسلم عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ قالت :

« أرقَ رسولُ الله ـ ﷺ ـ ذاتَ ليلة ، فقال : ليتَ رجلاً صالحاً من أصحابى يحرسنىَ الليلة ، قالت : وسمعنا صوت السلاح ، فقال النبى ـ ﷺ ـ مَنْ هذا ؟ فقال سعد بن أبى وقاص : يا رسول الله : جئت لأحرسك » « فدعا له رسول الله ـ ﷺ ـ ثم نام » وفى الصحيحين : « أن رسول الله ـ ﷺ ـ جمعَ لسعدِ بن أبى وقاص أبويه يوم أحد ، فقال : إرم فداكَ أبى وأمى » .

وفى صحيح البخارى عن قيسِ بن أبى حازم قال : رأيت يد طلحةَ التى وقى بها النبى ـ ﷺ ـ يوم أحد قد شلَّت .

وفى الصحيحين عن أبى عثمانَ النهدى قال : لم يبق مع رسول الله ـ ﷺ ـ فى بعض تلك الأيام التى فيها النبى ـ ﷺ ـ غيرُ طلحة وسعد .

وفى الصحيحين ـ واللفظ لمسلم ـ عن جابر بن عبد الله قال : « نَدَب رسول الله ـ ﷺ ـ الناسَ يوم الخندق ، فانتدَب الزبيرُ ، ثم ندبهم ، فانتدب الزبيرُ ، فقال النبى ـ ﷺ ـ لكل نبىٍّ حَوارىّ ، وحواريى الزبير » .

وفى صحيح مسلم أن رسول الله ـ ﷺ ـ قال : « إن لكل أمة أميناً ، وإن أميننا ـ أيتها الأمة ـ أبو عبيدة بنُ الجراح » .

وفى مسند أحمد وجامع الترمذى أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « أبو بكر فى الجنة ، وعليٌّ فى الجنة ، وعثمانُ فى الجنة ، وطلحةُ فى الجنة ، والزبيرُ بن العوام فى الجنة وعبدُ الرحمن بن عوفٍ فى الجنة ، وسعيدُ بن زيد فى الجنة ، وأبو عبيدة بنُ الجراح فى الجنة » .

وسعيد هو ابن زيد بن عَمرو بن نُفَيل القرشى ، وكان أبوه حنيفاً علّى مِلَّة إبراهيم ـ عليه السلام ـ .

وقد اتفق أهل السنة على تعظيم هؤلاء العشرة وتقديمهم ، لما اشتهر من فضائلهم ومناقبهم .

البراءة من النفاق ، بإحسان القول فى الصحابة وآل البيت

• **قال الطحاوى : « ومَنْ أحسَنَ القولَ فى أصحاب رسول الله ـ ﷺ ـ وأزواجه الطاهراتِ من كل دَنَسٍ ، وذُرياته المقدسين من كل رجْس : فقد بَرِىء من النفاقِ »** .

وذلك لقول النبى ـ ﷺ ـ فى صحيح مسلم :

« أنا تارك فيكم ثقلين : أولُهما كتابُ الله ، فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به ، فحث على كتاب الله ورَغَّبَ فيه ، ثم قال : وأهل بيتى ، أذكركم الله فى أهل بيتى » .

الذكر الجميل لعلماء سلف الأمة وفقهاؤها

* قال : « **وعلماءُ السلَف من السابقين ، ومَنْ بعدَهم من التابعين ـ أهلُ الخَبَر والأثر ، وأهلُ الفقهِ والنظَر ـ لا يُذكَرون إلا بالجميل ، ومَن ذكَرهم بسُوءٍ فهو على غيرِ السبيل** » .

لقول الله تعالى : ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴾ (النساء : ١١٥) .

فيجب على كل مسلم بعد موالاة الله ورسوله : موالاةُ المؤمنين ، كما نطق به القرآن ، خصوصاً الذين هم ورثة الأنبياء ، وهم متفقون اتفاقاً يقيناً على وجوب اتباع الرسول ـ ﷺ ـ ولكن إذا وُجد لواحد منهم قولُ قد جاء حديثُ صحيح بخلافه : فلا بُدَّ له فى تركه من عذر وجماع الأعذار ثلاثة أصناف :

أحدُهما : عدمُ اعتقاده أن النبى ـ ﷺ ـ قاله .

والثانى : عدمُ اعتقادِه أنه أراد تلك المسألةَ بذلك القول .

والثالث : اعتقاده أن ذلك الحكم منسوخ .

فلهم الفضل علينا والمنَّة بالسبق ، وتبليغُ ما أرسل به الرسول ـ ﷺ ـ إلينا ، وإيضاحُ ما كان منه يخفى علَينا ، فرضى الله عنه وأرضاهم .

علوّ مقام النبوة

* قال : « ولا نُفَضِّلُ أحداً من الأولياء على أحدٍ من الأنبياءِ ـ عليهم السلامُ ـ ونقول : نبىٌّ واحدٌ أفضلُ من جَميعِ الأولياءَ » .

إذ أن مقام النبوة هو أعلى المقامات باتفاق أهل السنة .

كرامات أولياء الله تعالى

* قال : « ونؤمنُ بما جاء من كراماتِهم ، وصَحَّ عن الثِقات من رُواياتهم » .

والمعجزة فى اللغة تعم كل خارقة ، وكذلك الكرامة فى عُرف أئمة أهل العلم المتقدمين ، ولكن كثيراً من المتأخرين يفرقون فى اللفظ بينهما ، فيجعلون المعجزة للنبى ، والكرامة للولى ، وجماعها : الأمر الخارق للعادة .

معنى الكرامة

والكمال يرجع إلى ثلاثة : العلم ، والقدرة ، والغنى ، وهذه الثلاثة لا تصلح على الكمال إلا لله وحدَه ، فإنه الذى أحاط بكل شىء علماً ، وهو على كل شىء قدير ، وهو غنى عن العالمين ، ولهذا أمر النبى ـ ﷺ ـ أن يتبرأ من دعوى هذه الثلاثة بقوله : ﴿ قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَائِنُ اللَّهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَىٰ إِلَىَّ ﴾ (الأنعام : ٥٠) .

وكذلك قال نوح ـ عليه السلام ـ فهذا أولُ أولى العزم ، وأول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض ، وهذا خاتم الرسل ، وخاتم أولى العزم ، وكلاهما تبرأ من ذلك وهذا لأنهم يطالبونهم تارة بعلم الغيب ، كقوله تعالى : ﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴾ (الأعراف : ١٨٧) .

وتارة بالتأثير ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعًا ﴾ (الإسراء : ٩٠) .

وتارة يعيبون عليهم الحاجة البشرية ، كقوله تعالى : ﴿ وَقَالُوا مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى الأَسْوَاقِ ﴾ (الفرقان : ٧) .

فأمر الرسول أن يخبرهم بأنه لا يملك ذلك ، وإنما ينال من تلك الثلاثة بقَدْر ما يعطيه الله ، فيعلم ما علّمه اللهُ إياه ، ويستغنى عما أغناه الله عنه ، ويقدر على ما أقدره عليه من الأمور المخالفة للعادة المطردة أو عادة أغلب الناس .

فجميع المعجزات والكرامات ما تخرج عن هذه الأنواع .

ثم الخارق : إن حصل به فائدة مطلوبة فى الدين : كان من الأعمال الصالحة المأمور بها ديناً وشرعاً ، إما واجب أو مستحب ، وإن حصل به أمر مباح : كان من نعم الله الدنيوية التى تقتضى شكراً ، وإن كان على وجهٍ يتضمن ما هو منهىٌّ عنه نَهىَ تحريم أو نَهىَ تنزيهٍ : كان سبباً للعذاب أو البغض .

أنواع الخوارق

فالخارق ثلاثة أنواع : محمودٌ فى الدين ، ومذمومٌ ،ومباح ، فإن كان المباح فيه منفعةٌ : كان نعمة ، وإلا فهو كسائر المباحات التى لا منفعة فيها .

المؤمن طالب لاستقامة ، لا لكرامة

قال أبو على الجوزجانى : كن طالباً للإستقامة ، لا طالباً للكرامة ، فإن نفسك متحركة فى طلب الكرامة ، وربك يطلبُ منك الاستقامة .

قال الشيخ السهر وردى فى عوارفه : ولهذا ضلَّ كثير فى هذا الباب ، فإن كثيراً من المجتهدين المعتدين سمعوا سلف الصالحين المتقدمين ، وما مُنحوا من الكرامات وخوارق العادات ، فنفوسهم لا تزال تتطلع إلى شىء من ذلك ، ويحبون أن يُرزقوا شيئاً منه ، ولعل أحدهم يبقى منكسر القلب متهماً لنفسه فى صحة عمله ، حيث لم يحصل له خارق ، ولو علموا بسر ذلك لهان عليهم الأمر ، فيعلم أن الله يفتح على بعض المجاهدين الصادقين منَ ذلك باباً ، ليزداد بما جرى من خوارق العادات وآثار القدرة يقيناً فيقوى عزمه على الزهد فى الدنيا ، والخروج عن دواعى الهوى . . فسبيل الصادق : مطالبة النفس بالإستقامة ، فهى كل الكرامة .

واعلم أن المسلم إذا لم ينكشف له شىء من المغيبات ، ولم يُسَخَّر له شىء من الكونيات ، لا ينقصه ذلك فى مرتبته عند الله ، بل قد يكون عدم ذلك أنفعَ له ، فإنه إن اقترن به الدين وإلا هلك صاحبه فى الدنيا والآخرة ، فإن الخارق قد يكون مع الدين ، وقد يكون مع عدمه أو نقصه ، فالخوارق النافعة تابعة للدين ، خادمة له ، كما أن الرياسة النافعةَ هى النافعة للدين ، وكذلك المال النافع ، فمن جعلها هى المقصودة ، وجعل الدين تابعاً لها ووسيلةً إليها فهو شبيه بمن يأكل الدنيا بالدين ، وليست حاله كحال من تَدَيَّن خوفَ العذاب أو رجاء الجنة .

ثم إن الدين إذا صح علماً وعملاً فلا بد أن يوجب خرق العادة إذا احتاج إلى ذلك صاحب ، قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (الطلاق : ٢ ، ٣) .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا ﴾ (الأنفال : ٢٩) .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **إتقوا فراسة المؤمن ، فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ قوله تعالى : إن فى ذلك لآيات للمتوسمين** » . رواه الترمذى .

وفى الحديث القدسى الصحيح عن رسول الله ـ ﷺ ـ أن الله تعالى قال : «من عادى لى ولياً فقد بارزنى بالمحاربة ، وما تقرّب إلىّ عبدى بمثل أداء ما افترضتُ عليه ، ولا يزال عبدى يتقرب إلىَّ بالنوافل حتى أحبّه ، فإذا أحببته كنتُ سمعَه الذى يسمع به ، وبصَرَه الذى يُبصر به ، ويده التى يبطش بها ، ورجله التى يمشى بها ، ولئن سألنى لأعطينه ، ولئن استعاذنى لأُعيذنَّه » .

الإيمان بأشراط الساعة

• **قال الطحاوى** ـ رحمه الله ـ : « **ونؤمن بأشراط الساعة ، من خروجِ الدّجّال ونزولِ عيسى بنِ مريمَ عليهِ السلامُ من السماءِ ونؤمنُ بطلوعِ الشمسِ من مَغربِها ، وخروجِ دابّةِ الأرضِ من موضِعها** » .

فعن حُذيفة بن أسيد الغفارى ـ رضى الله عنه ـ قال :

« **اطلع النبى ـ ﷺ ـ علينا ونحن نتذاكر الساعة ، فقال : ما تذاكرون ؟ قالوا نذكر الساعة ، فقال : إنها لن تقوم حتى ترون قبلها عشر آيات ، فذكر : الدخان ، والدجّال ، والدابة ، وطلوعَ الشمس من مغربها ، ونزول عيسى بن مريم ، ويأجوج ومأجوج ، وثلاثة خُسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وخسف بجزيزة العرب ، وآخر ذلك نارٌ تخرج من اليمن تطرد الناس إلى محشرهم** » رواه مسلم .

وقال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **ما من نبى إلا أنذر قومَه الأعور الدجال ، ألا إنه أعور ، وربكم ليس بأعور ، ومكتوب بين عينية « ك ف ر » وفسَّره فى رواية : « أى كافر** » حديث صحيح .

وروى البخارى عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **والذى نفسى بيده ، ليوشكَنَّ أن ينزل فيكم ابنُ مريَم حكَماً عَدلاً ، فيكسرُ الصليب ، ويقتلُ الخنزير ، ويَضعُ الجزية ، ويفيضُ المال حتى لا يقبلَه أحد ، حتى تكون السجدة خيراً من الدنيا وما فيها** » .

وأما خروج الدابة وطلوع الشمس من المغرب ، فقال تعالى : ﴿ **وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِّنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ** ﴾ (النمل : ٨٢) .

وروى البخارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ ﷺ ـ : « **لا تقوم الساعة حتى تطلُع الشمس من مغربها ، فإذا رآها الناس : آمن من عليها ، فذلك حين لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل** » .

كذب الكهنة والعرافين

* قال أبو جعفر : « **ولا نُصَدِّقُ كاهِناً ولا عَرَّافاً ، ولا من يَدّعى شيئاً يخالفُ الكتابَ والسنَّةَ وإجماعَ الأمة** » .

لقول النبى ـ ﷺ ـ :

« **من أتى عَرّافاً فسأله عن شىء : لم يقبل له صلاة أربعين ليلة** » . رواه مسلم

وفى حديث آخر :

« **مَن أتى عرّافاً أو كاهِناً فصدقه بما يقول : فقد كفَرَ بما أُنزل على محمد** » رواه الإمام أحمد بن حنبل .

والمنجّم يدخل فى اسم العرّاف .

فإذا كانت هذه حال السائل ، فكيف بالمسؤول ؟

وفى الصحيحين عن عائشة قالت : « سئل رسول الله ـ ﷺ ـ عن الكُهان فقال : ليسوا بشيء ، فقالوا : يا رسول الله ، إنهم يُحدثون أحياناً بالشيء يكون حقاً ؟ فقال رسول الله ـ ﷺ ـ تلك الكلمة من الحق يخطفها الجِنّى فيقرها فى أُذن وليه ، فيخلطون فيها أكثر من مائة كذبة » .

ويدخل فى هذا المعنى أيضاً : صاحب الأزلام التى يُسْتَقسَم بها ، والضارب بالحَصى ، والذى يَخط فى الرمل ، وما تعاطاه هؤلاء حرامٌ ، بالإجماع كما قال البَغوى والقاضى عياض .

وفى صحيح البخارى أنه كان لأبى بكر غلام ، فجاء يوماً بشيء ، فأكل منه أبو بكر ، فقال له الغلام ، تدرى ممَّ هذا ؟ قال : وما هو قال : كنت تكهنت الإنسان فى الجاهلية ، وما أحسن الكَهانة ، إلا أنى خدعته ، فلقينى ، فأعطانى بذلك ، فهذا الذى أكلت منه ، فَأدخل أبو بكر يده فقاءَ كل شيء فى بطنه .

والواجب على ولى الأمر وكلٍّ قادر أن يسعى فى إزالة هؤلاء المنجمين والكهان والعرافين ، وأصحاب الضرب بالرمل والحصى ، ومنعهم من الجلوس فى الحوانيت والطرقات ، أو يدخلوا على الناس فى منازلهم لذلك .

وهؤلاء الذين يفعلون هذه الأفعال الخارجةَ عن الكتاب والسنة أنواع : نوع منهم : أهلُ تلبيس وخداع ، الذين يُظهر أحدُهم طاعة الجن له من المشايخ النصَّابين ، والطُرُقية الكاذبين ، فهؤلاء يَستحقون العقوبة البليغة التى تردعهم وأمثالَهم عن التلبيس ، وقد يكون فى هؤلاء من يستحق القتل ، كمن يدعى النبوة ونوع يتكلم فى هذه الأمور على سبيل الجد ، بأنواع السحر ، وجُمهورُ العلماء يوجبون قتل الساحر ، كُما هو مذهب أبى حنيفة ومالك وأحمد ، وهذا هو المأثور عن الصحابة ، كعمر وعثمان وغيرهم .

حكم السحر

وقد تنازع العلماء فى حقيقة السحر وأنواعه ، والأكثرون يقولون : إنه قد يؤثر فى موت المسحور ومرضه من غير وصول شيء ظاهر إليه ، وزعم بعضهم أنه مجرد تخييل ، واتفقوا كلَهم على أن ما كان من جنس دعوة الكواكب السبعة أو السجود لها ، والتقرب إليها بما يناسبها من اللباس والخواتم والبَخور ، ونحوِ ذلك ، فإنه كفرَ وهو من أعظمَ أنواع الشرك ، فيجب غلقه .

حكم الرقية

واتفقوا كلهم أيضاً على أن كل رُقية وتعزيم أو قَسَم ، فيه شرك بالله ، فإنه لا يجوز التكلم به ، وأن اطاعته به الجن ، وكذلك كل كلام فيه كفر لا يجوز التكلم به ، ولهذا قال النبى ـ ﷺ ـ « لا بأس بالرُقى ما لم تك شركاً » .

حكم الاستعاذة بالجن

ولا يجوز الاستعاذة بالجن ، فقد ذمّ الله الكافرين على ذلك ، فقال تعالى : ﴿ وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا ﴾ (الجن : ٦) .

قالوا : كان الإنسى إذا نزل بالوادى يقول : أعوذ بعظيم هذا الوادى من سفهائه وقد قال الله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۝٤٠ قَالُوا سُبْحَانَكَ أَنتَ وَلِيُّنَا مِن دُونِهِم بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الْجِنَّ أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ ﴾ (سبأ : ٤٠ ، ٤١) .

فهؤلاء الذى يزعمون أنهم يدعون الملائكة ضالون ، وإنما تنزل عليهم الشياطين .

الواجب عرض الأفعال على الشريعة المطهرة

والواجب عرضُ أفعال الجميع على الشريعة المحمدية ، فما وافقها قُبل ، وما

خالفها رد ، كما قال النبى ـ ﷺ ـ : « **مَن أحْدَثَ فى أمرنا هذا ما ليس منه فهو رَد** » فلا طريقةَ إلا طريقةُ الرسول ـ ﷺ ـ ولا حقيقةَ إلا حقيقتُه ، ولا عقيدةَ إلا عقيدتُه ولا يصل أحد من الخلق بعده إلى الله وإلى رضوانه وجنته إلا بمتابعته ظاهراً وباطناً ومن لم يكن له مصدقاً فيما أخبره ، ملتزماً لطاعته فيماأمر ، فى الأمور الباطنة التى فى القلوب ، والأعمال الظاهرية التى على الأبدان : لم يكن مؤمناً ، فضلاً عن أن يكون وليّا لله تعالى ، ولو طار فى الهواء ، وأخرج الذهب من الخشب ، وحصل له من الخوارق ماذا عسى أن يحصل ، فإنه لا يكون ـ مع تركه الفعل المأمور ـ إلا من أهل الأحوال الشيطانية .

وكذلك الذين يُصعَقون عند سَماع الأنغام الحَسَنة ، مبتدعون ضالون ، ولم يكن فى الصحابة والتابعين من يفعل ذلك ، ولو عند سماع القرآن ، بل كانوا كما وصفهم الله تعالى : ﴿ **إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ** ﴾ (الأنفال : ٢) .

وما يحصل لبعضهم عند سماع الأنغام المطربة ، من الهذيان ، والتكلم ببعض اللغات المخالفة للسان المعروف منه ، فذلك شيطان يتكلم على لسانه .

وأما الذين ذكرهم العلماء بخير من عقلاء المجانين ، فأولئك كان فيهم خير ، ثم زالت عقولهم ، فإذا حصل فى جنونهم نوع من الصحو تكلموا بما كان فى قلوبهم من الإيمان .

وأما الذين يتعبدون بالرياضات ، من الجوع والتعرى وتعذيب الجسد ، وبالخلوات والعُزلة ، ويتركون الجُمَع والجماعات ، فهم الذين ضلّ سعيهم فى الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، كما قد ثبت فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **من ترك ثلاث جُمَع تهاوناً من غير عذر : طبع الله على قلبه** » **وكل من عَدَل عن اتباع سنة الرسول ، إن كان عالماً بها ، فهو مغضوب عليه ، وإلا فهو ضال ، وهذا شرع الله لنا أن نسأله كل صلاة أن يهدينا الصراط**

المستقيم ، صراط الذين أنعم عليهم ، من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وحَسُن اولئك رفيقاً » .

وأما ما يتعلق بقصة موسى مع الخضر ـ عليه السلام ـ فى تجويز الاستغناء عن الوحى بالعلم اللّدُنى ، الذى يدّعيه بعضُ من عُدم التوفيق : فهو ملحد زنديق ، فإن موسى ـ عليه السلام ـ لم يكن مبعوثاً إلى الخَضر ، ولم يكن الخضر مأموراً بمتابعته ، ولهذا قال له : أنت موسى بنى إسرائيل ؟ قال : نعم ، كما فى صحيح البخارى ، ومحمد ـ ﷺ ـ مبعوث إلى جميع الثقلين ، ولو كان موسى وعيسى حيّين لكانا من أتباعه ، وإذا نزل عيسى ـ عليه السلام ـ إلى الأرض كالخضر مع موسى ، أو جوز ذلك لأحد من الأمة : فليجدد إسلامه ، فإنه مفارق لدين الإسلام بالكلّية ، فضلاً عن أن يكون من أولياء الله ، وإنما هو من أولياء الشيطان .

الجماعة والفرقة

* قال الطحاوى : **« ونَرى الجماعةَ حقاً وصواباً ، والفُرقةَ زَيغاً وعذاباً »** .

وذلك لقوله تعالى : ﴿ **وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا** ﴾ (آل عمران : ١٠٣)

وقال تعالى : ﴿ **وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ** ﴾ (آل عمران : ١٠٥) .

وقال سبحانه : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ (الأنعام : ١٥٩) .

وقال النبى ـ ﷺ ـ : « **إن أهل الكتابين افترقوا فى دينهم على ثنتين وسبعين ملة ، وأن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة ـ يعنى الأهواء ـ كلها فى النار إلا واحدة ، وهى الجماعة** » . وفى رواية : « **قالوا : مَن هى يا رسول الله ؟ قال : ما أنا عليه وأصحابى** » فبيّن أن عامة المختلفين هالكون إلا أهل السنة والجماعة ، وأن الاختلاف واقع لا مَحالة .

وروى الإمام أحمدُ عن مُعاذ بن جبل أن النبى ـ ﷺ ـ قال : « **إن الشيطان ذئبُ الإنسان ، كذئب الغنم ، يأخذُ الشاة القاصية والناحية ، فإياكم والشِعابَ ، وعليكم بالجماعة ، والعامة ، والمسجد** » .

والأمورُ التى تتنازع فيه الأمة ـ فى الأصول والفروع ـ إذا لم ترد إلى الله والرسول : لم يتبين فيها الحق ، بل يَصير فيها المتنازعون على غير بينة من أمرهم ، فإنهم ـ إن رحمهم الله ـ أقرّ بعضهم بعضاً ، ولم يبغِ بعضهم على بعض ، كما كان الصحابة فى خلافة عمر وعثمان يتنازعون فى بعض مسائل الاجتهاد ، فيُقرّ بعضهم بعضاً ، ولا يَعتدى ولا يُعتدى عليه ، وإن لم يرحموا : وقع بينهم الاختلاف المذموم ، فبغى بعضهم على بعض ، إما بالقول : مثل تكفيره وتفسيقه ، وإما بالفعل ، مثل حبسه وضربه وقتله ، والذين امتحنوا الناس بخلق القرآن كانوا من هؤلاء ، ابتدعوا بدعة ، وكفروا من خالفهم فيها ، واستحلوا منع حقه وعقوبته .

فالناس إذا خفى عليهم بعضُ ما بعث الله به الرسول : إما عادلون وإما ظالمون ، فالعادل فيهم : الذى يعمل بما وصل إليه آثار الأنبياء ، ولا يظلم غيره والظالم الذى يعتدى على غيره ، وأكثرهم إنما يظلمون على علمهم بأنهم يظلمون ، كما قال الله تعالى : ﴿ **وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ** ﴾ (آل عمران : ١٩) .

وإلا فلو سلكوا ما علموه من العدل : أقر بعضهم بعضاً ، كالمقلدين لأئمة العلم ، الذين يعرفون من أنفسهم أنهم عاجزون عن معرفة حكم الله ورسوله فى تلك المسائل ، فجعلوا أئمتهم نواباً عن الرسول ، وقالوا : هذا غاية ما قدرنا عليه فالعادل منهم لا يظلم الآخر ، ولا يعتدى عليه بقول ولا فعل ، مثل أن يدعى أن قول مقلدِه هو الصحيح ، بلا حجةٍ يبديها ، ويذُم من خالفه ، مع أنه معذور .

الاختلاف قسمان : تنوع وتضاد

ثم إن أنواع الافتراق والاختلاف فى الأصل قسمان : اختلاف تَنَوُّع ، واختلاف تَضادّ .

واختلافُ التنوع على وجوه : منه ما يكون كل واحد من القولين أو الفعلين حقاً مشروعاً ، كما فى القراءات التى اختلف فيها الصحابة ـ رضى الله عنهم ـ حتى زجرهم النبى ـ ﷺ ـ وقال : « **كلاكما محسن** » ومثله اختلاف الأنواع فى صفة الأذان ، والإقامة ، والاستفتاح ، ومحل سجود السهو ، والتشهد ، وصلاة الخوف ، وتكبيرات العيدين ، ونحو ذلك مما قد شُرِع جميعه ، وإن كان بعض أنواعه أرجح وأفضل ، ثم تجد لكثير من الأمة فى ذلك من الاختلاف ما أوجب اقتتالَ طوائف منهم على شفع الإقامة وإيتارها ، ونحو ذلك ، وهذا عين المحرم ، ومنه ما يكون كل من القولين هو فى معنى القول الآخر ، لكن العبارتين مختلفتان ، كما قد يختلف كثير من الناس فى التعبير عن المسميات .

وأما اختلاف التضادَ : فهو القولان المتنافيان ، إما فى الأصول ، وإما فى الفروع ، والخطْب فى هذا أشد ، لأن القولين يتنافيان ، لكن نجد كثيراً من هؤلاء قد يكون القول الباطل الذى مع منازعه فيه حق مّا ، أو معه دليل يقتضى حقاً ما ، فيردّ الحق مع الباطل ، حتى يبقى هذا مبطلاً فى البعض ، كما كان الأول مبطلاً فى الأصل ، وهذا يجرى كثيراً لأهل السنة .

وأما أهل البدعة : فالأمر فيهم ظاهر ، ومن جعل الله له هداية ونوراً رأى من هذا ما يبين له منفعةَ ما جاء فى الكتاب والسنة من النهى عن هذا وأشباهه ، وإن كانت القلوب الصحيحة تنكر هذا ، لكن نورعلى نور .

والاختلاف الأول ـ الذى هو اختلاف التنوع ـ الذمُّ فيه واقعٌ على مَن بَغى على الآخر فيه ، وقد دل القرآن على حمد كل واحدة من الطائفتين فى مثل ذلك إذا لم يحصل بغى ، كما فى قوله تعالى : ﴿ **مَا قَطَعْتُم مِّن لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَىٰ أُصُولِهَا**

فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيُخْزِيَ الْفَاسِقِينَ ﴾ (الحشر : ٥) .

وقد كانوا اختلفوا فى قطع أشجار النخيل يوم غزوة بنى النضير .

وقال النبى - ﷺ - : « **إذا اجتهد الحاكم فأصاب فله أجران ، وإذا اجتهد فأخطأ فله أجر** » .

والاختلاف الثانى : هو ما حُمد فيه إحدى الطائفتين ، وذُمت الأخرى ، كما فى قوله تعالى : **﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ ﴾** (البقرة : ٢٥٣) .

وأكثر الاختلاف فى القرآن ، إنما هو فى تأويله ، والنجاة منه تكون باتباع ما أرشدَنا إليه النبى - ﷺ - فى حديث عمرو بن شعيب ، عن أبيه ، عن جده ، قال « **خرج رسول الله - ﷺ - على أصحابه ذات يوم وهم يختصمون فى القَدَر ، هذا ينزع بآية ، وهذا ينزع بآية ، فكأنما فقىء فى وجهه حَبّ الرمان ، فقال أبهذا أمرتم؟ أم بهذا وكلتم ؟ أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض ؟ انظروا ما أمرتم به فاتبعوه وما نُهيتم عنه فانتهوا** » . روا الإمام أحمد فى المسند .

وفى رواية : « **يا قوم بهذَا ضلّت الأمم قبلكم ، باختلافهم على أنبيائهم ، وضربهم الكتاب بعضه ببعض ، وأن القرآن لم ينزل لتضربوا بعضه ببعض ، ولكن نزل القرآن يُصدّق بعضه بعضاً ، ما عرَفتم منه فاعملوا به ، و ما تشابه فآمنوا به** » .

وفى رواية : « **فإن الأمم قبلكم لم يُلعنوا حتى اختلفوا ، وإن المِراء فى القرآن : كفر** » .

وهو حديث مشهور ، مُخرَّج فى المسانيد والسنن ، وقد روى أصل الحديث مسلم فى صحيحة ، من حديث عبد الله بن رباح الأنصارى ، أن عبد الله بن عمرو ابن العاص - رضى الله عنهما - قال :

« هَجرتُ إلى النبى - ﷺ - يوماً ، فسمعَ أصواتَ رجلين اختلفا فى آية ،

فخرج علينا رسول الله ـ ﷺ ـ يُعرف فى وجهه الغضب فقال : إنما هلك من كان قبلكم باختلافهم فى الكتاب » .

وجميع أهل البدع مختلفون فى تأويله ، مؤمنون ببعضه دون بعض ، يقرون بما يوافق رأيهم من الآيات ، وما يخالفه : إما أن يتأولوه تأويلاً يحرفون به الكلم عن مواضع ، وإما أن يقولوا : هذا مما لا نفهم معانيه ، وهو فى معنى الكفر بذلك لأن الإيمان باللفظ بلا معنى هو من جنس إيمان أهل الكتاب ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلا أَمَانِيَّ ﴾ (البقرة : ٧٨) .

أى : إلا تلاوة من غير فهم لمعناه ، وليس هذا كالمؤمن الذى فهم ما فهم من القرآن فعمل به ، واشتبه عليه بعضه ، فوكل علمه إلى الله .

الإسلام لأهل الأرض والسماء، دين الاعتدال

*** قال أبوجعفر : « ودينُ الله فى الأرضِ والسماء واحدٌ وهو دينُ الإسلام ، قال تعالى : إن الدينَ عندَ الله الإسَلامُ وقال تعَالى : ورَضيَتُ لكم الإسلامَ ديناً ، وهو بين الغُلُوِّ والتقصيرِ ، وبين التَشبيهِ والتعطيلِ ، وبين الجَبْر والقدرِ ، وَبين الأمنِ والإياس » .**

كم ثبت فى الصحيح عن أبى هريرة ـ رضى الله عنه ـ عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **إنا معاشَر الأنبياء دينُنا واحد** » .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ﴾ (آل عمران : ٨٥) .

وهى آية حكمها عام فى كل زمان ، ولكن الشرائع تتنوع ، كما قال تعالى : ﴿ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة : ٤٨) .

فالدين : هو ما شرعه الله سبحانه وتعالى لعباده على ألسنة رُسله ، وهو ظاهرٌ غايةَ الظهور ، يمكن كل مميز ، من صغير وكبير ، وفصيح وأعَجمى ، أن يدخل فيه بأقصر زمان ، وكان الوافد على المدينة يتعلمه ثم يولى فى وقته إلى موطنه يكفيه ما تعلمه .

واختلاف تعليم النبى - ﷺ - فى بعض الألفاظ بحَسَب من يتعلم ، فإن كان بعيدَ الوطن ، كضمامِ بنِ ثعلبة النجدى ، ووفد عبد القيس الذين أتوا من البحرين عَلَّمهم ما لا يسَعَهُم جهلُه ، مع علمه أن دينه سينتشر فى الآفاق ، ويرسل إليهم مَن يفُقههم فى سائر ما يحتاجون إليه ، ومن كان قريب الوطن يمكنه الإتيانُ فى كل وقت ، بحيث يتعلم على التدريج ، أو كان قد علم فيه أنه قد عرف ما لابد منه : إجابة بحسب حاله وحاجته ، على ما تدل قرينةُ حالِ السائل ، كقوله - ﷺ - « **قل آمنت بالله ثم استقم** » .

ثم إن هذا الدين « بين الغلو والتقصير » كما قال الطحاوى ، فقد قال الله تعالى : ﴿ **قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ** ﴾ (المائدة : ٧٧) .

وقال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّباً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ** ﴾ (المائدة : ٨٧ ، ٨٨) .

وفى الصحيحين عن أنس بن مالك - رضى الله عنه - : « **أن ناساً من أصحاب رسول الله - ﷺ - سألوا أزواج رسول الله - ﷺ - عن عمله فى السر ، فقال بعضهم : لا آكل اللحم ، وقال بعضهم : لا أتزوجُ النساء ، وقال بعضهم : لا أنام على فراش ، فبلغ ذلك النبى - ﷺ - فقال : ما بال أقوام يقول أحدكم كذا وكذا ؟ لكنى أصوم وأفطر ، وأنام وأقوم ، وآكل اللحم ، وأتزوج النساء فمَن رغِب عن سنتى فليس منى** » .

ثم هذا الدين « بين الأمن والإياس » وأنه يجب أن يكون العبد خائفاً من عذاب ربه ، راجياً رحمته ، وأن الخوف والرجاء بمنزلة الجناحين للعبد فى سيره إلى الله تعالى .

خاتمة الإمام رحمه الله ، وهى جامعة

• **ولما انتهى الأمامُ الأجلُّ أبو جَعفرٍ أحمدُ بنُ سَلامةَ الأزدى الطَحاوى - رحمه**

الله ـ إلى هذا الموضع ، وَقرّر فهمَة لأصول العقيدة الإسلامية وفروعها : اختتم كلامه قائلاً : « فهذا دينُنا واعتقادُنا ، ظاهراً وباطناً ، ونحن بُرآءُ إلى الله تعالى من كل مَن خالفَ الذى ذكرناه وبيّناه ، ونسأل الله تعالى أن يُثبتَنا على الإيمانَ ، ويختمَ لنا به ، ويعصمَنا من الأهواء المختلفة ، والآراء المتفرقة ، والمذاهب الرَديّة مثل المُشبّهة ، والمعتَزلة ، والجَهمية ، والجَبرية ، والقَدَرية وغيرهم ، منَ الذينَ خالفوا السّنّةَ والجَماعَةَ وحالفوا الضلالةَ ، ونحن منهم براءُ ، وهَم عندنا ضُلاّلٌ وأردياءُ ، وبالله العصمةُ والتوفيق » .

وسبب ضلال هذه الفرق وأمثالِهم : عدولُهم عن الصراط المستقيم ، الذى أمرنا الله باتباعه .

قال تعالى : ﴿ قُلْ هَـٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ﴾ (يوسف : ١٠٨) .

وقالِ عبد الله بن مسعود ـ رضى الله عنه ـ :

« خَطّ لنا رسول الله ـ ﷺ ـ خطاً ، وقال : هذا سبيل الله ، ثم خط خطوطاً عن يمينه وعن يساره ، وقال : هذه سبُل ، على كل سَبيلٍ شيطانٌ يدعو إليه ، ثم قرأ وأن هذا صراطى مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » .

ومن هاهنا يُعلم أن اضطرار العبد إلى سؤال هداية الصراط المستقيم فوق كل ضرورة ، ولهذا شرع الله تعالى فى الصلاة قراءة أمّ القرآن فىُ كل ركعة ، لاحتياج العبد إلى هذا الدعاء العظيم القَدْر ، المشتمل على أشرف المطالب وأجلها ، فقد أمرنا الله تعالى أن نقول : ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴾ (الفاتحة : ٦ ، ٧) .

وقد ثبت عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال :

« اليهود : مغضوب عليهم ، والنصارى : ضالّون » .

وثبت فى الصحيح عن النبى ـ ﷺ ـ أنه قال : « **لتتبعُنَّ سنَن مَن كان قبلكم حَذوَ القُذّة بالقُذّة ؛ حتى لو دَخلوا جُحرَ ضَبٍّ لدخلتموه ، قالوا : يا رسول الله : اليهود والنصارى؟ قال : فمَن ؟؟** » .

قال طائفة من السَلف : من انحرف من العلماء ففيه شَبَه من اليهود ، ومن انحرف من العُباد ففيه شبه من النصارى .

نسأل الله السلامة والعافية ، وسبحان ربك ربِّ العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

انتهى المقدار المختار

من

شرح العلامة الأذرعى

لعقيدة الإمام الطحاوى الأزدى

وصلّى اللهُ على محمدٍ وآله وصحبه


الفهرس

الفهرس

الموضـــوع	الصحفة
مقدمة	5
شرح العقيدة الطحاوية	9
توحيد الله تعالى	12
أنواع التوحيد	13
دليل التمانع	14
توحيد الإلهية وبيان اعتقاد المشركين من العرب فيه	14
منهج القرآن فى تقرير وبيان وتوحيد الإلهية	15
نوعى التوحيد المنزل والمدعو إليه	18
أجل شهادة وأعظمها	19
عبارات السلف فى « شهد » ومراتبها الأربعة	19
طرق بيانه سبحانه شهادته ثلاثة	20
معنى اسميه تعالى « المؤمن والشهيد »	21
شرح قول الإمام : (ولا شيء مثله)	22
شرح قول الإمام : (ولا شيء يعجزه)	24
شرح قول الإمام : (ولا إله غيره)	24
شرح قول الإمام : (قديم بلا ابتداء ، دائم بلا انتهاء)	25
ضرورة التوقف فى إطلاق الأسماء على ما ورد به الشرع	26
شرح قول الإمام : (لا يفنى ولا يبيد ، ولا يكون إلا ما يريد)	27
معنى قوله تعالى : (ولا يحيطون به علماً)	29
المراد بقوله تعالى : (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)	29
(الحى القيوم) من أعظم أسماء الله الحسنى	30
معنى قول الإمام : (خالق بلا حاجة ، رازق بلا مؤونة)	32
معنى قول الإمام : (مميت بلا مخافة ، باعث بلا مشقة)	32
أزلية وأبدية الصفات العلى	33

الفهرس

الموضـــوع | الصحفة

قول الإمام مالك فى الاستواء 33
قول أئمة السنة فى : إثبات صفات الكمال للذات المقدسة 34
قول الجمهور فى : منع تسلسل الحوادث ماضياً لا مستقبلاً 35
دلالة قوله تعالى : (ذو العرش المجيد • فعال لما يريد) 35
تفصيل فى : مبدأ خلق العلم المشهود 36
ثبوت الصفات العلى فى الأزل قبل الخلق 38
الرد على تحريف المعتزلة لمعنى كلية القدرة 38
(ليس كمثله شىء) (وهو السميع البصير) : ردان على فرقتى المشبهة والمعطلة 39
دليلى النقل والعقل على العلم بالخلق 40
تقدير الأقدار والآجال ، ورد على المعتزلة 41
علم الله المحيط 43
غاية الخلق العبادة 43
ما شاء الله للعباد كان وما لم يشأ لم يكن 43
مسألة الهدى والضلال : والرد على المعتزلة 44
المشيئة بين الفضل والعدل 45
تعاليه سبحانه عن المثل 45
الإيمان واليقين بالقضاء والحكم والقدرة 45
الإيمان واليقين باصطفاء محمد عبد الله ورسوله - ﷺ - 46
زيادة العبودية تحقق زيادة الكمال 46
تقرير النبوة بالمعجزات وقرائن الحال وآثار الكرامة 46
إنكار رسالته - ﷺ - طعن فى الرب تعالى 48
صفات وأسماء للنبى - ﷺ - 49
كذب كل مدع للنبوة بعده - ﷺ - 52
عموم بعثته - ﷺ - لكافة الورى 52

الفهرس

الموضوع	الصحفة

القول الحق فى: القرآن الكريم كلام الله تعالى 53
الكلام صفة كمال، ورد على المعتزلة 54
إبطال استدلالهم بقوله تعالى: (الله خالق كل شىء) 55
إبطال استدلالهم بقوله تعالى: (إنه لقول رسول كريم) 57
اتفاق أهل السنة على أن كلام الله غير مخلوق 57
القول إن الكلام هو المعنى القائم بالنفس مردود 60
حكم قائل ذلك 60
تنزيه الله تعالى عن الوصف بمعنى من معانى البشر 61
رد الإمام الطحاوى على منكرى ثبوت الرؤية فى الجنة 61
إيراد أدلة 61
استدلال المعتزلة دليل عليهم 63
معنى « لن » وكونها لا تفيد تأبيد النفى 64
معنى الإدراك 65
الرؤية فى المحشر حاصلة 66
إمكان وقوع الرؤية فى الدنيا، وترجيح نفى وقوعها 66
الواجب: كمال التسليم، وتقديم النقل 68
تحريم القول على الله بغير علم 68
لا توحيد خالصاً فى غيبة التسليم التام 69
الطرق الكلامية وتيه أصحابها 70
الرد على المعتزلة فى تأويلهم الفاسد فى الرؤية 71
أمراض القلوب نوعان: شبهة وشهوة 75
تفسير سورة الإخلاص 75
الاتباع فى الإثبات والنفى الابتداع 76
معنى لفظ « الحدّ » 77

الفهرس

الموضــــوع	الصحفة

كلام نفيس لسهل التسترى-رحمه الله- 77
إثبات الإمام أبى حنيفة اليد والوجه والنفس 77
معنى لفظ «الجهة» 79
رد أوهام الجهلة فى حديث النزول 79
الإيمان بالإسراء والمعراج ، ورواية البخارى-رحمه الله- 80
الرؤية كانت بالقلب لا بعينى الرأس 86
الإسراء بالجسد يقظة 86
الحكمة فى الإسراء أولاً 87
الإيمان بورود الحوض 87
الإيمان بالشفاعة وأنواعها الثمانية 88
تفصيل فى حكم الاستشفاع والتوسل والدعاء 90
الإيمان بميثاق الأزل 93
علم الله محيط بكل شىء 94
العبرة بقضاء الله فى خواتيم الأعمال 94
التعمق فى معرفة أصل القدر ذريعة الخذلان 95
فرق بين المشيئة والرضا 96
هل نحن مأمورون بالرضا بكل مقضى 99
حكم من سأل : لم فعل ؟ 99
العلم علمان : علم موجود وآخر مفقود 100
الإيمان باللوح والقلم 101
خلق العرش قبل القلم 101
عجز الخلق عن تغيير الكائن المقدر 102
تقدير المقادير قبل الخلق معلوم محكم 103
القدر نظام التوحيد والإيمان 104

الفهرس

الموضوع	الصفحة
لزوم اتباع الحق عاصم عن الشبه فى أمر القدر	106
الإيمان بالعرش والكرسى	107
العرش غير الكرسى	107
غناه سبحانه عن خلقه	108
إثبات إحاطة العظمة والفوقية	109
ثمانية عشر نوعا من الأدلة لذلك	110
رد على المتأولين	112
المحبة والتكليم كما يليق به سبحانه	114
الإيمان بالملائكة والنبيين والكتب	116
المسلم العاصى غير المكذب، مؤمن	118
اتباع السلف الصالح فى مسألة خلق القرآن	118
رد على الخوارج والمرجئة والمعتزلة	119
المذنب غير المستحل، مسلم	119
الذنب منار للمؤمن	120
الوعيد للقائل ببدعة محرمة ولا تكفير	120
إجراء الحدود وقبول العفو يمنع التكفير	123
اختلاف لفظى بين أهل السنة	124
هل يكون الكفر على مراتب ؟ وكذلك الإيمان	124
التفصيل فيمن حكم بغير ما أنزل الله	125
قصة شرب قدامة الخمر متأولاً	125
العاصى المتأول ينبغى ألا ييأس	126
المحسنون فى رحمة الله ، بين الخوف والرجاء	126
أسباب عشرة مستقرأة تسقط العقوبة	127
الخوف والرجاء سبيل الحق	128

الفهرس

الموضوع	الصحفة

ارتكاب الكبيرة لا يوجب التكفير 129
تعريف الإيمان ، ومراتبه تبعاً للعمل 129
اختلاف صورى بين الإمام أبى حنيفة وباقى أئمة أهل السنة 130
أدلة على تفاضل الإيمان 131
أدلة على دخول العمل فى الإيمان 132
خبر الآحاد والتفصيل فيه 133
معنى « الشرع والبيان » 134
ولاية الله للمؤمنين 134
الإكرام بالتقوى 135
أركان الإيمان 136
وجه الجمع بين (فمن الله) و (فمن نفسك) 138
معنى طلب الهداية من الله تعالى 138
الإيمان برسل الله كافة 139
أهل الكبائر من أمة محمد - ﷺ - فى الآخرة 140
تعريف : الكبيرة والصغيرة والوعيد 140
وجوه ترجيح التعريف 141
حكم : الصلاة خلف مستور الحال والمبتدع المخفى بدعته 142
حكم : الصلاة خلف مظهر البدعة أو الفسق 143
الخلاصة فى ذلك 143
هل تنزل معيَّناً من أهل القبلة جنة أو ناراً ؟ 145
متى يحل دم المسلم ؟ 146
وجوب طاعة ولى الأمر ما لم يأمر بمعصية 147
التمسك بالسنة والجماعة سبيل النجاة 148
الحب والبغض فى الله 149

الفهرس

الموضـــوع	الصحفة

رد علم المتشابه إلى عالمه 149
مخالفة الرافضة فى أمور فقهية 150
الإيمان بكتابة الملائكة وحفظهم لنا 150
الإيمان بملك الموت 151
الإيمان بعذاب القبر لمستحقه 152
الدور ثلاث : الدنيا ، البرزخ ، القرار 153
هل يدوم عذاب القبر ؟ 154
منازل الأرواح 154
حياة خاصة للشهداء 155
الإيمان بالبعث وما يتبعه 155
الجنة والنار لا تبيدان ، وأهل كلّ بين الفضل والعدل ، عاملون بما قدر لهم 158
معنى قوله تعالى : (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) 161
أفعال العباد بين الخلق والكسب ، وفيه رد على الجبرية والقدرية 163
عدل الله فى التكليف ، وإجراء الأمور بمشيئة 166
أمران ينفعان الأموات 169
هل ينفع استئجار لقوم لقراءة القرآن وهداية ذلك للميت 170
الإيمان بإجابة الدعاء ، وقضاء الحاجات 172
معنى مشروعية الدعاء فى علم التوحيد 173
الإيمان بالملكية التامة ، ووجوب الافتقار وإثبات صفات معلومة 174
حب الصحابة إيمان ، وبغضهم طغيان 175
إثبات تقديم الخلفاء تبعاً لفضلهم وعلو شأنهم 176
العشرة المبشرون بالجنة ، وبعض مناقبهم 186
البراءة من النفاق ، بإحسان القول فى الصحابة وآل البيت 187
الذكر الجميل لعلماء سلف الأمة وفقهائها 187

الفهرس

الموضوع	الصفحة
علو مقام النبوة	188
كرامات أولياء الله تعالى	188
معنى الكرامة	189
أنواع الخوارق	190
المؤمن طالب لاستقامة، لا لكرامة	190
الإيمان بأشراط الساعة	191
كذب الكهنة والعرافين	192
حكم السحر	194
حكم الرُّقية	194
حكم الاستعاذة بالجن	194
الواجب عرض الأفعال على الشريعة المطهرة	194
الجماعة والفرقة	196
الاختلاف قسمان: تنوع وتضاد	198
الإسلام لأهل الأرض والسماء، دين الاعتدال	200
خاتمة الإمام ـ رحمه الله ـ وهى جامعة	201
الفهرس	204



• هذا الكتاب •

إن نقطة البداية فى مسيرة الإصلاح الإسلامى الحاضر إنما تتمثل فى التعريف بعقيدة التوحيد الخالصة من المبتدعات ، وإن المنطلق الصحيح للصحوة الإيمانية المعاصرة لابد أن ينبعث من هذه الحقيقة ، ليربى الجيل الجديد المقدام من شباب الإسلام وفق المعالم الأصلية لهذه العقيدة ، وليستدرك على العامة من الناس ما قد يكون علق بموازينهم من الاختلاطات والأوهام والشوائب .

ورجال التربية الإسلامية يدركون بوضوح هذا البعد المهم الرئيسى فى الخطة الإصلاحية ، وهم يشعرون أن واجبهم المبادرة إلى المساهمة فى هذا العملية التربوية التى تعطى للصحوة معناها الإيمانى .

ودار البشير .. إذ تقدم هذا الكتاب القيم النفيس إنما هو مظهر لهذا الإدراك الواعى ، وإجماعاً من العلماء على أن عقيدة الإمام الطحاوى - رحمه الله - هى العقيدة السليمة الصحيحة التى تلتزم الفهم السلفى السنى الصحيح .

راجية من الله - عز وجل - القبول ومن القراء الأعزاء الدعاء

والله من وراء القصد

الناشر







طنطا - ٢٣ ش الجيش عمارة الشرق للتأمين
تليفاكس : ٣٢١٧٤٤/٣٠٥٥٢٨/٢٢٨٢٧٧/٢١٠٩٠٧